١٩٤٦

مكتبة نوبل

هرمان هسه

المغامرة الاولى



علي مولا

ترجمة: صلاح حاتم

المغامرة الأولى



مكتبة نوبل

اسم المؤلف : هرمان هسه
عنوان الكتاب : المغامرة الأولى
المترجم : صلاح حاتم
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٢

Author :Hermann Hesse
Title :Das erste Abenteuer
Translator:Salah Hatem
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٤٦
مكتبة نوبل

هرمان هسه

المغامرة الأولى

ترجمة

صلاح حاتم



من أزمان الطفولة

اكتسبت الغابة السمراء البعيدة منذ أيام قليلة بريقاً بهيجاً من خضرة طرية ، وعلى جسر المشاة الطيني وجدت اليوم أول زهرة ربيع متفتحة نصف تفتح ، وفي صفحة السماء الصافية الندية تحلم غيوم نيسان الرقيقة ، والحقول الواسعة التي لم يتمّ جنيها كلها تتألق في سمرتها كل تألق وتنفرش باتجاه الهواء الرطيب مشتاقةً جداً لكأن لديها الشوق لأن تحمل وتنبت وتجرب قواها الخرساء في آلاف البذور الخضراء والعيدان السامقة ولأن تحسّ وتهدي .

كلّ شيء ينتظر ، كلّ شيء يستعدّ ، كلّ شيء يحلم في حمّى صيرورة خفيفة ملحة إلحاحاً رقيقاً ، البذرة تنبت صوب الشمس والغيمة صوب الحقل والعشب الفتي صوب الأنسام . ومن عام إلى عام أقف بالمرصاد في هذا الوقت بفروغ صبر وشوق لكأنه كان على لحظة خاصة أن تكشف لي عن آية الولادة الجديدة ، ولكأنه كان ينبغي أن يحدث أن أرى كلياً ذات مرة ، ساعةً واحدة ، تجلّي القوة والجمال وأن أفهمه وأشهد كيف تتفجرالحياة ضاحكة من الأرض وتفتح عيوناً

واسعة فتية على النور ، سنة تلو الأخرى يمرّ بي صوت الآية وعبقها – محبوبين ومعبودين– وغير مفهومين ؛ إنه هنا ولم أره قادماً ، لم أرَ غلاف البذرة ينفلق ، ولم أرَ أول الينابيع الرقيقة يترجرج في النور . الورود تنتصب فجأة في كل مكان ، الأشجار تتألق بأوراق غير كثيفة أوبنوار أبيض بياض الزبد ، وطيور ترتمي ببهجة في أقواس جميلة عبر الزرقة الدافئة .

تحققت الآية ، رغم أنني لم أرها أيضاً ، الغابات تتقوس ، وقمم بعيدة تنادي ، والوقت حان لتهيئة الجزمة والحقيبة وعصا صنارة السمك وأدوات التجذيف ، وللابتهاج بكل حواس السنة المبكرة التي تكون في كل مرة أكثر جمالاً من أي وقت مضى ، والتي تبدو أنها تخطو في كل مرة على نحو أسرع . كم كان الربيع طويلاً ، طولاً لا ينفد ، حين كنت بعد طفلاً!

حين يسمح الوقت ويصحو قلبي استلقي في العشب الرطيب أو أتسلق أقرب جذع صالح وأتأرجح في الفروع ، وأشمّ عبق البراعم والصمغ الطري وأرى شبكة الأغصان واللون الأخضر واللون الأزرق تختلط فوقي وأدخل سائراً في النوم طيفاً هادئاً إلى جنة عهد صباي المباركة . وقلما يتأتى هذا وإنه للذيذ وممتع جداً أن تتأرجح إلى الجهة الأخرى هنا ك مرة أخرى وأن تستنشق الهواء الصباحي الصافي لأول عهد الشباب ، وأن ترى مرة أخرى وللحظات العالم على نحو ما خرج

من تحت يدي الإله وكما رأيناه نحن منذ عهد الطفولة لأن في أنفسنا تفتحت معجزة القوة والجمال .

في ذلك الوقت سمقت الأشجار في الجو مرحةً كل المرح معاندةً كل العناد ، وفي ذلك الوقت نبت النرجس والعيسلان في الحديقة على نحوٍ جميلٍ جمالاً بهياً ، والناس الذين لم نعرفهم نحن إلا قليلاً ، قابلونا بطيبة قلب ولطف لأنهم ما زالوا يحسون بأنَ على جباهنا الناعمة نفحةَ الألوهية التي لم نعرف نحن عنها شيئاً والتي فقدناها عن غير قصد وعن غير معرفة تحت ضغط الكبر . نعمَ الصبيّ المندفع الجموح كنت أنا وكم قلق أبي عليّ من الصغر وكم خافت أمي وصعّدت التنهدات ! - ومع هذا ارتسم على جبهتي بهاء الإله وما رأيته كان جميلاً وحيوياً ، وترددت عليّ في أفكاري وأحلامي ، وإن لم تكن من النوع الورع ، ملائكةٌ ومعجزات وحكايات على نحوأخويّ .

من عهد الطفولة ارتبطت ذكرى برائحة الحقول التي تمّ جنيها حديثاً وبخضرة الغابات النامية ، ذكرى كانت تنتابني كل ربيع وتدفعني لأن أعيش من جديد ولساعات ذلك العهد الذي لم يتمّ نسيانه نسياناً كلياً ولم يتمّ فهمه فهماً كاملاً . والآن أتذكر ذلك وأريد أن أحاول إذا ما أمكن ، أن أتحدث عنه .

في غرفة نومنا كانت صفوق النوافذ مغلقة ، وكنت مستلقياً في الظلمة بين اليقظة والنوم ، وكنت أسمع أخي الصغير بجانبي يتنفس

أنفاساً متجانسة ثابتة واستغربت مرة أخرى من أنني لم أرَ رغم الظلمة الدامسة وعيناي مغلقتان إلاّ ألواناً ، دوائرَ بنفسجيةً حمراء قاتمة ازدادت اتساعاً دائماً وذابت في الظلمة وتجددت بصورة دائمة منبثقةً من الداخل ، وكل دائرة كانت مؤطرة بشريط أصفر رقيق .

أصخت السمع أيضاً نلريح التي كانت تهب من الجبال هباتٍ دافئةً متراخية وكانت تنبش أشجار الحور الضخمة في لين وتستند أحياناً بصعوبة إلى الجدار المتأوه . وآلمني من جديد أنّ الأطفال لا يحق لهم أن يسهروا ليلاً ولا أن يخرجوا أو على الأقل أن يقفوا عند النافذة ، وتذكرت ليلة كانت أمّي قد نسيت أن تغلق صفوق النوافذ .

آنذاك استيقظت في منتصف الليل ونهضت بهدوء وتوجهت في وجل إلى النافذة ، وأمام النافذة كانت السماء صافية صفاءغريباً ولم تكن سوداء أو مظلمة ظلمة القبور كما تصورتها . وبدا كل شيء مقبضاً وغير واضح وكئيباً ، غيوم كبيرة كانت تتأوه فوق السماء كلها ، وبدت الجبال السوداء المائلة إلى الزرقة أنها ستنساب معها لكأنها كانت كلها خائفة وماتت لكي لاتهرب من خطب يقترب . كانت أشجار الحور نائمة وبدت ضعيفة واهنة القوى مثل شيء ميت أو شيء خبا وانطفأ ، أما في الفناء فكان المقعد كالمعتاد وحوض النافورة وشجرة الكستناء الفتية ، وهذه أيضاً كانت متعبة بعض الشيء وخاملة . لم أدر ما إذا كان وقت جلوسي في النافذة وتأملي العالم المتحول المصفر قصيراً أو

طويلاً ؛ في ذلك الوقت أخذ حيوان يصوّت على مقربة صوات الخائف المنتحب . ربما كان هذا كلباً أو شاة أيضاً أو عجلاً كان قد استيقظ وأحس بالخوف في الظلمة . تملّكني الخوف أيضاً ، ولذت بالفرار إلى غرفتي وسريري ، غير متأكد من أنّ علي أن أبكي أم لا . ولكن قبل أن أقدم على ذلك كنت قد غفوت .

هذا كله كان موجوداً الآن مرة أخرى على نحو غامض متربّصاً في الخارج وراء صفوق النوافذ المغلقة ، وكم سيكون جميلاً ومحفوفاً بالخطر أن ينظر الناس مرة أخرى إلى الخارج . وتصورت في إحدى المرات الأشجار الكالحة والصنوبر الكليل الغامض ، والفناء الصامت والجبال الهاربة مع الغيوم والأشرطة الصفراء على صفحة السماء والطريق العام المصفرّ الذي غامت معالمه في البعد الرمادي . عندئذ تسلل الآن لصٌ ، وقد تلفّع في معطف أسود واسع ، أو قاتل أو شخص كان قد تاه وسار هناك جيئة وذهاباً ، خائفاً من الليل أو مطارداً من الحيوانات . ربما كان صبياً من عمري ضاع أو هرب أو خطف أو كان بلا أبوين وحتى لو كانت له أمّ فقد كان في مقدور أقرب شبح ليل أن يقتله أو أن يأخذه الذئب . وربما اصطحبه اللصوص أيضاً إلى الغابة وصار هو نفسه لصاً خاطفاً وحصل على سيف أوعلى مسدس ذي ماسورتين وعلى قبعة كبيرة وعلى حذاء فارسي طويل .

من هنا لم تكن هناك بعد إلا خطوة واحدة ، إنه تخلّ عن النفس

ضعيف ، ووقفت في دنيا الأحلام واستطعت أن أرى كل شيء وألمس باليد ما كان الآن لايزال فكرة وذكرى وخيالاً .

على أنني لم أغفُ ، إذ أنه في هذه اللحظة تسرّب إليّ من خلال ثقب مفتاح باب الحجرة ، من غرفة نوم الوالدين ، شعاعٌ أحمر رفيع وملأ الظلمة بشعور ضوئي ضعيف مرتعش ورسم على باب صندوق الثياب الذي توهج فجأة وهجاً ضعيفاً بقعة صفراء متعرجة . عرفت أن أبي أوى الآن إلى الفراش . وسمعته يتنقل بجوربه في رفق وهدوء ، وإثر ذلك تناهى إلى سمعي أيضاً صوته العميق الهادئ . فقد تحدث قليلاً مع أمّي .

سمعته يسأل :" هل الأطفال نائمون ؟"

قالت الأم : "أجل ، منذ زمن طويل" ، وخجلت من أنني مازلت يقظاً . مضت فترة صمت ، إلا أن النور بقي موقداً ، وحلّ بي الملل ، وأراد الكرى أن يطغى على عينيّ ، عندما بدأت أمّي الكلام .

" هل سألت عن بروزي؟"

قال الأب : " زرته بنفسي ، كنت هناك أمس . في إمكان المرء أن يشفق عليه ."

" أحالته سيئة إلى هذا الحد ؟"

" كل السوء ، سترين حين يأتي الربيع سيختطفه الموت . فالمرء يرى الموت في وجهه ."

وتقول الأم :"ماذا ترى ، هل ينبغي أن أرسل الصبي إلى هناك ؟ قد يكون لذلك أثره الطيب ؟"

قال الأب :" كما تشائين ، إلا أن هذا ليس ضرورياً ، فأي شيء يفهم صبي من ذلك ؟"

"إذاً طابت ليلتك ."

"نعم ، طابت ليلتك ."

انطفأ النور وتوقف الهواء عن الارتعاش ، أرض الغرفة وباب الصندوق أظلما مرة أخرى ، وحين أغلقت عيني استطعت أن أرى من جديد دوائر بنفسجية حمراء قاتمة ذوات حواف صفراء تتماوج وتكبر . ولكن على حين أخلد الوالدان إلى النوم وسكن كل شيء فإن روحي التي اضطربت فجأة تعمّقت في الليل تعمقاً شديداً ، فالحوار الذي لم يتمّ فهمه كلياً وقع فيها وقوع الثمرة في الغدير ، وعبرت بها الآن بسرعة وتخوّف دوائر تتناهى بسرعة وجعلتها ترتعش من حب استطلاع مليء بالخوف .

إنّ بروزي الذي تكلم عنه الوالدان كان قد غاب تقريباً عن دائرة تصوراتي وأفكاري ، وصار على أبعد تقدير ذكرى باهتة منطفئة تقريباً .

والآن فإنّ ذلك الذي لم أعد أعرف اسمه إلا بصعوبة ، جاهد شيئاً فشيئاً واستحال من جديد إلى صورة حية . وبادئ ذي بدء عرفت فقط أنني كثيراً ما سمعت هذا الاسم من قبل وناديته بنفسي .

ثم خطر ببالي يوم خريفي كان قد أهداني فيه شخص ما تفاحاً . عندئذٍ تذكرت أنه كان أبا بروزي ، وعندئذٍ عرفت فجأة كل شيء من جديد .

رأيت إذاً صبياً جميلاً ، يكبرني بسنة واحدة ، إلا أنه ليس بأطول مني وكان اسمه بروزي . لعل أباه كان جاراً لنا قبل سنة واحدة وصار الصبي رفيقاً لي ، إلا أن ذاكرتي لم تعد بي قط إلى هناك . ورأيته من جديد بوضوح : كان يلبس قلنسوة صوفية زرقاء مشغولة لها قرنان غريبان ، وكان معه دائماً تفاح أو قطع خبز في الكيس ، واعتاد أن يخطر له خاطر أو يلعب لعبة أو يكون له اقتراح معدّ في ذهنه ، هذا إذا ما بدأ الجو يصبح مملاً . كان يلبس صدرية ، وكذلك في أيام العمل ، وكنت أحسده عليها ، وفيما مضى كنت قد استبعدت عليه أي شيء تقريباً . لكنه أوسع ذات مرة حداد القرية الذي سخر منه بسبب قلنسوته ذات القرنين (وكانت القبعة من شغل أمه) ضرباً على نحو يُرثى له . خفت منه زمناً طويلاً . كان له غراب أليف ، إلا أن هذا أكل الكثير من البطاطا الطازجة ، فمات ، وواريناه التراب . وكان القبر علبة ، إلا أنها كانت صغيرة جداً ، ولم ينطبق الغطاء عليها قط ، وألقيت رثاءً على القبر مثل قس ، وحين طفق بروزي يبكي في أثناء ذلك كان على أخي الصغير أن يضحك ؛ عندها ضربه بروزي ، وعندئذٍ ضربته أنا بدوري ، وبكى الصغير ، وافترقنا ، وبعد ذلك جاءت إلينا أمّ بروزي

وقالت إن هذا ليؤسفه ، ولو شئنا أن نأتي إليها غداً بعدالظهر فسيكون هناك قهوة وكعكة منوعة بالخميرة دائرية الشكل ، وأنها موضوعة في الفرن . وعند تناول القهوة حكى لنا بروزي حكاية كان يبدؤها ويعيدها المرة تلو المرة في الوسط ، ومع أنني لم أستطع أن أحفظ الحكاية قط ، فقد كان عليّ أن أضحك كلما تذكرت ذلك .

على أنّ هذا لم يكن إلا البداية . فقد خطرت ببالي في الوقت نفسه آلاف الحوادث ، كلها من الصيف والخريف حين كان بروزي رفيقي ، وكانت كلها في حكم المنسيّ في بضع شهور ومنذ أن أمسك عن المجيء . وهاقد تدافعت الآن من الجهات كلها ، مثل طيور حين يرمي المرء لها حباً في الشتاء ، كلها في آن واحد ، مجموعة كاملة من السحائب .

خطر ببالي من جديد اليوم الخريفي المشرق الذي هرب فيه شاهين داختيل باور من غرفة الأدوات . فالطائر المقصوص الجناحين كان كفؤاً له ، فقد أتلف سلسلة الساقين الصغيرة النحاسية بالحك وغادر الحظيرة الضيقة المظلمة . ثمّ حطّ قبالة المنزل في هدوء على شجرة التفاح ، ووقف عشرات من الناس في الشارع أمامه وأرسلوا بأبصارهم إلى فوق وتكلموا وقدموا اقتراحات . وشعرنا نحن الصبيين ، أنا وبروزي ، بخوف غريب ، ونحن واقفان هناك مع الناس الآخرين كلهم وننظر إلى الطائر في الشجرة الذي كان ينظر من فوق إلى تحت

نظرات حادة جريئة . صاح أحدهم : " لن يعود هذا ." لكنّ المزارع الأجير غوتلوب قال :" لو استطاع أن يطير لعبر البلاد " .

وجرّب الطائر جناحيه الكبيرين من دون أن يحرّر مخالبه من الغصن ؛ وكنا مضطربين أشد الاضطراب ، ولم أعرف أنا بالذات ماذا كان سيسرني أكثر أن يمسك الد ء به أم أن يفلت منهم . وأخيراً وضع غوتلوب سلّماً وتسلق داختيل باور نفسه عليه ومد يده إلى شاهينه . عندئذ تخلى الطائر عن الغصن وبدأ يرفرف بجناحيه رفرفات قوية . وخفق القلب في صدرنا نحن الصبيين خفقاناً عالياً بحيث صعب علينا أن نتنفس ، ثبّتنا الأبصار مفتونين في الطائرالجميل الذي كان يخفق بجناحيه ، ثم جاءت اللحظة الرائعة وهي أنّ الطائر قام بعدة دفعات كبيرة ، وما إن رأى أنه استطاع الطيران حتى ارتفع ببطء وزهو في دوائر كبيرة وطار أعلى وأعلى في الجو إلى أن أصبح صغيراً مثل قبرة واختفى بهدوء في السماء المتألقة . أما نحن ، ولما كان الناس قد انفضوا منذ وقت طويل ، فكنا لا نزال واقفين في مكاننا ومددنا أعناقنا إلى فوق وبحثنا في أرجاء السماء كلها ، عندها هتف بروزي هتاف الفرح ونادى على الطائر :" طر ،طر ، الآن عدت حراً " .

كان علي أن أتذكر أيضاً مرآب الجار . فيه كنا نقبع حين كانت السماء تهمي بالمطر ، مقرفصين معاً ، وكنا نصغي إلى وقع المطر الشديد وانهماره وننظر إلى أرضية الفناء حيث نشأت جداول وتيارات

وبحيرات تدفقت وتقاطعت وتبدلت . وذات مرة حين قبعنا على هذا النحو وأنصتنا بدأ بروزي قائلا :

"أنت ، الآن يأتي السيل ، فماذا نفعل الآن ؟ إذاً كل القرى ستكون قد غرقت وسيصل الماء إلى الغابة " .

عندئذٍ تصورنا كل شيءٍ وقلّبنا أعيننا في الفناء وأنصتنا إلى المطر المتدفق وتناهى إلى أسماعنا فيه هدير أمواج بعيدة وتيارات بحرية . قلنا إنّ علينا أن نصنع رمثاً من أربع أو خمس دعامات وسيحملنا نحن الاثنين . إلا أن بروزي صرخ في وجهي ' هكذا ، وأبوك وأمك ،و أبي وأمي ، والقطة وهرك الصغير ، ألن تأخذ ... معك ؟" .

الحق أنّي لم أفكر في هذا في غمرة الاضطراب والخطر ، وكذبت معتذراً :" أجل ظننت أنهم هلكوا جميعاً ." إلا أنه صار مستغرقاً في التفكير وحزيناً لأنه تصوّر هذا بوضوح ، ثم قال : " لنلعب الآن شيئاً آخر " .

آنذاك وحين كان غرابه المسجون مازال حياً وتنطّط هنا وهناك كنا قد أخذناه معنا إلى كشك حديقتنا حيث حط على العارضة وراح جيئة وذهاباً لأنه لم يستطع النزول مددت له سبابتي وقلت مازحاً : "هاك يا يعقوب ، عضّها ! " عندما نقرني في الإصبع ، لم يؤلمني بوجه خاص ، بل إنني غضبت وسددت إليه ضربة وأردت أن أعاقبه . على أن بروزي أمسكني من خصري وثبتني إلى أن خلص الطائر الذي

رفرف بجناحيه ونزل في خوف من على العارضة .

صرخت : " دعني ، لقد عضني " ، وتصارعت معه .

" أنت نفسك قلت له : عض يا يعقوب ! " صاح بروزي وأوضح لي صراحة أن الطائر كان على حق . تضايقت من انتقاداته الوعظية وقلت : "اليكن" ، على أنني عقدت العزم في نفسي أن أثأر من الغراب مرة أخرى .

فيما بعد ، وحين خرج بروزي من الحديقة وكان في منتصف الطريق إلى البيت ناداني مرة أخرى ودار على عقبيه وانتظرته أنا . اقترب مني وقال :" أنت ، أليس كذلك ، ستعدني أنت وعداً قاطعاً أنك لن تؤذي يعقوب في شيء ؟" وحين لم أحر جواباً وحردت وعدني بتفاحتين كبيرتين ، وقبلت ، ثم عدنا إلى البيت .

بعيد ذلك نضجت على الشجرة في حديقة أبيه أولى التفاحات اليعقوبية ؛ عندها أعطاني التفاحتين اللتين كان قد وعدني بهما ، وكانتا من أجمل التفاحات وأكبرهما ، خجلت الآن ورفضت قبولهما على الفور إلى أن قال : " خذهما ، لم يعد هذا بسبب الغراب يعقوب ، وكنت سأعطيك إياهما أيضا هكذا ، وصغيرك سيحصل على واحدة أيضاً ." ثم أخذتهما .

لكن ذات مرة كنا قد أمضينا العصر كله وثباً وجرياً على المروج ثم توجهنا بعدها إلى الغابة حيث نما تحت الأدغال طحلبٌ طري . كنا

متعبين وجلسنا على الأرض . بضع ذبابات كانت تطنّ فوق فطر ، وطيور متعددة كانت تطير ، عرفنا بعضها ، ولم نعرف معظمها ؛ كما أننا سمعنا نقار خشب ينقر بنشاط ، وشعرنا بالانبساط والفرح بحيث إن أحدنا لم يقل شيئاً للآخر ، اللهم إلا إذا اكتشف أحدنا شيئاً مميزاً أشار إلى حيث هو وأراه للآخر . وفي المكان الأخضر المقبب انساب ضوءٌ أخضر هادئ على حين غاب قاع الغابة في المدى في دغش بني ينذر بسوء . وإنّ ما تحرك هناك في الخلف ، سواءٌ أكان حفيف أوراق أوخفق جناحي طائر ، كان مصدره أعماق حكايات مسحورة ، وكان له وقع غريب غرابة منطويةعلى أسرار وكان في الإمكان أن يعني الكثير .

وبما أنّ بروزي أحس بالحرارة الزائدة من الجري فقد خلع سترته ومن ثم أيضاً صدريته وارتمى في الطحلب . عندئذ حدث أن استدار وفتح قميصه عند العنق ، ذعرت ذعراً شديداً ، إذ أنني رأيت ندبة حمراء طويلة تمتد فوق كتفه البيضاء . وأردت أن أسأله عن مصدر هذه الندبة الحمراء وانتظرت بسرور قصةً صحيحة لحادثة مؤلمة ؛ ولكن من يدري كيف حدث هذا ، وفجأة لم تعد بي رغبة في السؤال وتصرفت كما لو أنني لم أر شيئاً . ولكن في الوقت نفسه رقّ قلبي لبروزي بندبته الكبيرة ، مما لاشك فيه أنها كانت قد نزفت نزفاً شديداً أو آلمته ألماً كبيراً ، وساورني في هذه اللحظة حنوّ أشد مما كان عليه في السابق ، على أنني لم أستطع أن أقول له أيّ شيء . إذاً خرجنا فيما بعد من

الغابة معاً وعدنا إلى البيت ، وأحضرت من الحجرة أفضل علب البلى الخاصة بي والمصنوعة من جذع بيلسان ضخمة ، وكان قد صنعها لي الأجير ذات مرة ، ونزلت من جديد وأهديتها إلى بروزي . ظن بادئ ذي بدء أن هذا من باب المزاح ، إلا أنه رفض أن يأخذها ، لا بل إنه وضع يديه خلف ظهره ، وكان عليّ أن أدس له العلبة في جيبه .

قصةٌ تلو الأخرى ، كلها عادت إليّ . وكذلك القصص من غابة التنوب التي كانت على الجهة الأخرى من الجدول ، وذات مرة كنت قد توجهت مع رفاقي إلى هناك لأننا تمنينا أن نرى الغزلان . دخلنا إلى المكان الواسع ، إلى الأرضية البنية الملساء المستقيمة العالية علو السماء ، وبقدر ما توغلنا لم نجد أي غزال ، وعوضاً عن ذلك وجدنا عدداً من الصخور الكبيرة بين جذوع التنوب العارية ، وكان لمعظم هذه الصخور مواضعها حيث نمت عليها حزمة صغيرة من الطحلب الأخضر مثل علامات خضراء صغيرة . وهكذا أردت أن أقشر مكاناً طحلبياً صغيراً ، ولم يكن هذا بأكبر من اليد . على أن بروزي سارع إلى القول : " لا ، دعك من هذا !" وسألته عن السبب ، وأوضح لي : "إنه حين يمشي ملاك في الغابة فإن هذه هي خطواته ؛ وأينما تقدم لا يلبث أن ينمو في الحجر مكان طحلبي كهذا ." ثم نسينا الغزلان وانتظرنا لعل ملاكاً يأتي بعد قليل . وبقينا واقفين متنبهين ؛ ساد في الغابة كلها صمت كصمت القبور ، وعلى الأرض البنية لمعت بقع شمسية

وضيئة ، وفي البعد انكمشت الجذوع العمودية مثل جدار من الأعمدة أحمر عال ؛ وفي العلاء كانت السماء الزرقاء خلف القمم السوداء الكثيفة . ومرّ جيئة وذهاباً هبوب بارد ضعيف كل الضعف على نحو غير مسموع . عندئذٍ خاف كلانا وتهيب لأن الجو كان هادئاً كل الهدوء وموحشاً كل الوحشة ولأنه ربما جاء ملاك على الفور ، وبعد حين رحنا معاً في هدوء وسرعة ومررنا بأحجار كثيرة وجذوع كثيرة وخرجنا من الغابة . وحين كنا في المرج وقطعنا الجدول نظرنا بعض الوقت إلى الناحية الأخرى ، ثم أسرعنا إلى البيت .

فيما بعد تخاصمت مرة أخرى مع بروزي ثم تصالحنا من جديد . ومرت الأيام إلى أن أقبل الشتاء ، وهنا قيل إنّ بروزي مريض وما إذا كنت لاأريد الذهاب إليه . ذهبت مرة أو مرتين ، كان آنذاك في فراشه ولم يقل أيّ شيء تقريباً ، فضاق صدري ومللت ، مع أن أمه منّت علي بنصف برتقالة . ثم ما من شيء حدث ؛ فقد لعبت مع أخي أو مع لورينز نيكل أو مع الفتيات ، وهكذا مرّ زمن طويل طويل .

سقط الثلج وذاب من جديد ثم سقط مرة أخرى ؛ وتجمد الجدول ، وانفتح من جديد وكان بنياً وأبيض وفاض وجرف معه من أوبرتال (الوادي الأعلى) خنزيرة ماتت غرقاً وكمية من الخشب ؛ وولدت فراخ صغار ماتت منهن ثلاثة ؛ ومرض أخي الصغير ثم استعاد صحته ؛ ودرست الحبوب في الشواني وتم الغزل في الحجرات . والآن تم

جني الحقول من جديد ، و كل شيء من دون بروزي .

وهكذا ابتعد هو أكثر وأكثر واختفى نهائياً ونسيته أنا -حتى الآن ، حتى هذه الليلة التي انساب فيها الضوء الأحمر من خلال ثقب الباب وسمعت أبي يقول لأمي : " حين يقبل الربيع سيولّي ."

وسط الكثير من الذكريات والأحاسيس المضطربة غفوت ، وإن ذكرى قرين الصبا التي لم تستفق بعد كل الاستفاقة ربما كانت ستغوص من جديد في اليوم التالي في زحمة الأحداث ولربما ما كانت لتعود قط في مثل هذا الجمال وهذه النضارة والقوة . إلاّ أن أمي سألتني في أثناء الفطور : " أما زلت تذكر بروزي الذي كان معك دائماً ؟" عندئذٍ هتفت " بلى" ، وتابعت قولها بصوتها الجميل :" في الربيع ، أنت تعلم ، كان سيدخل كلاكما المدرسة معاً ، إلا أنه مريض جداً بحيث قد لا يكون شيء من هذا . هل تريد أن تعوده؟" قالت هذا بلهجة تغلب عليها الجدية ، وفكرت أنا بالشيء الذي كنت سمعت أبي يقوله ، وأحسست بالخوف والهلع ، وفي الوقت نفسه بحب استطلاع مملوء بالخوف . فبروزي على حد كلام أبي ، على شفا حفرة من الموت . وبدا لي هذا مريعاً روعاً يجل عن الوصف وعجيباً . قلت مرة أخرى :" أجل " ، وأكدت لي أمي :" لا تنسَ أنه مريض للغاية ! ولا تستطيع أن تلعب معه الآن ولا يجوز أن تحدث أي ضجيج ."

ووعدت الوعود كلها وبذلت قصارى جهدي من الآن وصاعداً

لأن أكون هادئاً ومتواضعاً ، وفي الصباح نفسه توجهت إلى هناك . بقيت واقفاً أمام البيت الذي كان له موقع هادئ ومهيب بعض الشيء وراء شجرتي الكستناء العاريتين في ضوء الضحاء البارد وانتظرت برهة وأصخت السمع إلى الدهليز وداخلتني رغبة تقريباً في أن أعود إلى البيت . عندها لملمت أطراف شجاعتي وصعدت بسرعة الدرجات الحجرية الحمراء الثلاث عبر مصراع الباب المفتوح ، وفي الممشى قلّبت بصري فيما حولي وقرعت أقرب باب . كانت أم بروزي امرأة قصيرة رشيقة وناعمة ، خرجت ورفعتني وقبلتني قبلة ثم سألت :" هل أردت المجيء إلى بروزي ؟"

لم يمض وقت طويل حتى كانت تقف في الطابق العلوي أمام باب غرفة أبيض وأمسكتني باليد . ويدها هذه التي كانت عليها أن تقودني إلى الأعاجيب المخيفة المتوقعة توقعاً مبهماً لم أر عليها شيئاً آخر إلا ما هو على يد ملاك أو ساحر . وخفق قلبي خفقاناً عنيفاً ملؤه الخوف مثل نذير ، وترددت بكل ما أملك من قوة وتراجعت بحيث إنه كان على السيدة أن تشدني شدّاً تقريباً إلى الحجرة . كانت غرفة كبيرة مشرقة حلوة حلاوة مريحة ؛ وقفت حائراً مرعوباً عند الباب ونظرت نحو السرير غير المظلم إلى أن قادتني السيدة إليه . عندئذٍ التفت بروزي إلينا .

أمعنت النظر في وجهه ، كان هذا نحيلاً ومدبباً ، أما الموت فلم

أستطع أن أراه فيه ، اللهمّ إلا ضوءاً رقيقاً ، وشيئاً غير مألوف في العينين ، شيئاً لطيفاً من الجدية والصبر ، شعرت لدى رؤيته بالشيء نفسه الذي شعرت به أثناء ذلك الوقوف والانصات في غابة التنوب الصامتة ، لأنني كتمت أنفاسي في حب استطلاع ملؤه الخوف وشعرت بخطوات الملاك تمر بالقرب مني .

أومأ بروزي بتحية ومدّ لي يداً كانت ساخنة وجافة وهزيلة . وداعبته أمه ، ونظرت إليها وأومأت بتحية ثم غادرت الغرفة ثانية ؛ وهكذا وقفت وحيداً عند السرير الصغير العالي ونظرت إليه ، ومرّ وقت لم يقل فيه كلانا كلمة واحدة .

قال بروزي بعدئذ : "هكذا ، أما زلت أنت؟"

قلت أنا :" أجل ، أما زلت أنت ؟"

قال هو :" هل أرسلتك أمك ؟"

وأومأت بالإيجاب .

كان متعباً وألقى برأسه الآن من جديدعلى المخدة . لم أستطع إيجاد ما أقوله ، فضمت شرّابة قلنسوتي واكتفيت بالنظر إليه واكتفى هو بالنظر إليّ إلى أن ابتسم وأغلق عينيه على سبيل المزاح والتفكه .

ثمّ تزحزح قليلاً إلى جنبه ، وما إن فعل ذلك حتى رأيت شيئاً أحمر يلمع تحت أزرار القميص من خلال الشق ، وكان هذا الندبة الكبيرة على كتفه ، وحين كان علي أن أبكي دون توقف .

" ماذا بك؟" سأل على فوره .

لم أحـر جـواباً . وواصلت بكائي ومـسـحت خـدي بالقلنسـوة الخشنة ،حتى آلمني ذلك .

" بالله عليك قل لماذا تبكي ؟"

قلت : " لا لشيء إلا لأنك مريض هكذا ."

على أنّ هذا لم يكن السبب الحقيقي . لم يكن إلا موجة حنو شديد مشفق مثلما شعرت به فيما مضى ، وقد انبثق فجأة في أعماقي وما من شيء آخر استطاع أن يجد متنفساً .

قال بروزي :" لا ضير في ذلك ."

" هل ستستعيد صحتك في القريب العاجل ؟!"

" أجل ، ربما ."

" لا أدري ربما سيطول هذا ."

بعـد حين لاحظت فـجـأة أنه كـان قـد نام . انتظرت برهة من الزمن ، ثم خرجت ، ونزلت السلم عائداً إلى البيت حيث كنت سعيداً جداً ، غير أن أمي لم تسألني . رأت أنني تغيرت ومررت بشيء ما ، واكتفت بأن مسحت على شعري وأومأت بتحية من دون أن تقول شيئاً .

ومع هذا فمن الممكن أنني كنت لاازال فرحاً مرحاً جداً في ذلك اليوم وكنت شديد الحيوية والاندفاع وفظاً عنيفاً ، أكان هذا أنني

تشاجرت مع أخي الصغير أم أني أزعجت الخادمة عند موقد المطبخ أو أنني تسكعت في الحقل البليل وعدت متسخاً إلى البيت على نحو خاص . شيء من هذا القبيل كان على أية حال ، إذ أنني ما زلت أعرف جيداً أن أمي نظرت إليّ في المساء نظرة حنونة جداً وجادة - ومن المحتمل أنها كانت ستذكّرني من غير كلام بصباح اليوم . وفهمتها كل الفهم وأحسست بالندامة ، وحين لاحظت هي ذلك ، فعلت شيئاً مميزاً . أعطتني من نضدها عند النافذة شقفة فخار ممتلئة بالتراب وكان فيها درنة مائلة إلى السواد ، وكانت هذه قد أنبتت عدداً من الوريقات الفتية الغضة المدببة الفاتحة الخضرة . وكانت هذه ياقوتية وأضافت قائلة : " انتبه ، أعطيك إياها الآن . وفيما بعد ستصبح زهرة حمراء كبيرة . ضعها هناك ، وعليك أن تنتبه عليها ، ولا يجوز أن يمسها أحد أو أن ينقلها ، وكل يوم يجب أن يسقيها المرء مرتين ، إذا مانسيتها فها أنا ذا أذكّرك . ولكن إذا أردت أن تصبح زهرة جميلة فلك أن تأخذها وتأتي بها إلى بروزي بحيث يسر بذلك . هل تستطيع أن تتذكر ذلك؟"

وضعتني في السرير ، وفي أثناء ذلك فكرّت في زهو وخيلاء بالزهرة التي بدت رعايتها وظيفة مهمة مشرّفة ، ولكن في اليوم التالي نسيت السقي ، وذكّرتني أمي بذلك ، وسألت أمي : " ماذا عن زهرة بروزي في الأصيص ؟" وكان عليها أن تكرر ذلك في تلك الأيام غير مرة . ومع هذا ما من شيء آخر شغلني او أسعدني بشكل قوي أكثر

من زهرتي في الأصيص . كان هناك في الغرفة والحديقة ما يكفي من الزهور الأخرى الأكبر أيضاً والأجمل ، وكثيراً ما أراني إياها أبي وأمي ، إلا أنها المرة الأولى التي هممت فيها من قلبي لأشارك في النظر إلى نبتة صغيرة كهذه ، وأتوق إليها وأرعاها وأهتم بها .

مرّت عدة أيام بدت فيها الوريقات في حالة سيئة ، بدت أنها تعاني من ضرر ما . ولا تجد القوة المناسبة للنمو ، وحينها حزنت أول الأمر ونفد صبري بعدئذ ، وقالت أمي ذات مرة :" ها أنت ترى أن حال زهرة الأصيص كحال بروزي المريض . هنا ينبغي على المرء أن يكون لطيفاً وشديد الحرص كالعادة ."

هذه المقارنة كانت مفهومة في نظري وسرعان ما أوحت إلي بفكرة جديدة كلياً سيطرت عليّ كل السيطرة . أحسست الآن بارتباط سري بين الزهرة التي ترتفع بمشقة وبروزي المريض . وتوصلت أخيراً إلى الاعتقاد الثابت أنه حين تنمو الياقوتية لا بد أن يستعيد رفيقي عافيته . أما لو أنها لم تنج سيموت هو ، وربما سيكون لي ذنب في ذلك لو أني أهملت النبتة . وحين تمت دائرة الأفكار هذه في رأسي صنت الأصيص بخوف وغيرة مثل كنز ، ربما كان مقفلاً على قوى سحرية خاصة لا يعرفها أحد غيري أنا ولم توكل إلا إلي .

بعد ثلاثة أو أربعة أيام من زيارتي الأولى ، وكانت النبتة لا تزال تبدو تعيسة بعض الشيء ، توجهت مرة أخرى إلى بيت الجيران ، كان

على بروزي أن يستلقي من غير حراك ، وبما أنني لم أجد شيئاً لأقوله وقفت قرب السرير ونظرت إلى وجه المريض الموجه إلى فوق والذي أطل رقيقاً ودافئاً من بين شراشف السرير البيضاء ، كان يفتح عينيه بين الفينة والأخرى ويغلقهما ، وما عدا ذلك لم يتحرك ، وإن مشاهداً أكبر سناً وأكثر فطنة ، ربما كان سيشعر بشيء من أن روح بروزي الصغير مضطربة وأرادت أن تتذكر العودة . وحين كان سيتملكني خوف من صمت الحجرة الصغيرة دخلت الجارة وأخذتني بلطف وبخطوات خفيفة .

في المرة التالية جئت بصدر أكثر انشراحاً ، إذ أنّ زهرتي في الأصيص أنبتت في البيت برغبة جديدة وقوة جديدة أوراقاً جديدة سارة . هذه المرة كان المريض نشيطاً أيضاً .

سألني :" أما زلت تعرف أيضاً لما كان الغراب يعقوب لا يزال على قيد الحياة ؟"

وتذكرنا الغراب وتحدثنا عنه وقلّدنا الكلمات الثلاث الصغيرة التي كان في وسعه أن يقولها وتحدثنا في ولع وشوق عن ببغاء أحمر ورمادي يقال إنه ضلّ طريقه إلى هنا ذات مرة فيما مضى . انخرطت في الحديث . وعلى حين تعب بروزي من جديد كنت قد نسيت مرضه للحظة نسياناً تاماً . قصصت قصة الببغاء الذي طار فاراً والتي كانت جزءاً من أساطير بيتنا . وكان موطن قوتها أن مزارعاً أجيراً عجوزاً

رأى الطائر الجميل جاثماً على سطح الحظيرة ، فوضع هذا سلماً على الفور وأراد إمساكه ، وحين ظهر على السطح واقترب من الببغاء في حرص وحذر قال هذا :"طاب نهارك !" هنا خلع الأجير قلنسوته وقال : " عذراً ، كدت أعتقد أنك حيوان طائر ."

حين قصصت هذا ، خطر ببالي أن بروزي لا بد أن يضج بالضحك . ولما أنه لم يفعل هذا على الفور نظرت إليه مستغربا مدهوشاً . رأيته يبتسم ابتسامة رقيقة وحارة ، وكانت وجنتاه متوردتين أكثر من ذي قبل ،لكنه لم ينبس ببنت شفة ولم يضحك عالياً . هنا بدا لي كما لو أنه كان يكبرني بسنوات عديدة .

كان مرحي قد تلاشى في لحظتها ، وعوضاً عن ذلك اعتراني اضطراب وقلق ، إذ أنني أحسست أن شيئاً جديداً نشأ الآن بيننا على نحو غريب ومزعج .

طنّت في الغرفة ذبابة شتاء كبيرة ، وسألت عما إذا كان علي أن أمسكها .

قال بروزي : " لا ، دعها !"

هذا أيضاً بدا لي كما لو أن بالغاً نطق به . وانصرفت حيران .

في الطريق إلى البيت شعرت أول مرة في حياتي بشيء من جمال أوائل الربيع ، الجمال المقنع المليء بالأوهام . وأحسست بهذا من جديد بعد ذلك بسنوات ، في نهاية مراهقتي .

لا أدري ماذا كان وكيف حدث ، إلا أنني أتذكر أن ريحاً منعشة هبت بحيث إن كتلاً ترابية سوداء رطبة ارتفعت على حافة الحقول ولمعت في أشرطة وأن رائحة خاصة لريح الفون الدافئة كانت في الجو ، وأتذكر أيضاً أنني أردت أن أدندن لحناً ثم عدت وتوقفت على الفور لأن شيئاً ما أحزنني وجعلني هادئاً .

هذه الطريق القصيرة إلى البيت من بيت الجيران هي في نظري ذكرى لها عمقها الغريب والعجيب . ولم أعد أتذكر شيئاً من التفاصيل ؛ ولكن في بعض الأحيان ، وحين يمن الله علي بأن أجد طريقي إلى هناك بعينين مغلقتين ، أظنني أرى الأرض مرة أخرى بعيني الطفل - بصفتها هبة الله وخليقته ، في عملية حلم متوهجة توهجاً خفيفاً ، الحلم بجمال طاهر لم يمسّ لا نعرفه عادة نحن الشيوخ إلا من أعمال الفنانين والشعراء . وربما لم تكن الطريق بأطول من مئتي خطوة ، إلا أنه عاش عليها وحدث فيها وفوقها وعلى طرفها أكثر بكثير مما في بعض الرحلات التي قمت بها فيما بعد . فقد مدت في الفضاء أشجار فاكهة جرداء أغصاناً ملتفة مهددة متوعدة وطلعت من رؤوس الفروع براعم راتنجية بنية مائلة إلى الحمرة ، ومرت فوقها ريح وعدد من الغيوم المنتشرة زرافات ، وتحتها انتفخت الأرض في الاختمار الربيعي ، وفاض خندق امتلأ بمياه المطر وأرسل جدولاً عكراً ضيقاً طافت فوقه أوراق إجاص قديمة وقطع خشبية بنية ، وكل واحدة منها كانت سفينة

انطلقت مسرعة وجنحت ، عاشت فرحاً وعذاباً وحظوظاً متقلبة عايشتها معها . وتعلق فجأة أمام عيني طائر أسود في الهواء انقلب ورفرف مترنحاً وأرسل زغرودة مدوية وتطاير في الأعالي متألقاً ، وطار قلبي معه مذهولاً . وطقطقت عربة نقل فارغة جاءت تسير بحصان بديل شاغر وتابعت سيرها ، واستلفتت نظري حتى أقرب منعطف ، وقد جاءت بجواديها القويين من عالم مجهول لتختفي فيه ، مستثيرة أوهاماً جميلة عابرة وآخذة إياها معها .

هذه هي ذكرى صغيرة أو اثنتان أو ثلاث ؛ لكن من يريد أن يحصي التجارب والإثارات والمسرات التي يجدها طفل بين دقة ساعة وأخرى في الأحجار والنباتات والطيور والأنسام والألوان والظلال ثم سرعان ما ينساها ويأخذها معه إلى الحظوظ وتقلبات السنين ؟ إن لوناً مميزاً للهواء في الأفق وصوتاً دقيقاً في البيت أو الحديقة أو الغابة ، إن منظر فراشة أو أي رائحة تمر مروراً عابراً ، كثيراً ما يحدد هذا كله في أعماقي للحظات سحابات من ذكريات تلك الأزمان السابقة . فهي ليست واضحة ولا تستبين واحدة واحدة ، إلا أنها كلها تحمل العبير الساحر نفسه ،من تلك الأيام ، ذلك لأنه كان بيني وبين كل حجر وطائر وجدول حياة حارة عميقة ، وارتباط وطيد أسعى لئلا أفرّط فيما تبقى منه .

زهرتي في الأصيص انتصبت في تلك الأثناء ، ومدت أوراقها

بشكل أعلى و قويت بشكل ملحوظ . ومعها تزايد سروري واعتقادي بشفاء رفيقي . ثم جاء أيضاً اليوم الذي بدأ يمتد فيه برعم زهرة مستدير مائل إلى الحمرة ويعتدل بين أدق الأوراق ، اليوم الذي انشق فيه البرعم وأظهر مجموعة من التموجات الخفية لوريقات تويج الزهرة ، وريقات حمراء جميلة ذات حوافٍ ضاربة إلى البياض . أما اليوم الذي حملت فيه الأصيص بزهو وحيطة سارة إلى بيت الجيران وسلمتها إلى بروزي ، فقد نسيته نسياناً تاماً .

ثم جاء ذات مرة يوم مشمس مشرق ؛ ومن تربة الحقول المظلمة طلعت أطراف خضراء دقيقة ، وكانت للسحب حافات ذهبية ، وفي الشوارع المبللة والأفنية والدهاليز انعكست سماء صافية هادئة . وكان سرير بروزي الصغير موضوعاً في أقرب مكان إلى النافذة ، وعلى أفاريزه تباهت اليعقوبية الحمراء في الشمس ؛ كان المرء قد عدّل من جلسته قليلاً وسنده بوسادات . وتكلم معي أكثر مما هو مألوف ، وانسكب فوق رأسه الأشقر المقصوص الضوء الدافئ مرحاً متألقاً وبدا أحمر من خلال أذنيه . كنت فرحاً مرحاً ورأيت أن حاله ستتحسن تحسناً سريعاً . كانت الأم تجلس معنا ، وحين بدا لها أن الجلوس كاف أعطتني إجاصة شتائية صفراء وأرسلتني إلى البيت . قضمت الإجاصة ، وأنا بعد على السلم ، كانت طرية وحلوة كالعسل ، وسال العصير على ذقني وفوق اليد . ورميت اللب المقضوم في الطريق في قوس عال فوق الحقول .

بعد ذلك بيوم واحد أمطرت السماء المطر الذي كان سينزل ، وكان عليّ أن أبقى في البيت وحق لي أن أقلّب نظري بيدين مغسولتين جيداً في الانجيل المصور ، حيث كان أحبّاء كثر ، أما أحب ما عندي فكان أسد الجنة ونوق إليزر (Elieser) والصبي الصغير الموسوي في الحلفاء . ولكن حين أمطرت في اليوم التالي مطراً محلياً اعتلّ مزاجي . أمضيت نصف فترة ما قبل الظهر محدّقاً من خلال النافذة إلى الفناء الذي يخرّ عليه الماء وإلى شجرة الكستناء ، ثم توالت ألعابي كلها ، وحين تمّت وأوشك المساء أن يحلّ تشاجرت وأخي ، النغمة القديمة : فقد استفزّ كل منا الآخر إلى أن شتمني الصغير شتيمة نكراء ، وهنا ضربته أنا ، وجرى باكياً عبر الحجرة والدهليز والمطبخ والسلم والحجرة الصغيرة وصولاً إلى أمي التي ارتمى في حضنها والتي صرفتني متنهدة ،إلى أن عاد أبي إلى البيت وقصا عليه كل شيء وعاقبني ودسّني في السرير وهو يعظني المواعظ الضرورية حيث خلت نفسي تعيساً تعاسة لا حصر لها ، لكن سرعان ما نمت ودموعي لا تزال تسيل .

حين وقفت من جديد في غرفة المريض بروزي ، وأغلب الظن أنّ هذا كان في صباح اليوم التالي ، كانت أمه تضع إصبعها دائماً على فمها ونظرت إلي محذرة ، أما بروزي فقد اضطجع هناك بعينين مغلقتين وتأوه تأوهات خافتة . نظرت في وجهه بقلق ، كان أصفر وكان قد تقلّص من الألم ، وحين تناولت أمه يدي ووضعتها على يده ، فتح

عينيه ونظر إلي برهة من الزمن بهدوء وصمت . كانت عيناه كبيرتين متبدلتين ، وما إن رآني حتى كانت نظرة غريبة مستغربة كأنها صادرة من مكان بعيد قصي ، لكأنه لا يعرفني وأنه يعجب لي . ولكن في الوقت نفسه كانت له أفكار أخرى أهم بكثير . خرجت بعد وقت قصير متسللاً على رؤوس أصابعي .

ولكن بعد العصر ، وبينما كانت أمه تحكي له قصة طلبها ، راح في سبات استمر حتى المساء ، وفي أثناء ذلك كانت ضربات قلبه الضعيفة تغرق ببطء في الأحلام ثمّ خبت .

حين أويت إلى الفراش عرفت أمي هذا . إلا أنها لم تقل لي هذا إلا في الصباح بعد تناول الحليب . إثر ذلك تجولت النهار كله وأنا سائر في الأحلام وتخيلت أنّ بروزي سار إلى الملائكة وصار هو نفسه ملاكاً . لم أدرِ أن جسده الصغير النحيل ذا الندبة على الكتف كان لا يزال مسجّىً هناك في البيت ، كما أني لم أر ولم أسمع أيضاً أيّ شيء عن الدفن .

شغل تفكيري بهذا كثيراً ، ومضى وقت إلى أن ابتعد عني المتوفى وبات غير مرئي .

ثم أقبل الربيع كلّه على حين غرة مبكراً ، وطارت فوق الجبال طيورٌ صفراء وخضراء ، وفاحت في الحديقة رائحة نبتٍ فتيّ ، وتلمست شجرة

الكستناء براعم متفتحةً من أغلفة بورقات ملفوفة لفاً رقيقاً ، وعند القبور كلها ضحكت زهور الحوذان الأصفر البراق على سيقان سميكة .

(١٩٠٤)



كارل أويغن آيزيلاين

شورش آيزيلاين ، بقّالٌ في غيربرزاو ، كان صاحب دكان استطاع أن يعيش منه عيشاً كريماً رغداً وسبب له بعض الهم ، وكانت له زوجة قصيرة عاقلة سعد معها للغاية ، وما عدا هذا كان له ابن صغير كان مقدّراً له بشيءٍ سامٍ ورفيع ، سواء من قبل الرب أو من العناية الربانية ، ولهذا أقلقه هو كثيراً .

كان اسم هذا الابن كارل أويغن آيزيلاين ، وكان لهذا معنى ما وهو أنه منذ نعومة أظفاره لم ينادَ كارل أو أويغن بل نوديَ دائماً باسم الأمير المزدوج كارل أويغن . وتبعاً لذلك حدا هذا بالصبي على أن يعمل دائماً لاثنين ويهتم لاثنين ، ويصرخ عن اثنين ويحتاج إلى قماطات وثياب لاثنين إلى أن دخل تدريجياً في السن التي يتمنى فيها الآباء الوالدون أن تطيب نفوسهم بأبنائهم . كما أنّ الصبي لم يألُ جهداً أيضاً ، فقد اتضح أنه ليس من الأغبياء ، وأنه قادر على تعليم أعلى .

كان السيد آيزيلاين سعيداً جداً ، وآمله هو نفسه أنّ ميادين الثقافة

الكلاسيكية بقيت مغلقة في وجهه وغير منكشفة ، وبتلهّف مضاعف تمنى أن يرى ابنه يصول ويجول في هذا العالم الغريب . ولهذا ارتدى ذات يوم سترة عيد وصدرية مطرزة وياقة نظيفة ، ومرّر يده برفق على مفرق الصبي الأشقر الأملس وسار به إلى المدرسة اللاتينية حيث وضع في عهدة المدرس المساعد فورستر .

ومنذ ذلك الحين صـــار يقطع الطريق المألوف لطالب يتـــعلم اللاتينية . ووجهه المدرس المساعد فورستر طوال سنة ، وهو رجل رقيق باسم المحيا ذو خصلة شعر قديمة الطراز وسراويل ضيقة ،ثم سلّمه هذا إلى المربي ديلجر الذي كان جباراً بديناً يحمل خيزرانة بحرية وله تقطيبة مخيفة ، وبعد سنة أخرى استلمه الدكتور موللر ، شخص شديد التأنق ومتأدب .

أثبت الصبي أنه ذكي وانتقل بسهولة ويسر من صف إلى آخر . ولم يخرج ببساطة وبلا جدال من القضايا والتحقيقات المعقدة التي كان موضوعها سرقة تفاح وعدم احترام وإجلال المدرسين وتغيّب عن المدرسة بدون إذن وسلوك سيء في أثناء حضور القداس . ولئن فهم فن الاحتماء والاستتار بالآخرين وتقديم ظروف مخففة ومقنعة ، بشكل ممتاز ؛ إلاّ أنه كان يقضي معظم أيام الأربعاء المشمسة بعد الظهر في حبس المدرسة ، وكثيراً ما جاء إلى البيت على نحو يبعث الأسى والحزن في النفوس وقد أوسع ضرباً وتأنيباً على نحو كاف ، حيث إن

أباه كـان يتلقـاه بالعطف والمواسـاة وسـرعـان مـا كـان يزوده فـي كل مـرة بنظرة حياتية أرق وألطف .

على أنه ذات يوم وفي عـامـه الحـادي عـشـر لـم يقف المرء على أثر لكارل أويغن آيزيلاين ولا لخمسة تالارات (قطع نقدية !) من صندوق دكـان الأب ونصف قمع سكر ولزميلي مـدرسة ضم أبواهما المذعوران المذهولان نواحهما إلى نواح البقال !

وحين كـان لا يزال الصبيان مفقودين حتى المساء تم إرسال سعاة إلى جميع الجهات ، وقد تمّ وخز النهر كله بعيدان ومع كل وخزة كانت تقشعر أبدان مجموعة الأطفال الواقفين موقف المتفرج ، متوقعين أن يروا على الحربة بعد لحظة أحد الغرقى . على أنه لم يظهر أيّ منهم .

كـان السيـد آيزيلاين قد تجول طوال المسـاء في ضـائقته .عـاد إلى البيت متـأخراً يائساً وأزاح بحزن صحن المساء الذي كـانت زوجته قد جهزته له سـاخناً . على أن الزوجة القصيرة ، وبقدر ما كـانت عليه من هدوء ولين ، ما لبثت أن وضعت له الصحن مرة ثانية ، وأمسكته الملعقة بيده وقـالت مؤكـدة جـداً : " لم أسخّن هذا الأكـل من أجل لاشيء ، مـا عليك إلا أن تأكل ، سيـعـود الولـد الشـقي حين يجـوع . بالله عليك كل الآن . وكـان الأب مـحطم النفس وبدون مـقـاومـة بحـيث إنه لـم يعـترض اعـتراضاً شـديداً ، بل إنه أمسك الملعـقة بهـدوء وأكل إلى أن أفرغ كل شيء . لـم تتوقع الزوجة هذا ، وبما أنه استبانت يأسه من ذلك

انقبض صدرها الآن أيضاً وخافت ، وجلس كلاهما المساء كله معاً إلى المائدة ولم ينبسا ببنت شفة واستسلما للأفكار الكئيبة .

في الليل وبعد الحادية عشرة رنّ جرس الباب رنيناً خفيفاً وقصيراً ثم تبعه رنين أقوى وأجرأ ، وعلى الباب كان يقف كارل أويغن منتظراً وهو خجل من نفسه . بعد أن استجوبه المرء وعرف أن رفيقيه عادا أيضاً وما زالا على قيد الحياة ، تركه المرء يخلد إلى النوم . وقبل أن يمدّ الأب الذي تنفس الصعداء ، يده من سريره إلى مطفأة الشمعدان ، سعلت زوجته التي أصبحت جريئة جسورة ، وقالت : " شورش ، إن لم تعطه نصيبه غداً بشكل مرتب فسأعطيه إياه أنا ." تنهد وأطفأ النور ومرّ وقت طويل دون أن يستطيع النوم .

في اليوم التالي اتضح كل شيء ووجدوا أنّ فينيموري كوبر الخطير كان مغرّراً أساسياً . وكان الصبيان قد قرروا أن يهجروا معاً العالم القديم الممل وأن يبحثوا عن وطن الهنود الحمر (الموهيكان) حيث تكون سكين فروة الرأس والفأس الحربية والبندقية ، رفيقة الشباب عوضاً عن الخيزرانة والنحو والصرف . وكل شيء كان سيكون على مايرام إلا أن الليل كان بارداً جداً وضاقت بهم السبل في الغابة مع أن أحدهم كان كشافاً والثاني كان يسمى (عين الصقر) والثالث عداء في الغابة . ومن الأربعة تالارات صرف ما كان ثمناً لمسدس من الصفيح وما كان لسكين جيب والباقي كان في سلام ، اللهم إلاّ قمع السكر فقد ظل مكان بقائه لغزاً .

دارت أم كارل أويغن طوال النهار هنا وهناك متوترة النفس ، ولما أنه لم يحدث أي شيء حتى العشاء ، نزلت إلى الوالد في الدكان ، "لن يحصل الصغير على شيء للأكل حتى يضرب" ، قالت بإصرار ، ورأى الزوج أن هناك واجبات لا يستطيع أحد التهرب منها ، وقوانين كونية نخضع لها دون مقاومة . وإثر ذلك مرّ الابن بالتجربة ذاتها ، وعلى حين اكتفى الأب بالتنهدات ، أطلق ذاك العنان لمشاعره ودموعه على طريقة الشباب ،لا بل إنه أعول عويلاً محزناً جداً بحيث إن المربي توقف بعد عدة ضربات وكان سعيداً بأن كارل أويغن اكتفى بالنهوض من جديد ولم يرفض أن يأكل .

نجم عن هذه المغامرة أن صودر أكثر من ثلاثين كتاباً عن الهنود الحمر في مدرسة اللاتين وتلقى الأمريكان الثلاثة أولاً من مدرس الصف موعظة مناسبة مع حبس وبعدها تعرضوا أيضاً لسخرية رفاقهم التي لا تعرف حدوداً . حتى إن آيزيلاين الصغير انكفأ على نفسه وهلة من الزمن وكان طالباً مثالياً لعدة أسابيع . وتدريجياً عوّضت الكتب الملغاة بكتب جديدة ،وتمّ تجاوز التعنيف والتوبيخ والحبس ، كما أن الطالب المثالي اختفى من جديد كصورة ضبابية ، وسخرية التلاميذ وحدها ظلّ لها مفعولها لوقت طويل .

أقبلت السنون التي يظهر فيها عادة ما إذا كان تلميذ ما لديه الرغبة أو الرسالة لدراسات عليا أم من الأنسب أن ينسيه المرء لغته

اللاتينيـة في حـانوت أو في مكتب عـسكري . وفي حـال آيزيلاين الشـاب لم يكن من شك أنه قـدّرت له الحـالة الأولى . كـانت دفـاتره نظيفـة وأظهرت شهادات جيـدة ، وموضوعات التعبير عنده اتسمت بالروح المتوثبة والحماسة ، وكذلك خطبه ، وفي أثناء الاحتفال بتخرج صف أعلى ألقى وهو بعد في الخامسة عشرة خطبة كتبها هو نفسه ، ارتسمت في أثنائها ابتسامة عل شفتي العميد وترقرقت دمعة في عين الأب البقـال المصغي بكل انتبـاهه ، وكـان قـد تقرر إلحاقه بالمدرسة الثانوية في مقر الحكومة .

قبل ذلك كان هناك بضع أسابيع عطلة ، وفي هذه الأثناء قدّم أول إثبات على موهبته الشعرية . إذ أنه جرى عيد ميلاد أخت الجد ، وكـانت أسـرة آيزيلاين مدعوّة ، وفي أثناء تناول القـهوة طلع الشـاب بقصيدة أذهلت المحتفلين بجمالها وطولها .

ورداً على سؤال الأب أجاب الولد أنه كتب منذ عام أو منذ زمن أطول عدداً من القصائد ويعرف منذ زمن طويل أنه خلق ليكون شاعراً ليس غير .

سمع الأب المندهش هذا بكثير من الاستغراب أيضاً على أنه زهو ومباهاة ، إذ أنه لم يكن قد شك قط في مواهب ابنه الفائقة . إلا أن الطيران الجريء المبكر للنسر الصغير قد فاجأه حقاً ، ولكي يكافئه تارة أو كي يوجهه التوجيه الصحيح اشترى له وأهداه مؤلفات تيودور

كورنر مجلدة بقماش أحمر وكذلك سيرة حياة لم تعد حديثة لغوتهولد أفراييم ليسينغ ، مجلدة تجليداً جميلاً ، إلا أنها ذات سعر منخفض .

في هذا الوقت ، وقت الأحداث ، فإنّ كارل أويغن الذي تمّ تثبيته الديني في أثناء ذلك أيضاً كان قد خلع كليّاً مظهر صبي مكتنز الوجه ، وكذلك أيضاً سراويل قصيرة ، وتحوّل إلى شاب رفيع القوام ، هادئاً حسن اللباس ، إلى شاب عني بنفسه وعرف كيف يواجه بموقف ساخر كل من جرؤ على أن يعامله معاملة الصبي أو أن يخاطبه بالكاف ، ولم يكن في الإمكان نكران تأثير هذا الموقف ، مع أنه هو نفسه أسرف في تقديره . كان نعلاه دائماً لامعين ، و كانت مشيته رزينة ، وكان مفرقه أملس معتنى به . ولم يكن هناك ما يدعو ثانوية العاصمة لتخجل منه . وتعمق مستبقاً الزمن في عالم هومير وقرأ نصف الأوديسة . ولكن في ترجمة فوس . كان سيقرؤها كلها لو لم يفسد عليه خطته كورنر المجلّد باللون الأحمر .

بلغت فترة العطلة نهايتها ، هذه المرة دون أسف كارل أويغن الذي انتظر السفر إلى المدينة ودخول الثانوية بأسعد لهفة . وعلى حين عامل السيد آيزيلاين في الأيام الأخيرة ابنه بلطف وعناية مضاعفين وأحس سلفاً بألم فراق ممزوج بالزهو والفخار كانت الأم منهمكة بهدوء وتشاطره بالشراء وحزم المتاع ، والغسل والتلميع ، بالترقيع وتنظيف أكثر الأشياء ضرورة . وقبل آخر يوم قام طالب الثانوية في سترة التثبيت السوداء

بسلسلة من زيارات الوداع لأقــارب وعــرّابين ومــعلمين وأصــدقــاء حـمـيمين ، وتلقى نصـائح وتهنئـات وهدايا ومصافحات ومداعبات مصحوبة بابتسامة مؤدبة ، وحمل في صدره مشاعر حامل علم شاب يتحرك إلى الخدمة العسكرية الجيدة . والنية الثابتة أن يأتي إلى البيت في العطلة الأولى متـغيراً مسناً وأكثـر وجاهة ، أضـفت عليه في أثناء ذلك استعلاءً متحفظاً هادئاً ذا صبغة لذيذة .

ثم جاءت ساعة الوداع والسـفر . وكـان قد جاء ليـصحبه مـدير مـدرسـة داخليـة للصـبيـان في العـاصـمـة ، وكـان من المفروض أن ينزل كارل أويغـن في بيتـه ، ابتسمت الأم ونبهت إلى بعض الأشياء الجيدة وأخلصت له النصيحة ، وتفقدت الحقائب وألقت بنظرها إلى رب المنزل الذي كان يتصرّف تصـرفاً هادئاً جداً في أدب جم ولطف شـديد . أما الأب فكان حزيناً أنه سيفقد حبيبه ، إلا أنه كان أيضاً فخوراً بأن يراه يخطو صوب سيرة مهنية باهرة ومستقبل باهر ، ومزيج هذه المشاعر فعل فعله الشديد في ملامحه حيث إن وجهه ازرقّ وبدا منهوك القوى كما لو أنه كان على السيد الفاضل أن يندم على الفجور الذي لا يغتفر .

" إذاً ، أيها السـيـد المحترم ، لا تقلق ، فإن ابنك في أيدٍ أمينة " ، أكـد السـيـد الغـريب المهـذب مراراً وتكراراً ، على حين نظر إليـه الأب آيزيلاين نظرة كما لو أن ذلك كان قد واساه في حالة وفاة .

رفع الغريب القبضة بأدب ، ثم إنّ مصافحة أخيرة حارة جعلت

الابن يرتعد . وتوقف القطار وصعد الناس ، وصفّر القطار وفاحت منه رائحة الدخان والزيت وانطلق من جديد مسرعاً جداً بحيث إنه أوشك أن يغيب عن الأنظار لما وجد آيزيلاين منديله الملون وأخرجه وبسطه كي يلوّح . ورفرف المنديل الكبير مثل علم صغير في الهواء وبدا بأرضيته الذهبية ونموذجه الأحمر غايةً في السرور والابتهاج لكأنما لم يحلّ اليوم ببيت آيزيلاين إلا السرور . وعلى حين قاوم الصبي في العربة بمشاعر ممضة حديث السيد الذي بدا أن لطفه وابتسامته قد انتسيتا على رصيف المحطة الموحشة ، تمشى الأبوان ببطء مغرقين في الأفكار ، ولكن في أفكار مختلفة الأنواع ، عائدين إلى البيت وإلى حانوت البقالة .

قالت هي :" أنت ، إني لا أرى سيد المدرسة الداخلية سيئاً ."

قال هو :" أجل ،أجل ، كان لطيفاً جداً . صدقت ."

صمتت ، لكنها بينها وبين نفسها لم تبن أملاً على لطف ذلك السيد ، بل على الشيء الذي اعتقدت أنها لاحظته فيه وكان نوعاً من القسوة وشدة البأس . وحين تنهدت هي أيضاً فكرت في أثناء ذلك قبل كل شيء بالمال الكثير الذي سيكلّفهم الصبي ، إذ أن المدرسة الداخلية لم تكن رخيصة .

بعد سفر الصبي حلّ في البيت هدوءٌ كبير وفي الوقت نفسه ركود في تغير توزيع السلطة البطيء الذي تم الشروع فيه . ومنذ قصة

الهنود الحمر كانت الحالة قد تكررت عدة مرات أن السيدة آيزيلاين عاملت الصبي برجولة أكثر من زوجها وأيدت إنقاذ سلطة الأبوين . وفي أثناء ذلك كان قد أفلت في كل مرة من سلطات رب البيت التي لا منازع فيها حتى الآن ،حبة صغيرة في كفة الرجل قد سقطت في كفتها بحيث إن المؤشر اتجه إلى جهتها على نحو غير ملحوظ ولكن بكل تأكيد .

بعد ثمانية أيام وصلت الرسالة الأولى من العاصمة ، وتضمنت بصورة خاصة تعداد أجمل الشوارع والتماثيل ، مقالة غير واضحة بعض الشيء عن لغة هومير وطلب مصروف جيب أكثر إلى حد ما ، لأن المرء يحتاج إلى أمور شتى في المدرسة وخارجها .

وجدت الام هذا غير ضروري ، أما الاب فقد فهم رغبة الابن تماماً وأصرّ على ألا يرفض للصبي اول طلب بسيط ، ذلك لأنّ عليه الآن أن يعيش وسط ناس غرباء ، على أنّ الأم طلبت من أجل ذلك بأن يسجل كارل أويغن مصاريفه ويضع شهرياً تقريراً بذلك . و كتبت له بذلك ، وأجاب طالب الثانوية أنه محال عليه أن يصرف وقته على مثل هذه الأمور التافهة ، فهذا ليس بقالاً . وكان قد وضع خطاً تحت كلمتي بقال والأمور التافهة .

عندها ردت الأم باقتضاب ووضوح ومن غير وضع خطوط تحت الكلمات ، أنه في مثل هذه الظروف يجب أن يبقى المبلغ القديم على

حاله . على أن الموقف تغير ، وسجل الابن الصغير المصاريف بصورة جيدة ، و لم يفته أن يقدم في الوقت المحدد حساباته ، ودعا مضمونها بين الحين والآخر إلى الشك وهز الرأس .

تنهدت الأم :" بالأقلام والمساطر التي يدّعي أنه احتاج إليها يمكن للمرء أن يشعل مدفأة أو فرن تحمير ."

وتنهدت على نحو آخر تماماً حين كان عليها أن تدفع للابن في الربيع القادم ثمن بذلة جديدة غالية كلفت ضعف ما ينبغي أن يصرفه المرء في البيت على ذلك .

وكان كارل أويغن قد فصّلها من غير أن يُطلب منه ذلك وردّ على رسالة متميزة غيظاً لأمه رداً هادئاً جداً بأن الثياب شيء في مناخنا الشمالي ولا يمكنه أن يتجول هنا وهناك عارياً ومثل متسكع أيضاً .

كما أنه لم يبدُ مثل متسكع على الإطلاق حين جاء إلى البيت إثر ذلك في عطلة الفصح . واكتملت البدلة الجديدة الأنيقة بقبعة ناعمة ملساء و زوج من الأردان (حواشي الأكمام) وياقة عالية مقسّاة .

حين أنّبته الأم على هذه الأشياء الغالية الممتازة وحاسبته على ذلك هزّ الشقي كتفيه واتخذ صورة المطيع . قال متأسفاً " ما العمل ؟ هذه الأشياء هي في الواقع بسيطة جداً ، وفي مدرستي الداخلية هناك من يدفع ثمانية وتسعين ماركاً لكل بدلة ." ونجح الأنيق أيضاً في أن

يخلب لبّ الأب على الأقل بحيث إن الموضوع لم يذكر مرة ثانية .
وتصرف برقة ورشاقة وتحدث وحدّث أحاديث ظريفة ومسلية جداً وكان
قد جلب معه وثائق نظامية . وأمضى جلّ يومه في نظم الشعر ، ولكن
في السر ومن دون أن يري أحداً إنجازاته . و في الشارع كان يحيي
معارفه كلهم بلطف خالص تقريباً ورأى الأزقة والبيوت والناس باهتمام
هادئ هدوءاً رقيقاً ، مثله مثل غريب قادته المصادفة لوقت قصير إلى
العش الصغير القديم الطرز .

كما أن الهيام الغريب لكارل أويغن أيضاً حدث في عطلة الفصح
هذه . ذات يوم أخبره أحد رفاقه أن فتاة من كارلسروه في السادسة
عشرة من عمرها تزور أختـه ، " شيء حلو ، أقول لك ، وغاية في
الجمال " . عندئذ تاق هو نفسه أن يرى بهجة الأنظار هذه ، وكان الآن
في أتمّ استعداد لأن يغرم بها . إلا أنّ حظه خاب ، وحين سافرت الفتاة
الجميلة ،ابنة كارلسروه ، بعد عدة أيام لم يستطع أن يراها . على أنّ
شوقه استيقظ الآن وتعلّقت أفكاره بتلك الغريبة وبدا له أن العشق
لشاعر شاب مستحسن ومفيد ، وعلى هذا أغرم بالتي لم تقع عينه
عليها قط ، مثل غرام الصبيان الآخرين بفتياتهم لا على نحو أسوأ ولا
على نحو أقل . واتسعت محفظة القصائد مثل جدول من جداول
الألب في الربيع ، وتمزقت أخيراً وكان لا بدّ من استبدالها أخيراً
بواحدة أكبر .

لم أرك ومع هذا أعرفك ،

لا أعرفك ومع هذا أحبك– إلخ .

لا بل إنه بكى مرات عديدة في أثناء الكتابة . كان بؤساً وتعاسة . وقد وجد السيد آيزيلاين أيضاً هذا حين وقعت بعض الأوراق مصادفة في يده . فقد استعمل ورقتين منهما للفّ السجق المدخن ، وفي الورقة الثالثة لفت الخط انتباهه ، وتعرّف على ex ungue leonem وقرأ أبيات ابنه في العشق بهول متزايد ، إذ أنّ كارل أويغن سمّى نفسه فيها شخصاً استبدّ به الجوى على نحو لا نجاة له منه وشخصاً يضرب في وادي التعاسة والشقاءالخ . وكان النطق مزعجاً لكلا الطرفين . وكان على الأب أن يعترف أنّ قصيدتين من هذه القصائد كانتا ستجدان طريقهما إلى الشعب ولو على نحو بسيط بشكل غريب ؛ أما الابن فكان عليه أن يتصرف كما لو أنّ أدلّة هواه الجارف المبلل بالدموع ليست إلا تمارين أسلوبية . ولم تدر السيدة آيزيلاين أي شيء عن ذلك . وحين اجتاز الشاعر الأهوال الأولى حلم على استحياء جميل بما قد ستكون عليه الحال لو أنّ قصائده السجقية وجدت طريقها إلى أية حسناء شابة ونالت حظوة لديها ، وفي هذه الحال سيكون مستعداً لأن ينقل مشاعره على المشاعر نفسها . وبما أنّ هذا بقي حلماً فقد كان سعيداً حين انتهت العطلة . حزم حقيبته الثقيلة بعناية وعاد إلى المدينة والمدرسة على نحو أهدأ بقليل مما كان قد جاء .

في هذه الفترة أخذت رسائله تكتسب لهجة رائعة وصعبة الفهم في بعض الأحيان . وكانت تتأخر أحياناً وقتاً طويلاً أيضاً إلى أن نبهت الأم .

ومن جديد جاء كارل أويغن في عطلة . كان قد بلغ الآن أشدّه ؛ كان أنيقاً جداً في ملبسه وكان مؤدباً ومهذباً . ومن بين ذلك أنه نزل في اليوم التالي إلى الدكان مبتسماً وانتقى لنفسه في تؤدة واهتمام سيجارة غليظة وأشعلها . وسأل الأب : " منذ متى تدخّن ؟ " هنا دهش كارل أويغن إلى حد الامتعاض أنّ المرء لم يجد هذا بديهياً . وبينما كان الأب يتكلم صبّ لنفسه كأس عرق من الزجاجة لتسهيل الهضم وأدهش الأب بهذا كل الدهشة حتى إنه لاذ بالصمت . في غرفته انتشرت مؤلفات هاينريش هايني وبعض الروايات المعاصرة ، وعوض عن حقيبة الأشعار السميكة كان قد جلب معه دفتراً يحمل العنوان :" الوحل . تمثيلية بقلم ك . أ . آيزيلاين ." وعلى الصفحة التالية كان فهرس بالاشخاص يبلغ طوله ستين سينتميتراً .

مضت العطلة في هدوء ومرح . أما العام الدراسي التالي فقد جلب ضجة خفيفة . إذ وردت رسالة من مدير المدرسة - فحواها أنّ الصبي يسير في طريق الشر وأنه غاب عن البيت مرة أخرى ليلاً وشوهد حديثاً في حانة ، لا بل إنّ الشبهة تحوم حوله أنّ له علاقة مع ساقية الحانة . وعلى حين ظلّ الأبوان المذعوران يفكران ملياً في يأس

وحيرة بهذا العمل الشنيع جاءت من الابن نفسه رسالة قصيرة تمّت خربشتها على قصاصة جاء فيها : أحتاج حتى يوم الاربعاء إلى اثني عشر ماركاً وخمسين بفينيكاً . إن لم تتمكنوا من إعطائها لي سأقتل نفسي بالرصاص . كارل أويغن ."

إذاً كان هذا هو الوحل . على أنّ الموضوع جرى على نحو أهدأ مما كان المرء سيتصوّره . سافرت الأم إلى العاصمة وتمّ تسديد ديون الصبي للحانة ، هو نفسه خضع لرقابة شديدة وأبدى ندماً خالصاً وكشف بعض الوقت عن تواضع مثالي . ثمّ بدأ تدريجياً من جديد ليمثل دور الشاب الطيب الممتاز ووصف بين وقت وآخر في أحاديث ورسائل تلك الحادثة المزعجة بأنها مزحة شبابية مضحكة مغتفرة شبيهة بتلك السفرة إلى أمريكا .

كلما اقتربت نهاية سنوات المدرسة الثانوية كثر تذكار كارل أويغن وازداد وضوحاً أنه ولد شاعراً ولهذا فإنه من المحال أن يختار الدراسة لكسب المال فقط . كان التاريخ والفلسفة المادتين الوحيدتين اللتين كان في إمكانه أن يسلّم لهما بقيمة مشروطة . لكن هنا ظهر الأب لأول مرة شديد البأس ، كما أنه بعد أن قرأ بعض قصائد ابنه أصرّ كلّ الاصرار على أن يختار هذا دراسة محترمة ومهنة محددة . وحين رأى كارل أويغن أنه يغرف هذه المرة بدلو مثقوب سلك مسلكاً مجاملاً وأعلن استعداده لأن يدرس فقه اللغة على أن يسمح له بعد ذلك بأن

ينضمّ إلى منظمة طلابية . ومع أنّ الأم شاركت الآن في المعركة وعارضت ذلك بشدة فإنه انتزع الموافقة على وجهة نظره . أما الأبوان فقد بان على وجهيهما الغم والكرب . فالدكان درّ منذ زمن قصير ربحاً أسوأ من ذي قبل ، منذ أن افتتح على كل زاوية دكان جديد ، وكان الابن قد استهلك وهو تلميذ مبالغ طائلة جدّاً بحيث إن الوالدين كان عليهما أن يقللا إلى حد ما من مصروفاتهما وتطلعا مهمومين قلقين إلى الأيام القادمة .

كان الفصل الدراسي الأول غالياً غلاءً فاحشاً أيضاً برسوم التسجيل والكتب والمنظمة الطلابية ودورة ركوب الخيل . لكن العجوزين كانا فخورين وفرحين ، والأم الصارمة أيضاً ، وذلك حين جاء الطالب في العطلة الأولى ، جميلاً وقوياً ، مرحاً وذا مروءة ، بشاربين ونعلي ركوب . فتيات المدينة كلهن تحركت مخاوفهن ، والمجلس البلدي الذي اصطحبه الأب إلى حفلتهم للعبة القناني الخشبية استقبله باحترام وهنّأ العجوز على ابنه الضخم . على أنه لم يكن في إمكانه أن يتجنب بعض التنهدات الشديدة ، ولم يُعفَ أيضاً من حديث مزعج أُجريَ بتردد حول الاستهلاك الكبير للمال . إنّ فصلاً دراسياً باهظ التكاليف إلى هذا الحد لا يجوز أن يتكرر ، فدخل الدكان ضعيف ، ويجب أن يبقى شيء ما أيضاً لوقت لاحق . ومن خلال الاتصال بالوالدين بعامة ، شفوياً أو بالمراسلة ، أصبحت النقود المزعجة أكثر

فأكثر الموضوع الأساسي المحوري . وسرعان ما كان في مقدور كل مشاهد أن يلاحظ أنّ السيد آيزيلاين قد أخطأ خطأً كبيراً في حساباته .

يكاد لا يوجد هناك شيء مؤثر في القلوب إلى حد الازعاج أكثر من أن يوفّر مواطن شريف كان إلى الآن أحد الموسرين توفيراً يقلّ أكثر وأكثر وبصورة تدريجية . كان يمكن أن يحتاج إلى سترة سوداء جديدة ، ولكن يجب على الأب الشيخ أن يواصل خدمته وسيتحول شيئاً فشيئاً إلى رمز لكل التدبير المنزلي الذي يزداد سوءاً . ويزداد هو بصورة دائمة سمرةً وسمنةً بعض الشيء فقد أصبح خط اتصال الكتفين أكثر وضوحاً وبروزاً مثل غضون الهم المتزايدة ، وبدأ الكمّان يهترئان عند نهايتهما ، ريثما يضع شريط مخيط مؤقتاً حدّاً للانهيار ويتدخل بصفة أول ترقيع اضطراري تدخلاً مشوّهاً في طراز بناء الثوب .

لم يبلغ الأمر بآيزيلاين بعد إلى هذا الحد ، إلا أنه كثرت نذر حادثة مقبلة . فبالنسبة إلى حالته وبلدته كان وافر المال . وكان الدكان سيقوم بأود عدة أطفال أيضاً بشكل مريح ، إلا أنّ الابن الذي يألف شيئاً فشئياً ظروفاً أكثر غرابة وأكثر فخامة أثّر في كل شيء وكان أمراً محتوماً أنه استطاع أن يسمع هذا مراراً وتكراراً بصورة دائمة وأنّ العلاقة بين الابن والأبوين تحولت تدريجياً إلى حرب حذرة شديدة ومريرة تقريباً دارت حول المال .

في أثناء ذلك أتى الفصل الثاني بعد الفصل الأول ، وتخللتهما عطلة مليئة بجو نفسي خانق بصورة مزعجة ، وقلّ صرف المال عن ذي قبل . أما في الفصل الثالث فقد بلّغ الابن فجأة أنه ترك المنظمة الطلابية التي منعته حياتها التي لا طعم لها من مواصلة دراساته الأدبية ونفّرته عنها . فدورات الركوب والإهداءات والقلانس والأوشحة وما شابه ذلك ، كل هذا اختفى من الميزانية وأفسح المجال لحسابات بائعي الكتب . وذات يوم وصل أحدث عدد من مجلة غريبة كمطبوعات وتضمن قصيدة طويلة صاحبها كارل أويغن . وكان اسم الصحيفة "الهاوية" ، وكانت تصدر مرتين في الشهر ، وكانت تكلّف عشرين ماركاً وكانت مهمتها أن تمهد للمواهب الشابة المهمة ، مواهب أحدث اتجاه أدبي ، الطريق إلى الجمهور . لم يفهم السيد آيزيلاين لا قصيدة ابنه ولا المقالات الأخرى ، إلا أنه سرّ لهذا النجاح الأول وذهب إلى أنّ مجلة غالية ومتميزة بهذا الشكل ومطبوعة بحروف ضخمة ستدفع على كل حال للمتعاونين فيها أيضاً بشكل سليم ومرتب . وكتب بهذا المعنى إلى الطالب ، إلا أنه لم يتلقّ جواباً .

وحين جاء هذا مرة أخرى إلى البيت لأسابيع عدة كان قد تغيّر تغيّراً كبيراً جدّاً . فأناقة الثياب كانت قد اختفت وحلّ محلها إهمال عبقري ، لاهو بإهمال متشرّد ولا هو بإهمال فنان ، بل بين بين . فعلى كمّي السترة بضع بقع بدت بأنها لا تزعجه ، ولم يكن حريصاً إلا على

ألوان وعقدات ربطات عنقه الكبيرة التي كان يعقدها بنفسه . كانت قبعته سوداء ملساء وكانت لها حافات ذات عرض يزيد على عرض إيطالي . وبدلاً عن السجائر الغليظة صار يدخن الآن غليوناً قصيراً غليظاً من الخشب أو الطفال . كان سلوكه بسيطاً ببساطة ساخرة تهكمية . وبما أن حساباته كانت هذه المرة أبسط بقليل لم ير الأبوان موجباً لأن يعاتبا على هذا التغيّر ، بل أملا بأن يريا أنه تحوّل إلى متقدم للامتحان نشيط ومتواضع . وحاذر هو أن يشوّش على هذه الأحلام أو أن يحكي عن الطرق التي سلكتها المبالغ التي تمّ تقاضيها تحت باب رسوم المحاضرات . وحين كان الحديث يتطرق أحياناً إلى الامتحان وأشياء من هذا القبيل ، كانت ابتسامة جادة وكئيبة تزيّن شفتيه اللتين أحاطت بهما الآن ذقن مهملة غير حليقة . على أنّ البريد كان يحمل كل أسبوعين مجلة " الهاوية" ، وأكثر من مرة تضمنت قصائد بقلم الطالب . كان الأمر غريباً - فالرجل الشاب بدا سليماً معافى ورشيداً سليم الطوية ، أما هذه القصائد فكان معظمها مريضاً ، غامضاً وتعيساً جدّاً لكأنّ الأمر كان فعلاً هاوية كانت ستلتهمه . ولم يكن بعضها الآخر بأفضل - كل شيء كان له وقع الولولة السخيفة سخف الأشباح والتي لم يكن معناها مفهوماً إلا لدى المطلعين المتميزين . ففيها ترددت رنة المعابد والعزلة والبحار المقفرة وغابات الرور التي كان يؤمها دائماً شاب هياب وسط زفرات ملؤها ضيق وعسر . وقد فهم المرء أنّ المعنى كان رمزياً ، إلا أنه لم يجن من هذا إلا القليل .

في مدينة الجامعة أمضى كارل أويغن الامسيات التي أبقاها له نظم الشعر ، وفي معظم الأحيان في الحانة الصغيرة نفسها قرب مدرسة الركوب حيث كان ينفق بعض صغار الطلبة المعدمين شبابهم وهم يشربون الخمر ويلعبون بكوب النرد ولم يكونوا إلا شباباً نوابغ ، ناساً وازوا قاعة بكاملها مليئة بالوصوليين الذين لا يعبأون بالله ولا بالعالم والذين كانوا قد انتزعوا منذ زمن طويل من الحياة بعض أسرارها ، ولهذا لم يفعلوا شيئاً آخر أكثر من الجلوس والشرب واللعب بكوب النرد واللعبة بعشرة بفينيكات .

كان الشاعر في الفصل الدراسي الخامس ، حين جاء يوم حار خانق - خصوم ونساء وديون - أما الخصوم فكانوا أساتذة الجامعة الذين بدا لهم بقاء كارل أويغن الأطول في الجامعة غير ضروري وغير مستحب . وجلس الذي عمقه عمق الهاوية وكتب إلى السيد جيورج آيزيلاين البقال في غيربرزاو :

" أبي العزيز!

في هذه الأيام - وأنا أحزم متاعي - أعود إليكم وأظن أنني سأبقى فترة أطول . آن الأوان لي أن أعمل ، ولا متسع لهذا هنا أبداً . الرجاء أن ترتبوا لي غرفة للدراسة . أما زلت تبيع التبغ الهولندي الناعم الممتاز في الدكان ، أم هل ينبغي علي أن أجلبه معي من هنا ؟ البقية شفوياً .

ابنكم ك . أ ."

لم يسبق أن جاءت منه رسالة رقيقة مثل هذه الرقة ، وحازمة مثل هذا الحزم ، وهادئة وفيها رجولة . سرّ الأب سروراً عظيماً وطلب كمية من التبغ الذي كبر عليه شراؤه وبيعه ورجا الزوجة آيزيلاين أن تجهز الغرفة للعائد . تم المسح والحك والزخرفة والنفض ، وبعدها تنجيد الكرسي ذي المسند تنجيداً جديداً ، ومن ثم غسل النوافذ وتغيير الستائر . كان في وسع المرء القيام بهذا – وتنفس المرء الصعداء بارتياح عبر الشؤون المنزلية البائسة ، ذلك لأنّ قواه كان عليها أن تتوقف لكي تنزف من أجل النائي البعيد .

وصلت حقيبة الملابس ووصل صندوقان ثقيلان من الكتب ، وفي اليوم التالي قدم الابن نفسه . كان الشيخ متأثراً كل التأثر أن يراه وقد أصبح هادئاً جاداً . ونزل هذا بالغرفة المريحة شاكراً ورتّب الكتب وعلّق الغلايين والصور على الجدار ، وتحتها صورة لشاعر كانت كتبه نوعاً من الانجيل في نظر طلاب " الهاوية" . كانت صورة نصفية بأحدث أساليب الأسود والأبيض ، مبالغاً فيها بشكل ملحوظ ، ومثّلت رجلاً شاباً بعينين خبيثتين وجبين مهموم مغموم وفم متكبر تكبراً بالغاً ، والياقة والربطة من أقدم الأشكال طرزاً . وفي الخلفية كان المرء مدهوشاً أن يرى رسم تمثال فارس مشهور يعود إلى عصر المرتزقة الهمجي الجميل بدت جرأته الباردة أنها تسخر من الفنان العصبي المرسوم في الأمام . وتضمنت مجموعة الكتب الضخمة بعض اليونانيين والرومان ، وبضعة

كتب في النحو ومعاجم من أيام المدرسة وتاريخ تسيللر عن الفلسفة اليونانية ومجلدين من مرجع فقه اللغة الكلاسيكية ، وما تبقى كان من "الأدب الجميل" . هنا رأى المرء مؤلفات كتاب شباب ، إلا أنهم كانوا قد كتبوا كثيراً ، مؤلفات في أغلفة ذات لون متوهج توهجاً غير طبيعي ومغطاة بتخطيطات مبهمة لرسامين شباب أيضاً ومجدين ، ومن لم يفهم لغة الألوان والخطوط استطاع أن يستنتج من العناوين وفرة المضمون وعمقه . الكون . ثلاثية – ليال بنفسجية – أسرار الروح – تعازي الجمال السرية الأربع عشرة . كان هذا بعضاً منها . وكان معظمها مزوّداً بإهداءات الشاعر الواحد إلى الشاعر الآخر ، إلا أنّ أحدها كان مهدى إلى أفعى زارادشت والآخر مهدى إلى القارة السادسة . وبعض القذارات المبتذلة " من عالم المشبوهات " وما شابه ذلك والتي كانت قد ضلّت طريقها على نحو أو آخر إلى هذه الأوساط المتكبرة ، والتي كانت أغلفتها أقل جمالاً إلا أنها كانت أكثر وضوحاً من الأغلفة الأخرى انكمشت على بعضها في استحياء . إنّ واحداً اسمه دانتي فتحت بعض صفحاته بالسكين استند إلى بوكاتشيو ألماني فتحت صفحاته كلها بالسكين . بضعة مجلدات لماير من زيوريخ أثارت الشك في المشاهد أنّ عدة كتب أخرى من قبل الأدباء المتوفين الأمناء البسطاء تودّ أن يكون لها وجودها . على أنّ هذا ثبت أنه غير مبرر .

كان الوقت منتصف الصيف ، وكان كارل أويغن يخرج أحياناً إلى

غابة التنوب ومعه كتاب في الجيب لكي يقرأ هناك في الظل . الغابة نفسها لم تكن تهمه . أماغبطته بالطبيعة القاسية التي لم تكن من قبل قوية جداً في أعماقه فقد صرفه عنها كليا ذلك الشاعر ، شاعر المرتزقة ، وفي مدرسة الانكليزي أوسكار وايلد الرائعة الممتازة تعلم أنّ الطبيعة لا تقدر على أن تخلق إلا الشيء الوسطي بصورة دائمة ، على عكس الفن الذي هي عدوه الحاسد . في البيت كان ينفرد دائماً في غرفته ؛ والمحيط هناك ، وخاصة الدكان بصخبه وروائحه كان غاية في الابتذال ولا يستسيغه الذوق على الإطلاق . كان يجلس ويدخن ، يكتب ويقرأ في تلك الكتب ذات العناوين والأغلفة الغريبة . كان يقرأ في ولع كلا الكتابين لأوسكار وايلد اللذين كانا في حوزته . كانا مترجمين ؛ ولم يكن يعرف الانكليزية . أحدهما كان قد اطلع عليه واشتراه وهو بعد عضو في المنظمة الطلابية ، وآنذاك تشاجر مشاجرة حادة مع أحد رفاق المنظمة الطلابية الذي وجد الكتاب سخيفاً وسمى المؤلف بعض الوقت " أوسكار الهمجي " . لم يكن هناك ما يدعو إلى القول كم كان يدين هو لهذا الانكليزي .

ربما كانت هذه القراءة السبب في أنّ عمله لم يتقدم تقدماً سليماً . كان ينوي أن يكتب كتاباً نموذجياً في عمقه ومن نوع النثر الشعري الذي كانت قدوته القصائد في زارادشت . على أنّ الانشغال الدائم بكتب أنيقة جميلة إلى هذا الحد جعله عاجزاً المرة تلو المرة ، وسلبه الوقت والقوة وجعله أحياناً يائساً كل اليأس ، ذلك لأنه خيّل إليه أنّ

خير الأشياء وأروعها قالها آخرون منذ زمن طويل . لم تنقصه الأفكار ، إلا أنّ هذه الفكرة كان نيتشه قد عبّر عنها ، والأخرى عبّر عنها ديميل والثالثة ميترلينك . كما أنّ حالاته النفسية ، آلامه ، شوقه - كل هذا كان هنا وهناك في كتب جميلة ، تمّ نظمه وإنشاده ، وتمّ تصعيد التنهدات أو تمّ التلعثم به . وكان إذا أراد أن ينظر إلى نفسه في سخرية وتهكم ، وكان متدرباً على ذلك جيداً ، طلعت من جديد صورة كانت موجودة أيضاً منذ زمن طويل ومرسومة ، سواء من قبل فيرلين أو بيرباوم أو آخر . ربما كان عليه أن يستخلص من ذلك أنه لا يستطيع أن يقول شيئاً جديداً ولهذا وجد أنه لمن الأجدى أن يوفر الورق ويشتغل بشيء آخر .

إلا أنه كانت ثمّة عقدة . كانت العودة إلى الدراسة لكسب المال فقط أمراً مستحيلاً لأنه لم يكن هناك أية بداية . فلم يبدأ قط الدراسة . وكان يرتعش عندما كان يتذكر اليوم الذي لا مفرّ منه والذي تتوقف فيه هذه الحقيقة المؤلمة لأن تكون سرّه . وحتى الآن كان قد أمل أن يطلع على الملأ "بعمله" ذات يوم بصورة مفاجئة ويبرر بذلك السنوات التي أضاعها سدى . وكان يأمل هذا الآن أيضاً ، ولكن بقليل من الثقة والاطمئنان . ولئن طبعت " الهاوية " قصائد له المرة تلو المرة ، إلا أنه لم يتمّ دفع أيّ شيءٍ على ذلك ، والشرط أنه لا يتم قبول مقالات إلا من مشتركين بإرسال إيصال الاشتراك لم يعد يبدو له في الفترة الأخيرة بسيطاً كما في البداية . إنّ مجلات أخرى خاطبها لم

تحر جواباً أو أنها أعادت له أشعاره في أسرع ما يمكن ، لا بل مرفقة أحياناً بتعليقات هزلية ساخرة .

لو أراد أن يكتب مثل هؤلاء المنتجين للروايات المتخلفين وأمثالهم من الناس ، قال في ذات نفسه ، لكان النجاح حليفه ! لكن من قدّم أكثر الأشياء خصوصية وأكثرها عمقاً وحرارة وذاتية ومن صاغ كبرياءه في أشكال جيدة ووضعها في رعاية لغة نقية نقاوة الكهنوت ورصينة مهيبة ، كان عليه أن يتحول بطبيعة الحال إلى شهيد المثل الأعلى . لا ، وإن لم يكافئه النجاح والمجد على الاطلاق فلن يتكلم أبداً عن شيء آخر ولن يتغنى بشيء آخر إلا بحالاته النفسية العميقة المنتقاة ورؤى أوقاته المتعلقة بأشدّ العواطف عمقاً .

ذات يوم برز في أعماقه أمل جديد . فقد كتب رسائل إلى كلا الشاعرين اللذين كان يجلّهما فوق كل شيء . ووصف فيها كيف كانت مؤلفاتهما وحياً له وعبّر عن إجلاله الضارع وختم الرسالة طالباً إسداء النصيحة له في ضائقاته الشعرية وأرفق عدداً من مجلة "الهاوية" وبعض القصائد .

وما يدري إلا والعظيمان قد أجابا . كتب أحدهما بأشد الأساليب فخامة أنّ الفن هو بلا شك استشهاد ، إلا أنه شرف أن يحمل المرء العبء الثقيل ، وأنّ الشيء الذي يلقى استحساناً اليوم ستتم معرفته في مرحلة لاحقة وسيتم السمو به إلى المجد اللائق به . ونصح التلميذ أن يبقى وفياً وألا ينسى أبداً أنّ (vita brevis ، ars longa الفن طويل

والحياة قصيرة) . وكتب الشاعر الثاني بأسلوب عادي تماماً . فهو يشكر الشكر الجزيل على الكلمات الرائعة ويعيد طياً الأبيات الشعرية الجميلة ؛ وبالمناسبة يبدو السيد آيزيلاين ، إن لم أخطىء ، أنه في الوضع المريح لشخص غير رسمي ينظم الشعر من باب المتعة ولا يعرف بؤس أولئك الذين يجب أن يعيشوا من ذلك . في هذه الحال يودّ أن يطلب من السيد آيزيلاين الذي تنم رسالته وقصائده عن هاوي فنون ظريف جداً ، سلفة قدرها مائتا مارك ذلك لأنّه يعاني في الوقت الحاضر من ضائقة . وليس في إمكان المرء أن يتصوّر حياة الشاعر محزنة بما فيه الكفاية ؛ فكتاب "الكون . ثلاثية " الذي يبجّله السيد آيزيلاين بمثل هذه الحماسة لم يكن نصيبي من دخله في السنوات الثلاث منذ صدوره إلا مبلغاً نقدياً قدره ٢٤,٧٥ ماركاً ، ولو لم يعمل إلى جانب ذلك مراسلاً لإحدى الصحف لمات جوعاً منذ زمن طويل .

كارل أويغن الذي خاب أمله وضع كلتا الرسالتين في الدرج . وكثيراً ما شارك فيما مضى في السب والشتم أنّ الشعب الألماني يقتّر على شعرائه ، إلا أنه رأى الآن هذا البؤس أول مرة عن كثب وبوضوح زائد . لم يعمل أي شيء آخر في حياته إلا كتابة القصائد - من أين كان له أن يعرف أنّ معظم الناس ، وإن كانوا لا يقرؤون في الواقع كتباً عرفوا وأرادوا أن يقرؤوا شيئاً أهم من الأحلام والحالات النفسية المتقلبة لبعض الحالمين ؟ حقاً ، ظنّ أنه يعرف الحياة ؛ ولم يدر أنه كان يعيش بعيداً عنها في صحراء مجدبة وأنّ على الجانب الآخر ، في الحياة

الحقيقية ، كلّ يوم يلد أعاجيب ومعجزات كانت فنون الرمزيين المصقولة أبلغ صقل ستكون حيالها بسيطة وعديمة اللون .

مرت الأيام من دون أن يعمل الكثير ، اللهمّ إلا القراءة . فالصيف اكتسى بلون السمرة ومال إلى الذبول ، أمطار أيلول غسلت الطبيعة من الغبار ، وكانت هناك أوراقٌ ملونة وليالٍ باردة وأصباح باكرة ضبابية . ومع ورق القيقب المتساقط وردت رسالة إلى داخل باب الدكان ، كانت موضوعة مع بقية البريد على زاوية المنضدة ، أخذها السيد آيزيلاين إلى المكتب ، قرأها وأعاد قراءتها ووضعها جانباً بتنهدة يائسة وجلبها أخيراً بنفسه إلى الأم . جاءت الرسالة من تاجر في المدينة الجامعية وهتكت السر بأنه مازال على كارل أويغن هناك ديون كثيرة لم يكن للأب أي علم بها .

في الصباح كان الابن موجوداً في الدكان لكي يملأ جراب تبغه . رأى الرسالة موضوعة هناك . وعرف ووسوس له الشيطان بأن يأخذها . إلا أن الأمر كان لا بدّ أن ينكشف أخيراً في يوم من الأيام ، وبدا له أنه من الأفضل أن يشهد الانهيار بدلاً من أن يحمل الخوف في صدره إلى زمن غير يسير . ومنذ ذلك الوقت جلس في غرفته منتظراً بين اللحظة والأخرى دخول الأبوين وخائفاً من ذلك ، وكل دقيقة خالها طويلة كفصل دراسي شتوي . في هذه الساعة أحس وشاهد وعانى أكثر مما عانى في قصائده كلها ، وتضاءلت أخلاقية الفنان الحرة المرحة إلى عناء مؤسف ومتوجع ، لكن لا أحد جاء ، وآن وقت الغداء ، وبعد

شيءٍ من التردد تشجّع وانتقل إلى غرفة الطعام ، لم يجد هناك إلا والده الذي كان يتناول حساءه ولم يرفع النظر . تمّ رفع الحساء وجلب لحم البقر والخضر ، ثم تمّ الأكل في صمت ، وكاد كارل أويغن أن يذوب من الخوف والتوتر .

سأل أخيراً وهو خائف :" أين أمي ؟ "

" مسافرة " .

" إلى أين ؟ "

" ستعرف فيما بعد " .

ولم يتعدَّ سؤاله هذا النطاق ، إلا أنه تخيل أمه القصيرة الشجاعة تجري في أزقة المدينة الجامعية وتتتبع وتكتشف تقصيره ومخازيه وديونه ، الواحد تلو الآخر . ذهبت إلى مسكنه السابق ، وقصدت التجار وأصحاب المطاعم ، وذهبت إلى صاحب المكتبة وإلى اليهودي فيرتسبورغر ، والله ، لقد ذهبت أيضاً إلى الأساتذة الذين قرر قولهم مصيره نهائياً وقضى عليه .

الآن عرف ناظم الشعر المسكين أن الساعة دقت . لو أن الأب سافر على الأقل ! لكن الأم ! لن تنسى شيئاً ولن يبقى أي شيء خفياً عليها ، لا بل ستتضح لها الفصول الدراسية الأولى المنسية والمضاعة .

مضت أربعة أيام هادئة مليئة بالرهبة والخوف ، ومليئة بالظن والشك بالنسبة إلى الأب ، ومليئة بالتوتر والعذاب بالنسبة إلى

الشاب ، لم يتبادلا الكلام مع أن كليهما كان يحمل في نفسه الرغبة في ذلك . فالابن لم يرغب في أن يقول أي شيء قبل أن يعرف كم من آثامه تم اكتشافه .

لأول مرة كان الأب غير مستعد للمصالحة وكان مغتاظاً أشد الغيظ لأنه كان قد بنى من جديد في سره آمالاً رائعة على تحسّن كارل أويغن المفتعل الذي ثبت أنه تمثيلية هزلية .

في اليوم الخامس عادت السيدة آيزيلاين ، وكل أمل ضئيل مكتوم كان الشيخ والشاب قد أضمراه وغذياه تحطم وتلاشى . لم تعرف تمام المعرفة كم من الديون على الابن ، بل عرفت أيضاً الأشياء الأخرى كلها ، وأن الدراسة أصبحت في خبر كان وأنّ المال للفصول الدراسية كلها قد صرف بغير ذي نفع وضاع ، وأنّ الطالب لم ينسحب من المنظمة الطلابية ، بل كان قد طرد منها ، وأنه كان قد زيّن غرفته بورق جدران ياباني ورسوم خليعة وأنه كانت له علاقات مع نساء سيئات وأنه كان قد اشترى لواحدة من المسرح مشبكاً . وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع .

بعد أن حدّثت وحكت أمام المذنب المذهول والأب المحطم النفس على كل شيء بطلاقة وموضوعية جلست الأم على الكرسي وسددت بصرها إلى الابن وقالت :

" إذاً ، ما قولك في ذلك ؟ أصحيح أم لا ؟"

" إنه صحيح " ، أكد بصوت خافت .

" أأنت وغدٌ أم لا ؟"

" ماما- "

" نعم أم لا ! "

" أجل ." همس واحمرّ .

" الآن تستطيع أن تتكلم معه ،يا شورش ."

قالت للأب الذي تفجّر استياؤه الآن في يأس . العبارات الغليظة كلها التي كان قد ضنّ بها سابقاً على الصبي تدفقت الآن متأخرة وحادة بحيث إن المذنب لم يعد يعرف أباه على حين أن ما راعه إلا أن تجلس الأم في هدوء وتراقب بتعبير وجه غريب الإجهاش بالبكاء والجيشان وتوقف هدير هذه المشاحنة الكبيرة .

" في إمكانك أن تتركنا وحدنا الآن " ، قالت لكارل أويغن في هدوء ، حين سكت الأب وارتمى في كرسيه وغالب الاختناق .

من جديد تحرك لسان الميزان وبدءاً من هذا اليوم صار زمام السلطة المنزلية في يد الأم . لم يعلّق على هذا بكلمة . على أن آيزيلاين الأب لم يعد يقوم بأي شيء على الإطلاق من دون أن ينظر إليها قبل ذلك باستفسار صامت ، وتشمم الابن وفهم بأنه سيكون عليه من الآن وصاعداً أن يتحول وحده أمام عيني أمه وأن يبرره . ولهذا أذعن لها صامتاً وانتظر بهدوء إلى أن وصل إليه الدور ليتكلم معها .

حدث هذا أيضاً بسرعة ووضوح . لم يأته أي شيءهدية ، من قطار الهنود وحتى ورق الجدران الياباني وجد أن جرائره ورذائله قد

أحصيت إحصاءً أميناً وسجلت تسجيلاً أميناً ، وانتهى الحساب بالنسبة إليه بعجز . وفي الوقت نفسه استحسنت الأم أن تخبره الآن بسوء وضع تجارة أبيه وثروته ، وبالطبع من دون أن تنبّه بإصرار إلى أن الابن كان له نصيب في وزر هذا الكساد .

ختمت كلامها أخيراً : " هكذا كانت الأمور ، وعلينا أن نتحمل عواقب ديونك على الأقل أربع او خمس سنوات أخرى . ماذا سيحل بك الآن ؟"

كان كارل أويغن قد همّ غير مرة بأن يقاطع حديث أمه المفعم بالحيوية والنشاط ، إنما كان موضوعياً ، لكنه بصراحة تلقى إيعازاً صارماً بالهدوء . فلازم مكانه مغلوباً على أمره ومحطماً وكان عليه أن يردّ جواباً . ونهض عابس الوجه وزحزح الكرسي وقال : " لا أستطيع أن أقول أيّ شيء ، فلن تفهميني . ومن الأفضل أن انصرف الآن ؛ حين أحقق مأربي ستصلكما أخباري ثانية ، هذا ولست أنا أول من تدمّر على هذا النحو ."

ومإن اقترب من الباب ، مزهواً إلى حد ما بتعاسته وباللهجة الحزينة التي قدّم بها كلامه حتى أمرته أمه بالعودة .

قالت :" من فضلك ، ابقَ جالساً إلى أن انتهي ."

عاد إلى الجلوس بهدوء ، وضحكت بينها وبين نفسها .

" ألا ينبغي أن تتوقف هذه التمثيليات ، أيها الصبي الغبي ، إلى أين ستمضي ؟ هل معك نقود ؟ لست بالرجل لتخدعني بهذه

التصرفات ؟ ولن أعطيك فلساً واحداً من أجل هذا العمل الميؤوس منه . أم أنك تريد أن تنتحر . بالله عليك لا تقدم على ذلك ، فأنا أعرفك . فأنت واأسفاه ولدنا وعلينا أن نرى أنك ستتحول إلى شيء آخر . لن يكون هناك سفر بعد الآن ، فلا تمثّل وقل ما ينبغي قوله . إن كنت سأفهم أم لا ، فهذا شأني . ولم لا ينبغي علي أن أفهمك ؟ والله لم تدرس أنت الدراسة الزائدة إذاً أبداً !"

أحس الابن بالفرح أنّ أمه لم تتركه يمضي ، ورغم الخجل أخذ يثق بنفسه بعض الثقة . سعل إذاً قليلاً ، تنهد وكشّر وجهه ، ثم أخذ يشرح ويوضح أنه أراد أن يصبح شاعراً . وسواء صدق المرء أم لم يصدق فقد درس الدراسات الكافية وتعلم الكثير ، وهو يهم الآن لينجز أول عمل من أعماله . فإذا ما كان عليه أن يكفّ عن ذلك الآن سيكون الوقت الجميل كله قد ضاع سدى على نحو مضاعف ؛ ربما نجح في ذلك وفي هذه الحال يكون كل شيء تعوّض .

أخذ يتحدث عن شعراء يملكون بيوتاً ريفية ويسافرون في الدرجة الأولى ؛ ولم يذكر أي شيء عن رسالتي الشاعرين الرمزيين . قاطعته ورأت أنّ في إمكانه أن يكون سعيداً إذا ما كفاه أن يسدد ديونه . إلى متى يريد أن ينجز عمله إن لم يتمّ في الفصول الدراسية كلها ؟ هنا عاد إليه نشاطه وحيويته وأوضح لها نوعية النضج التي يتطلبها شيء كهذا ." نضج! " ابتسمت . إلا أنه كان قد قطع شوطاً بعيداً ، ولو تفرّغ للعمل هذا الشتاء فقط لفرغ من ذلك .

قالت :" سأنعم التفكير في ذلك ، فالمسألة لا تتوقف الآن على يوم واحد أبداً . سنواصل الحديث غداً . وبما أنك تجلب التبغ والعرق على هواك من الدكان ، فيجب أن ينتهي هذا اليوم ، لا تنس ذلك !"

حين جلس المخلوق الشاب في غرفته وفكر في الموضوع رأى نفسه صغيراً إلى حدّ الحقارة ومنكسر النفس وكاد يخجل من عناوين الكتب المتعالية على الحائط ؛ إلا أنه كان فرحاً أنه تحرر من الخوف واستعاد حالة الاستقرار . سحب الدفتر السميك الذي تضمن بعض السطور الأولى من شعره العظيم . " وادي النفوس المتقعة " كان على الغلاف ، بدا له العنوان مناسباً ، عمل فني صغير . كان وحياً وكان قد خطر بباله قبل ربع سنة وهو عائد من حفلة شرب منفردة ، ومنذ ذلك الحين آمن بعمله الفني وأحسّ كأنّ الشيء الأشد صعوبة والحاسم في ذلك قد تمّ إنجازه . كما أنّ الإهداء كان جاهزاً أيضاً . كان إهداءً موجهاً إلى ذلك الشاعر الذي كان قد كتب له رسالة الشهيد ، على نحو فيه إيجاز وجمال ، وبمزيج من الكبرياء والتواضع ، معبّراً عن الانحناء بإجلال أمام الروح المختار .

في المساء نفسه كان للسيد آيزيلاين حديث آخر مع زوجته . فقد أعوزته النصيحة ، تنهّد وسبّ بالتناوب وازداد بؤساً وتعاسة كلما اشتد استعجال الزوجة له على الاقتراحات .

قالت أخيراً متوددة : " أنت لا تعرف إذاً أيّ شيء ؟"

انتفض واقفاً في غضب وسار في الحجرة جيئة وذهاباً مثل حبيس سجين .

صرخ غاضباً : " هذا الآدمي ، سأرسله إلى أمريكا ."

" لكي يصبح وغداً بالتمام والكمال ؟ وتظن أنّ السفرة لا تكلف شيئاً ؟ لا ، عليه أن يبقى هنا إلى أن يتمكّن من أن يتخلص من مقالبه . فالمرء قد قام من جديد بأفظع من ذلك ."

" أجل ، لكن كيف ؟"

" بعد موافقتك أريد أن أرى ما ينبغي القيام به . سنحتاج إلى الصبر . دعه لي أنا !"

كان ما تمّ الاتفاق عليه ، إذ أنّ رب البيت لم يدافع عن نفسه . ومن غير أن تقول أي شيء آخر استشعر هو معنى هذه الاتفاقية .

قالت :" تركته ينحط ويفسد ، وأنا أريد أن أداويه من جديد ، أما أنت فانفض يديك منه ."

في اليوم التالي استدعت الابن المنتظر بملء الخوف والقلق وبلغته قراراتها .

قالت :" تشاورت مع أبيك . وأنا لا أعتقد في عملية نظمك للشعر اعتقاداً صحيحاً . لكن لكي لا يمكنك القول إننا حلنا بينك وبين حظك بالهوة ، فلك أن تشاء مرة أخرى ، ولكن للمرة الأخيرة ! وفي وسعك أن تكتب الشعر إذاً هذاالخريف بقدر ما تشاء . نحن الآن في تشرين الأول ، وتستطيع حتى الربيع أن تؤدي شيئاً ما . ولكن إذا ما

كان عديم النفع والفائدة كان لهذا التسكع نهاية وعليك أن تؤمن بذلك في نهاية الأمر وتبدأ عملاً محترماً . هل تضنيك الحال هكذا ؟"

ارتاح للأمر ولم تفته عبارات الشكر . فقد خفق قلبه من الابتهاج أنه لم يعد يحيا في السر حياة شاعر ، بل على نحو مسموح ومعترف به . زال عنه ضغط الخوف والشعور بالذنب ، وتنفس من جديد نسيم الحياة المشروع بعد أن تمشى زمناً غير قصير على أرضية زجاجية غير سميكة لوجود صوري عديم الحقوق . وأمل الآن في تحفز جديد وانتظر بسرور لأن يكدّ ويجدّ . إذ أنه ما من أحد يؤثر الحديث عن العمل إلا الشعراء والفنانون وما شابههم من تنابلة . صعد السلم الضيق إلى غرفته فرحاً جذلان وارتمى في المقعد المريح وهو يتنفس الصعداء ، أشعل غليوناً ومد يده إلى " الليالي البنفسجية " ، أحد كتبه المفضلة الذي تعمق بمتعة في أبياته الغامضة غير المقفاة .

كان وادي الأرواح المتقعة في أثناء ذلك لا يزال دفتراً سميكاً (من قطع الربع) فيه أوراق بيضاء . وتحاشى الشاعر أن يدنّس هذه المساحة البيضاء المنتظرة . ينبغي ألا يتخذ مكانه عليها إلا شيء نفيس ممتاز ، وعلى ملامح أرواح ممتقعة أن ترتجف من فوقها مثل غيوم خريفية ، رقيقة وداكنة ، بالتناوب مع أحلام ذات نفحات عميقة متوهجة توهج الألوان بأسلوب غابرييل دانونزيو الذي مثل لكارل أويغن منذ مدة دور الوسيط للحضارة الرومانسية . هو نفسه لم يحالفه الحظ قط أن يرى إيطاليا أو الأعمال الفنية الإيطالية ، إلا أن قراءة هؤلاء الإيطاليين كانت

قد ربّته بحيث إنه كان في مقدوره أن يستعمل من غير عناء تشبيهات وصوراً مثل " نبيل نبل حركات إحدى صور مريم العذراء لكارلو كريفيللي " أو "جريء مثل شكل بنفيتيو تشيلليني الإلهي" أو "ابتسامة لها حلاوة ليوناردية " وهكذا جمع في سهولة ويسر مجال حضارات قديمة وأجنبية ، وأضفى على أسلوبه تارة أسلوب دانونزيو وتارة النضج الذابل لهوسمان ، وتارة لون الحكايات الحالم الخاص بمتريلينيك أو حلاوة هوفمانستال الرقيقة . قليل من الوقت أيضاً ، قليل من النضج ، ولا بد أن ينشأ عن ذلك شيء ساحر سحراً خلاباً .

انتظر وقرأ في كتبه ، داعب الورق الفارغ وجلس في استعداد ليصاحب الأرواح المتقعة في وقار ومهابة عبر بلدان الأحلام الرمزية . فعليها أن تتكلم عن كل شيء جميل وبعيد وغريب عجيب ، وأن تتذكر كل ما أثّر في ليالٍ موحشة في الروح المرتعشة لحب جمال وفتنها وجعلها حزينة . ومن على الجدران أطلت بشوق وتبريك سلسلة الكتب وغلايين التبغ وصورة الشاعر مع قائد المرتزقة . وبين الحين والآخر بدا له كما لو أن هذا كله أشياء كان يمكن التغلب عليها ، لا بل تجاوزها . ومن ثم تحسس شعره برفق بيده اليمنى وأخفض بصره مفكراً مبتسماً وحلم بالساعات الرائعة الغنية الخلاقة التي سيدرك فيها في رمز الأرواح المتقعة كل ما هو عجيب غريب ومدهش بديع من عالم الجمال ويبدعه في أشكال نبيلة .

بعد ساعة مثل هذه كان يتضاعف خزيه دائماً كلما كان عليه أن

يواجه في الدكان ، حيث أراد أن يتزود بأي شيء منعش كان ، نظرة أبيه أو أمه العاتبة الزاجرة وينسحب فاشلاً خائباً أو ينتزع بضع سجائر أو ما شابه ذلك بتضرع طويل . على أنه استطاع أن يرضى بصورة دائمة تقريباً بهذه الأمور المزعجة في خضوع ورقة هدوء أو أن يستعمل لاشباع حاجاته دقائق غيرمراقبة .

جلب تشرين الثاني سلسلة من الأيام الزرقاء المشمسة وعلى أطراف غابات التنوب تألقت شجيرات مورقة صفراء ألقاً أحمر دائماً . وفي هذه الفترة بدأت " الهاوية " تطالب قراءها بتجديد سريع لاشتراكاتهم وهذا ما أسفر عن محاورة بين الابن والأم كان له فيها الطرف الأقصر بحيث إنه كان عليه أن يوطّن النفس على التخلي مستقبلاً عن العزاء بأن يرى نفسه دائماً تحت الضغط . ثم جاء مطر شديد دام أياماً ، وذات صباح غمر الشجيرات العارية من الأوراق في الحديقة أول صقيع خفيف .

ما إن رأى الشاعر هذا حتى نزل إلى القبو وأتى بمنقل مليء بالفحم الحجري وحضن خشب . وكرر هذا بعد العصر ولمدة ثمانية أيام مرتين في اليوم ، إلى أن دخلت السيدة آيزيلاين إلى الحجرة ذات مساء بينما كانت النار في المدفأة تقرقع وتطقطق .

قالت مشيرة إلى المدفأة المتوهجة : " أنت مجنون ، لا يمكن للمرء أن يشعل المدفأة هكذا إلا في درجة حرارة ١٠ تحت الصفر . وهذا أيضاً بهذا الشكل عادة طلابية . أغلب الظن أنك لا تعرف كم يكلف هذا

الفحم ؟ هناك وجب علينا أن نكسب كل بفينيك بعرق الجبين وأنت تحرق هذا هنا بالأطنان ."

كان كارل أويغن قد نهض ونظر إلى الجانب الآخر .

تابعت قولها : " كما أن التدفئة المبالغ فيها غير صحية أيضاً . لك الا تحس بالبرد ، لكن لا تحرق الثلاثة أضعاف مثل الناس الآخرين . وفي المستقبل ستجد كل صباح منقلاً مليئاً بالفحم والخشب الضروري لذلك جاهزين للاستعمال . ويكفيك هذا ، إذا ما تعقلت . أما الجلب الذاتي فيجب أن يتوقف ."

كانت تصورات الابن خائبة وبقي في الغرفة متذمراً . استعمل طوال أربعة وعشرين يوماً مؤقتاً المخزون الذي تم كيله ؛ وبما أنه تعود أن يدفئ الغرفة أكثر من اللازم ويسهر الليل وهو يقرأ فلم يكفه الفحم على الإطلاق . ذات مرة صباحاً حين ظن أن البيت كله يغط في النوم نهض مرتعشاً وتسلل إلى القبو فقد هاله وأغاظه أن يجد غرفة الفحم الخشبية مقفلة إقفالاً جيداً ، لا بل إن حيرته كانت أكبر حين رأى في أثناء صعوده الدرج أن أمه كانت تقف في الباب والتي صبحته بالخير . نادت مبتسمة :" هل تتحرك قليلاً ؟ أجل ، أجل ، النهوض باكراً مفيد للصحة . "

قال متوسلاً :" يا أمي لا يكفيني هذا القليل من الفحم . أضيفي عليه بضعة رفوش ."

كان الجواب :" آسفة ، آسفة أيها السيد الشاب . من لا يكسب

يجب أن يتمكن من التوفيرعلى الأقل . وإذا ما احتجت إلى المزيد فأنت تعرف طريقك إلى الغابة حيث أكثرت وأنت صبي من تجميع أكواز التنوب . فإذا بكّرت هكذا في النهوض كل صباح مثل هذا اليوم وعوض عن أن تذهب إلى القبو تستطيع أن تجمع بسهولة ويسر ملء سلة أو سلتين . فالناس الفقراء لا يدفئون الغرفة بشيء آخر ."

في الصباح التالي طال بقاؤه في السرير رغماً عنه . وفي اليوم الذي أعقب هذا نهض صباحاً في هدوء وتناول كيساً ومضى إلى الغابة . وشقّ الجمع عليه كثيراً ، ولكن بعد ساعة كان الكيس قد امتلأ واستطاع أن يحمله إلى البيت ، قبل أن تدبّ الحياة في الأزقة . من هذه اللحظة صار يذهب يومياً ، والأم تصرفت وكأنها لا تأبه لذلك . وسرعان ماعرف في الغابة الأماكن الجيدة وتجنّب الغابات الصنوبرية والأشجار القائمة الفتية وآثر غابة التنوب الهرمة حيث امتلأ الطحلب السميك بالأكواز . وفي أثناء ذلك كان يحس بالدفء دائماً بحيث إنه قلما احتاج بعدذلك إلى التدفئة . كان يستمتع بنسيم الصباح الخريفي الخشن بشكل ملحوظ وتعلم تدريجياً ، ولأول مرة ومنذ زمن التلمذة أن يلتفت إلى الغابة من جديد أيضاً ، رأى الشمس تصعد من بين الضباب ، واعتاد أن يلقي بالاً إلى الطقس ، فتارة كان يطارد أرنباً وتارة أخرى كان يحاول أن يمسك دجاجة برية نائمة ، وبما أنه كانت له صلة بالأكواز الملعونة فقد تعرف عليها تدريجياً وفق الشكل والأصل وتعلم أن يميز أكواز التنوب السوداء الغنية بالصمغ عن الأكواز الخفيفة الجافة ،

وأن يميز أكواز التنوب الأبيض عن التنوب الأحمر . في البداية كان يختبئ كلما جاءت امرأة مسكينة أو أقبل حارس الغابة أو فلاح ، وشيئاً فشيئاً تناقص خجله ، وأخيراً صار يحمل إلى البيت عند الضرورة ، ولو على مضض أيضاً ، كيسه أمام عيني كل إنسان .

وجاء يوم ، وكان هذا في تشرين الثاني أيضاً ، عندما صرف ما تبقى معه من نقود من أيام العز . وتوجه إلى أمه متهيباً خجلاً طالباً منها القليل من مصروف الجيب .

سألت :" إلام أنت محتاج ؟ لديك كل ما هو ضروري ."

الحقيقة ليس هو في حاجة إلى شيء ، ولكن لا بد للمرء في كل الأحوال أن يكون معه في الجيب بضعة قروش .

" هكذا إذاً ." أومأت الأم ." أمن أجل كأس جعة أو شيء من هذا القبيل ، أليس كذلك ؟ هذا صواب ، ولكن للأسف لم يبق معي قرش واحد لمثل هذه الأمور ، أما إذا بقي لديك إلى جانب نظم الشعر نحو ساعة فراغ فتستطيع أن تكسب بسهولة بعض الشيء ، ولقاء كيس أكواز تنوب تأتي به إليّ أعطيك خمسين بفينيكاً . أو إذا أردت أن تحزم غداً صباحاً الصناديق مع أبيك تستطيع أن تكسب ماركاً واحداً أيضاً ."

وافق ، وكان إذا شرب مستقبلاً ربع ليتر في حانة النسر أو النجوم بنقوده التي كسبها أو شارك بلعبة القناني الخشبية ، لذّ له ذلك أكثر من ذي قبل في حفلة شرب .

قبيل عيد الميلاد سقط قليل من الثلج ، ووقع إثر ذلك صقيع بحيث إن شغل الغابة توقف فجأة . وأوشك الشاعر أن يتأسف على العمل الصباحي المألوف ، ولكن حين جاء عيد الميلاد ومرّ ، أخجله أن ينتبه إلى الكيفية التي مر بها الوقت بسرعة وأنّ الضرورة تقضي الآن أن ينهض بشعره على نحو جدير . فحزم الصناديق وجلب الأكياس وتقطيع الحطب وما شابه ذلك ، هذا كله كان قد صرفه عن ذلك في الفترة الماضية .

حين تناول من جديد أول مرة وادي النفوس المتعمقة لم يعد يعجبه العنوان ذلك الإعجاب التام ، حاول إيجاد عنوان جديد ، على أنه لم يخطر بباله أي عنوان . تنقل وهو مستاء ضجر من مكان إلى آخر ، وتكرر ذهابه لتناول كأس بيرة أو للعبة البليارد أكثر من المعتاد . وعلى هذا ما لبث أن رأى نفسه مرة أخرى من دون مصروف يومي . ساعد هذه المرة في كتابة حسابات السنة الجديدة وجلس ثلاثة أيام عند الأب في المكتب . وحصل لقاء ذلك على بضعة ماركات ، على أن أشعاره لم تعد عليه بشيء ، بل إنه كان غريباً أن هذه الأفكار لم تأت كما كان متوقعاً بعد كل عمل من هذا القبيل . وعلى حين كان يعيد قراءة صفحة الإهداء مرة ثانية وأراد أن يطرب لذلك ، حصل أنه كان عليه أن يتذكر فجأة أن المدير الفني سبيلبيغر ما زال مدينا لأبيه بالحساب نصف السنوي الأخير . هل يصح أن ينذر الرجل ؟ وعلى المائدة تكلم مع الشيخ عن ذلك ، إلا أنّ هذا كان مزمعاً على الانتظار .

أحس كارل أويغن في يأس إحساساً تكرر بصورة دائمة أنه في كل خطوة خطاها في الحياة اليومية كان يبتعد أكثر فأكثر عن شعره ويضرّ به . وأجبر نفسه عنوة وكتب بضع صفحات ، إلا أنها لم ترضه . كانت اللغة متخلفة وباردة ، ولم تسر فيها حياة . رمى الدفتر بامتعاض في الدرج وذهب للعب الورق في " الهيشت " وأوشك أن يخسر وعرض نفسه مرة أخرى للعمل في الدكان ليومين .

ومن ثم لجأ إلى كتبه التي كان قد أهملها في الفترة الأخيرة بحثاً عن السلوى ، وشهد لأول مرة أنها قد تخلت عنه ولم تطيّب مزاجه ، لا بل إنها بدت له باعثة على الملل نوعاً ما . كان سيحتاج الآن إلى مؤلف أدبي ربما استوعب ضائقته الحالية وعبر عنها وجعلها تظهر على نحو مريح بمظهر أفضل . على أن دانونزيو تأمل في أحجار كريمة يونانية ذات نقوش غائرة ، وربت على أكتاف بارونات جميلة . وشمّ أوسكار وايلد زهوراً غريبة دخيلة وحلل حياته العصبية ، وتغنى شاعر قائد المرتزقة "بالساعة الزرقاء " وبصبي يعزف على القيثارة .

ساوره أول شعور ضعيف في مرارة بأن هذه الكتب الجميلة كلها لم تكن إلا كتباً ولم تكن إلا ترفاً لشعراء وأغنياء ومبسوطين ، إلا أنها لم تكن لها أي صلة بالحياة وبضائقته ، ولم تشأ أن تكون لها صلة بذلك ، فسكان الأولمب إلى موائد ذهبية لا تصل إليهم أنّة من تحت من وسط فوضى البشر . كانت جميلة حين استمتع بها في أزمان مترفة كسلى . والآن ، وبما أنّ الحياة مدت يديها إليه فإنها صمتت

وأبت أن تعرف أي شيء عنه . وخطر بباله شاعر "الكون " الذي لم يعد يكتب ثلاثيات ، بل تقارير رياضية لصحيفة يومية . ورمى بالكتاب الذي كان ممسكاً به لتوه ، إلى الحائط في غضب وأسى .

في شباط بادرت السيدة آيزيلاين بأول سؤال حذر عن تقدم الشعر . كان كارل أويغن قد دحرج لتوه برميل بترول إلى داخل البيت . تهرب من السؤال . وحين تساءلت بدافع حب الاستطلاع لتعرف العنوان على الأقل ، زحزح ودفع البرميل باستياء ، و غمغم :" العنوان آخر شيء يضعه المرء ." إلا أنه احمرّ في أثناء ذلك .

في نهاية آذار طرقت الأم الباب عليه مرة ثانية ، وتقدمت صوب الشاعر إلى مكتبه وطلبت أن ترى مؤلفه .

قال بنبرة غيرمريحة :" لم يتمّ بعد ."

أصرّت الأم : " إذاً هو نصف جاهز . لن أغادر الحجرة حتى أراه . تعقّل فأنت تعرفني ."

الحق أنه كان يعرفها . ومع هذا تردد غير قليل قبل أن يسحب الدرج ويضع الدفتر أمامها .

" وادي النفوس المتقعة ! أبصر ! ها إنّ العنوان موجود ، وطبيعي أنه عنوان مضحك ."

أتى بعدها نحو عشر صفحات مكتوبة ، إلا أنّ معظم ما كتب عليها كان قد حذف مرة ثانية .

سألت بهدوء : " هل هذا كل شيء ؟" .

" هذا كل شيء . . . أردت-" .

" دعك من ذلك ، لا تهتمّ ."

وبما أن الأم رأت وجه ابنها الأليم ضبطت نفسها وأطلقت بعدها على السلم ضحكة قوية .

حين سألت الشاعر فيما بعد رأساً إلى متى سيكون لعمله الأدبي أمل في أن يكون جاهزاً ، طأطأ رأسه ، واعترف :" أعتقد أنه لن ينتهي أبداً ."

في نيسان دخل كارل أويغن إلى حانوت أبيه . في السنة التالية ذهب متطوعاً إلى متجر خارجي كبير ومن هناك عاد ومعه وثائق جيدة ، وبعد عدة سنوات أخرى ، وحين أخذت صحة السيد العجوز تتدهور ، تسلّم الدكان وحده ولم يترك للأب إلا المراسلات .

في أثناء تلك السنوات انسلخ عنه بكل هدوء ما يمتّ إلى العبقرية بصلة انسلاخاً تاماً مثل جلد أفعى ، وتبين أن أشياء موروثة من الأب والأم كانت مستترة تحت القشرة . فقويت هذه الآن وسرعان ما ظهرت على السطح . وكما كان الألم الوجودي بالمطالعة ونظم الشعر فإنه بربطات العنق وتصرف العبقري كانت قد اختفت خطورة المظهر الزائفة وأهميته ، وكانت التفاحة العجيبة الغريبة قد سقطت إذاً بالقرب من الجذع . فالشاب المستيقظ من الحلم بشوكة العمل اليومي الناعمة فهم تدريجياً أن نضجه المبكر الوهمي كان أقرب إلى أن يكون

وثباً في الهواء طويلاً طولاً غيرعادي خاصاً بالصبا والشباب إلا أنه قام بالعمل والعودة بدقة مضاعفة .

مـضى الوقت ، تزوج وصـار أباً ، ولم تكن أحـوال المحل بسـيـئـة وكـانت ديونه كلهـا قـد تسـددت من زمن . وبين الحين والآخـر كـان يتناول في المساء أحد كتبه القديمة ويقلب صفحاته ويهز الرأس متأملاً ثم يعيده إلى مكانه . على أن صورة الشاعر كانت لا تزال معلقة على الحـائط : الشـاب في ربطة عنق مـلائمـة للزي كـان ينظرنظرة الإباء والازدراء من وراء الإطار ووراءه استوى قائد المرتزقة المقدام رابط الجأش على حصانه المعدني .

(١٩٠٣)



من داخل الورشة

حدّث صديقي :

بينما كنت في الورشة الميكانيكية بصفة تلميذ متمرّن ، كان هناك يوم غريب في ورشتنا . كان هذا حوالي بداية الشتاء في يوم اثنين ، وكنا ثلاثتنا مثقلي الرؤوس إذ أنّ زميلاً لنا من السباكة كان قد أقام يوم الأحد حفلاً لوداعه ، وكان الوقت قد تأخر وكانت حفلة بيرة ونقانق وكعكة . الآن ويوم الاثنين وقفنا عند ملازمنا مثقلي الجفون وفي ملال ، وما زلت أعرف كم حسدت الصانع الثاني الذي كان كان قد شغّل قضيباً ملولباً كبيراً على مخرطة انكلزية ؛ وكثيراً ما نظرت صوبه وقد استند إلى القضيب وزرّ عينيه وقام بالعمل وهو بين اليقظة والنوم . الشيء الذي عذّبني هو أنّ عملي كان شاقاً وحساساً ، ألا وهو إعادة برد قطع آلة ملساء لامعة ، وكنت في أثنائها أحتاج كل دقيقة إلى العيار وكان عليّ أن أكون في أثناء ذلك محترساً كلّ الاحتراس بصورة دائمة . آلمتني عيناي ، وكانت ساقاي متعبتين ومرتخيتين جداً بحيث إنني كنت أغيّر الوقفة بصورة دائمة وكنت أستند مراراً وتكراراً بالصدر

إلى الزر العلوي ليد الملزمة . ولم تكن حال الآخرين بأحسن من حالي . أحدهما رفع شفرة منشار حديد ثلاثة أرباع الساعة ، وفريتس ، أصغرنا جميعاً ، كان قد أسقط لتوه الازميل الذي أراد أن يشحذه ، في حوض المجلخ وجرح إصبعه في ذلك وكنا قد ضحكنا عليه ، إلا أنّه لم يكن ضحكاً من القلب ؛ كنا كلنا متعبين غاية التعب ومعتلي المزاج .

على أن صداع الخمر البسيط كان أقلّ الأشياء التي عرفناها أو شعرنا بها كلنا ، وإن لم يقل أي واحد منا شيئاً عن ذلك . وكم من المرات كان الجو في الورشة هائجاً مائجاً في الصباح بالذات بعد حفلة سكر . ومع أن المعلم كان غائباً ، إلا أنّ المرء لم يسمع هذه المرة التعريض المألوف للأعمال البطولية وللنكات الأمسيّة . فالجميع لم يحرّكوا ساكناً وشعروا أنّ شيئاً ما مزعجاً قد اقترب . كنا مثل نعاج إذا ما اسودت السماء وأخذت ترعد . وهذا الاحساس بالخوف والخطر انصبّ على هانّيس ، أكبر مساعدينا . ففي غدواته وروحاته كانت له مشادات مع المعلم ، وبعبارة أدقّ مع ابن المعلم الشاب الذي كان قد تولى حديثاً الإدارة وحده تقريباً . ومنذ بضعة أيام استطاع المرء أن يشعر أن زوبعة عاصفة كانت تهدد ؛ فالجو في الورشة كان حاراً خانقاً ومكدّراً ، لم ينطق المعلم ببنت شفة والصبيان المتمرنون كانوا يتسللون من حوله في حياء وخوف كما لو أنّ يداً ممتدة كانت تلوّح بصورة دائمة فوق رؤوسهم .

كان هانّيس أمهر الميكانيكيين الذين عرفتهم ، فقد اشتغل عندنا منذ حوالي سنة . وفي هذا الوقت ، وبخاصة ما دام المعلم العجوز الآمر الناهي ، لم يتقن عمله فحسب ، بل كان يستعان به أيضاً في كل حالة معقدة وجعل من نفسه إنساناً لا يستغنى عنه . في البداية تخاصم مرات ومرات مع المعلم الشاب الذي عارضه في البداية مرات كثيرة وأراد ألا يترك إي صانع مساعد يتحكم به أو يرفع رأسه أمامه ، وبخاصة لأنّ هانّيس كان يرفع الكلفة بين وقت وآخر ، ولم يكن حذراً في الكلام على الاطلاق . إلا أنّ الرجلين اللذين أنجزا كلاهما في مهنته أكثر من الشيء العادي بدأا يفهمان بعضهما بعضاً نوعاً ما . إذ أنّ المعلم الشاب كان يعمل في الخفاء على اختراع ، وكانت المسألة مسألة آلة صغيرة للتوقيف الآلي لآلات التريكو الكبيرة في مدينة كيمنيتس ، والتي كان الكثير منها يعمل في مدينتنا ، وأعتقد أنها كانت شيئاً عملياً جيدّا . وقد قام بالتجارب على ذلك فترة من الزمن وكثيراً ما أمضى في ذلك أنصاف الليالي وحيداً في الورشة . أما هانّيس فقد كان قد استرق السمع إليه ، وبما أنّ هذا الشيء كان يهمه ، فقد توصل إلى حل آخر عرضه على المعلم الشاب . ومنذ ذلك الحين عمل كلاهما معاً كثيراً وخالط كل منهما الآخر ، مثل صديقين إلى حد ما . ثم وقعت جفوة من جديد ، إذ أنّ المساعد كان يقوم بأشياء لا يجرؤ عليها آخرون ، فبين وقت وآخر كان يرفع الكلفة ويتخلف ساعات

أو نصف النهار أيضاً ، وكان يأتي إلى المحل بالسيجار وما شابه ذلك ، مجرد تفاهات كان فيها معلمنا غاية في الصراحة ولم يحملها دائماً من دون تأنيب . على أنه لم يعد يقع شجار على الاطلاق ، ومرت فترة خيّم فيها على البيت سلام تام إلى أن بدأ من جديد منذ عهد قريب توتّر أقلقنا جميعاً . فقد زعم البعض أنّ المسألة مسألة فتاة ، واعتقدنا أنّ هانّيس طالب على الأرجح بحقه في الحيازة المشتركة للاختراع ، وأنّ المعلم ردّ ذلك . إلا أننا عرفنا بالتأكيد أنّ هانّيس صار يتقاضى منذ أشهر أجراً أسبوعياً أعلى بكثير من اللازم ، فكانت له مع المعلم الشاب قبل ثمانية أيام في حجرة التشكيل مشادة كلامية محتدة وعالية جداً وأنّ كلاً منهما كان يعبس في وجه الآخر منذ ذلك الحين وكانا يتجنبان بعضهما بعضاً بصمت حانق .

إذاً كان قد خاطر هانّيس ألا يعمل اليوم ! وإلى زمن طويل لم يعد يحدث عنده شيء ، وعندنا نحن الأصغر سناً لا شيء البتة ؛ فأي واحد منا كان سيطرد بدون وداع إن لم يعمل .

إذاً لم يكن يوماً طيباً . فقد عرف المعلم أننا أحيينا حفلاً ليلياً وراقبنا مراقبة شديدة . وما كان لغيظه من تخلف المساعد أن يكون ضئيلاً ، وفضلاً عن ذلك كان هناك شغل مهم . لم ينبس ببنت شفة ولم يظهر أي شيء ، إنما كان ممتقع الوجه وكانت خطواته مضطربة ، كما أنه نظر إلى الساعة أكثر من اللازم .

" هيه أنت ، ستكون هناك قذارات" ، همس لي المساعد الثاني حين مرّ بمكاني إلى الكور .

قلت أنا : " ولن تكون بسيطة ."

هنا صرخ المعلم صوبنا متسائلاً عما يبعث على الثرثرة . كان صوتاً غاضباً حانقاً .

قال كارل :"سيكون مسموحاً أن نسأل بعضنا بعضاً شيئاً ما ." ولكن حين اقترب المعلم خطوة ونظر إليه نظرات تقدح شرراً انكمش مرتعداً ومضى إلى النار .

انتهت ساعة الغداء ، وشيئاً فشيئاً مرّ أيضاً العصر الطويل ، وطبيعي ببطء مرعب ، إذ أنّ الغيظ المكظوم حوّل المعلم إلى جار عمل لا يحتمل . لم يتردد علينا مع أنه كان يراقب أشغالنا بدون انقطاع ؛ لا بل إنه بدلاً من أن يأمر أحدنا إلى المرزبّة راح يطرق وحده قطعة أكبر ، وفي أثناء ذلك تصبب وجهه عرقاً وسال محدثاً أزيزاً على السندان . شعرنا كأننا في المسرح أمام مشهد مرعب أو كأننا أمام زلزال .

في الرابعة وعلى حين كنا نأكل سندويشة وجبة العصر قام المعلم بشيء غريب . توجه إلى مكان هانّيس الشاغر عند منضدة التشغيل وأخذ مفتاحي براغي وفكّ بجهد بالغ الملزمة الثقيلة التي كانت قد احتلت مكانها هناك منذ سنوات كثيرة ، وبالتأكيد كانت قديمة قدم منضدة التشغيل ، وربما قديمة قدم الورشة . ماذا خطر ببال الرجل بهذا

العمل الغريب غير المجدي ؟ بدا كما لو أنه لم يعد يرغب في أن يترك مساعد معلم الحرفة يدخل إلى الورشة ، ولكن الآن وبهذا العمل الكثير كان هذا شبه محال . بدا مخيفاً إلى حد ما أن ترى كيف اهتدى هذا الرجل العملي العزوف عن كل عبث إلى مثل هذا العمل الرمزي وهو ساخط .

في الخامسة مساء اعترتنا رجفة شديدة حين انفتح باب الورشة ودخل هانيس بارتياح تام ، وهو بعد في ثياب سهرة الأحد ، القبعة في القفا واليد اليسرى في جيب السراويل وهو يصفّر صفيراً خافتاً . وتوقعنا في وجل أن يخاطبه المعلم الآن ويوبخه ويصرخ في وجهه أو ربما أن يضربه . على أنه لم يتمّ شيء من هذا ، بل بقي واقفاً حيث كان ولم يتابع الداخل ببصره ، بل عضّ على شفتيه بشدة كما اتضح لي . لم أفهمهما كليهما ، لم أفهم هانيس على الأقل ، إلى أن لاحظت أنّ هذا كان ثملاً بعض الشيء . القبعة على الرأس واليد اليسرى في الجيب ، غمغم في الدخول حتى قبل الوصول إلى مكانه . هنا بقي واقفاً ورأى أنّ ملزمته كانت قد رفعت من موضعها .

قال بصوت عال :" من فعل ذلك هو وغد ."

ولكن ما من أحد أجاب . وبعدها خاطب أحدنا وحكى له نكتة ، على أن هذا احترس ولم يجرؤ على أن يرفع بصره أو أن يضحك . عندها ذهب هانيس إلى زاوية الورشة المحجوزة حيث كانت الآلة

الصغيرة الجديدة التي كان قد صممها هو والمعلم ؛ كانت جاهزة إلا من أشياء صغيرة بسيطة ومثبتة مؤقتاً بالقلاووز إلى قضيب حديدي . نزع قماش الكتان المفروش فوقها ونظر إلى الآلة الصغيرة ملياً ولعب بكلتا يدي الآلة الرشيقتين وتحسس بيديه بضعة براغي . ثم شعر بالملل فترك الآلة مكانها من دون غطاء وتوجه إلى الكور ، أوقد نشارة خشب وأشعل سيجارة . وأبقى هذه في فمه تدخّن وغادر الورشة بنفس الخطوة المتسكعة المرتاحة التي كان قد جاء بها .

حين كان في الخارج ذهب المعلم وبسط القماش مرة ثانية فوق الآلة . لم ينطق بكلمة وكان بالنسبة لي لغزاً هذا المساء . ولم يجرؤ أي منا على أن يأمل أن تنتهي المسألة على هذا النحو . أما أنا فقد أصابتني مصيبة ؛ فقد انكسر معي مثقاب لولبة ممتاز في الحديد . ومن هذه اللحظة لم أخف إلا على نفسي ولم أعد افكر بشيء آخر . كان عذاباً والوقت يمضي متثاقلاً حتى الانتهاء من العمل ، وما من مرة مرّ المعلم بالرف الذي كانت فيه مثاقب اللولبة مرتبة بحسب الأرقام إلا وشعرت أنّ الجو حار جدّاً .

في يوم آخر ، ومع أني شعرت بوخز الضمير بسبب المثقاب المكسور طغت عليّ أيضاً الفكرة المخيفة كيف ستسير الحال مع هانّيس . جئنا إلى المحل أنشط بقليل وأكثر ارتياحاً من أمس ، على أنّ حرارة الجو الخانقة لم تزل ، وشلت الحنجرة عن الأحاديث الصباحية المألوفة عادة

وعن الدعابات . كان هانّيس قد جاء في الوقت المعهود ، صاحياً وفي لباس الميكانيكي الأزرق على الوجه الأكمل . كان قد وجد ملزمته تحت منضدة التشغيل ، أعاد تثبيتها بهدوء في المكان القديم . أحكم شدّ الصامولات ودقّ وهزّ إلى أن أخذ كل شيء مكانه الصحيح ، ومن ثمّ جلب الشحم ودهن البرغي جيداً وشغله للتجربة عدة مرات ثم بدأ بعد ذلك عمله .

لم يمض من الوقت إلا نحو نصف ساعة حين جاء المعلم الشاب .

قلنا : " صباح الخير" ، وأومأ بالتحية . هانّيس وحده لم يصبّح . عندها تقدم من هذا ونظر إليه ملياً ، على حين تابع هذا البرد بهدوء ثم قال ببطء : " منذ متى عادت الملزمة إلى مكانها؟"

"منذ نصف ساعة " ، ضحك مساعد معلم الحرفة ضحكاً مفتعلاً ملؤه العناد وربما أيضاً القلق .

قال المعلم : " هكذا ، ومن طلب منك أن تعيدها إلى مكانها ؟"

" لا أحد . أنا وحدي أعرف ما ينبغي أن افعله ."

صاح المعلم الآن بصوت أعلى بعض الشيء : " في هذه الورشة ليس لك شأن في أي شيءٍ ، من اليوم وصاعداً لم يعد لك شأن . مفهوم ؟"

ضحك هانيس . " أتظن أنك تستطيع طردي ؟"

امتقع وجه المعلم وكوّر قبضته .

" منذ متى تخاطبني أنت بالكاف ، أيها الوغد ؟"

" وغد بالذات -"

نسي المعلم نفسه . كان في الإمكان سماع ضربة وصرخة قصيرة ، ثمّ ساد صمت رهيب في الورشة كلها ، إذ أنّنا تركنا كلنا العمل حيث هو واستمعنا بارتياع .

كان المعلم قد سدّد لكمة إلى وجه هانيس . هنا وقف كلاهما لصق الآخر ، لدقائق ، بلا حراك ، وتورمت بشرة المضروب حول العين بلون ضارب إلى الزرقة . كان كلاهما قد مدّ قبضته قليلاً إلى الأمام ، وكلاهما كان يرتعش قليلاً ، وبان الارتعاش على المعلم أكثر من غيره . فتحنا أعيننا ، ولم يخطر ببال أحد أن ينطق بكلمة واحدة .

في هذه اللحظة حدث مثل البرق أن اندفع هانّيس إلى كور الحدادة وخطف بكلتا يديه إحدى المرزبّات الثقيلة . وفي اللحظة نفسها وقف مرة ثانية أمام المعلم ملوّحاً دائماً بالمرزبة ونظر إليه بطريقة أفزعتنا فزع الموت .

قال المعلم :" هيا اضرب إن كانت لديك الشجاعة ." على أنّ لهجته لم تنمّ عن صدق ، وحين همّ هانيس بالضرب تراجع المتضايق المكروب من أمامه ، خطوة خطوة ، وهانيس وراءه دائماً مسدداً بالمرزبة الضخمة . صار المعلم باهتاً كالميت ، وسمعه المرء يلهث لهاثاً عالياً . استمر هانيس في دفعه ببطء حتى الزاوية ، هناك وقف مدفوعاً إلى

الجدار ، بالقرب من آلته الصغيرة التي كانت قطعة القماش قد انزلقت عنها . بدا هانيس مخيفاً في غضبه ، وآثار اللكمة بجانب عينه ارتسمت في الوجه الابيض وجعلته أكثر خواءً . رفع الآن المطرقة قليلاً وعضّ على أسنانه وضرب - . أغلقنا كلنا أعيننا لحظة من الزمن . ثم سمعنا مساعد معلم الحرفة يضحك ضحكاً عالياً خبيثاً . كانت ضربته قد دوّت ، لكأنه كان على البيت أن يسقط ، ورفعها الآن عالياً ثم ضرب مرة أخرى . على أنّ كلتا الضربتين لم تكونا موجهتين إلى المعلم . فبدلاً من ذلك كانت الآلة التي هي اختراعه ، قد تحطمت تحطماً شنيعاً وصارت قطعاً مكسرة محنية مسطحة . عندئذٍ رمى هانيس المطرقة بعيداً وعاد ببطء إلى وسط الورشة ؛ هناك جلس بذراعين مشبوكين على السندان ، إلا أنه كان لا يزال يرتجف في ركبتيه ويديه .

تبعه المعلم أيضاً ببطء ووقف أمامه . بدا كما لو أنهما كليهما كانا منهوكي القوى ولم يعد لديهما أية حيلة لأي شيء .

هزّ هانيّس ساقيه ، وهكذا جلس أحدهما ووقف الآخر ، ولم ينظر أي منهما إلى الآخر ، وحكّ المعلم جبينه بيده المرة تلو المرة .

ثم تمالك نفسه فجأة وقال بصوت خافت جاد :" انهض الآن ، واذهب . أليس كذلك ؟"

قال مساعد معلم الحرفة :" أجل ، أجل ، طبعاً ." وأردف قائلاً : " إذاً ، وداعاً ."

" وداعاً ياهانّيس ."

خرج الآن بعينين متورمتين ، كانت اليدان لا تزالان سوداوين من الملزمة ، ولم نره مرة ثانية .

عـددت اللحظة مـواتيـة وتوجـهت إلى المعلم وقلت له إنني كنت كسرت أحد المثاقيب ، أحد المثاقيب المعتادة . انتظرت في خوف ووجل حسابي عنده . إلا أنه اكتفى بالقول :" إيّ رقم ؟"

همست :" ٣/٤ ,٣"

قال :" اطلب واحداً جديداً ." ولم يزد كلمة أخرى .

(١٩٠٤)



شهر تموز

لم يكن موقع البيت الريفي إيرلينهوف ببعيد عن الغابة والجبال في السهل العالي . كانت أمام البيت ساحة كبيرة مفروشة بالحصى كان يؤدي إليها الطريق العام . هنا كان في إمكان السيارات أن تمرّ حين كان يأتي زائر ما . وإلا فإنّ الساحة المربعة كانت دائماً خالية وهادئة وبدت بذلك أكبر مما كانت عليه ، وبخاصة في طقس صيفي جميل حين كان يملؤها ضوء الشمس المنهمر والهواء الرجراج الحار بحيث إنّ المرء لم يكن يفكر بتجاوزها .

كانت الساحة المفروشة بالحصى والشارع يفصلان البيت عن الجنينة . " جنينة " كان المرء يقول على الأقل ، إلا أنها كانت حديقة عامة كبيرة بما فيه الكفاية ، ليست عريضة كثيراً ، إنما عميقة ، فيها أشجار دردار ضخمة وقيقب ودلب وطرق ملتوية للمتنزهين ودغل من التنوب الفتي ومقاعد كثيرة للاستراحة . وتخلل ذلك تعاشيب مشمسة يدخلها الضوء ، بعضها كان عارياً وبعضها ازدان بأحواض زهور دائرية أو شجيرات زينة ، وفي حرية المروج الدافئة المرحة هذه كانت

شجرتان كبيرتان تنتصبان وحيدتين ملفتتين للنظر .

إحداهما كانت صفصافة . أحاط بجذعها مقعد خشبي قليل العرض وتدلت من حولها الأغصان الطويلة المتعبة الناعمة نعومة الحرير إلى الأسفل كثيفة جداً بحيث إنه كان في داخلها خيمة أو معبد وحيث رانت حرارة ضعيفة مستمرة رغم الظل الدائم والدغش .

كانت الشجرة الأخرى التي يفصلها عن الصفصافة مرج مسوّر وطيء شجرة زان نحاسي ضخمة . بدت من بعيد بلون بني غامق أقرب إلى السواد . ولكن إذا ما اقترب المرء منها أو وقف تحتها ونظر إلى فوق اتقدت أوراق الأغصان الخارجية كلها ، وقد غمرها ضوء الشمس ، ناراً أرجوانية دافئة خفيفة شعّت في وهج حبيس خافت خفوتاً مهيباً كما في نوافذ كنسية . كانت شجرة الزان العتيقة أشهر قطعة جمال وأغربها في الحديقة الكبيرة ، وكان في وسع المرء أن يراها من كل الجهات . كانت تنتصب وحيدة مكللة بالسواد في وسط المرجة النيرة ، وكانت سامقة بما يكفي لأن يرى المرء ، من أي موقع في الحديقة نظر إليها ، هامتها الدائرية الثابتة المقوسة تقويساً جميلاً في وسط المجال الجوي الأزرق ، وكلما كانت الزرقة أكثر ضياء وبهوراً كان سكون قمة الشجرة فيها أكثر سواداً ومهابة . كانت في إمكانها أن تبدو مختلفة جداً بحسب الطقس والتوقيت اليومي .

وكثيراً ما ظهر عليها أنها عرفت مبلغ جمالها وأنها لا تقف بدون

موجب وحيدة ومزهوة بعيدة عن بقية الأشجار . فقد تباهت ونظرت إلى السماء متجاوزة كل شيء ببرود . وكثيراً ما بدت أنها تعرف أيضاً تمام المعرفة أنها الوحيدة من نوعها في الحديقة وليس لها أخوة . ثم نظرت إلى جهة بقية الأشجار البعيدة وبحثت وكان بها شوق . في الصباح كانت الأجمل ، وكذلك في المساء ، إلى أن تصير الشمس حمراء ، لكنها بعد ذلك تكون قد خبت ، إذا جاز التعبير ، فجأة ، وبدا أن الليل قد حلّ قبل ساعة من حلوله في كل مكان . هذا المنظر الأكثر خصوصية والأكثر دكنة كانت قد اتسمت به في الأيام الممطرة . وعلى حين كانت الأشجار الأخرى تتنفس وتتمطى وتزهو مسرورة بالخضرة الأكثر سطوعاً ، انتصبت في وحدتها كأنها ميتة ، وقد بدت سوداء من القمة حتى الأرض . ومن دون أن ترتعش استطاع المرء أن يرى أنها كانت تحس بالبرد وأنها كانت تنتصب بانزعاج وحياء هكذا وحيدة من غير نصير .

فيما مضى كان المتنزه الذي تمّ إنشاؤه بانتظام عملاً فنياً دقيقاً . ولكن حين جاءت من بعد ذلك أزمان تكرّه الناس فيها انتظارهم الشاق وتعهدهم وتشذيبهم وما من أحد سأل بعد ذلك عن المتنزهات التي زرعت بجهد ومشقة ، اعتمدت الأشجار على نفسها . فقد تصادقت مع بعضها البعض وكانت قد نسيت دورها الدقيق المعزول ، كانت قد تذكرت في الضائقة وضعها الشجري القديم وركنت إلى

بعضها بعضاً مطوقة بالأذرع ومسنودة . كانت قد أخفت الطريق المستقيم بورق كثيف وضمتها إليها بجذورها الواسعة وحولتها إلى تربة شجرية مغذية وشبكت قممها بعضها ببعض وقوّت نموها ، وبدأت جماعات من الأشجار التي سمقت في همة ونشاط تنشأ في ظلها وملأت الفراغ بجذوع أكثر ملوسةً وألوان أوراق أكثر نصوعاً وغزت التربة البائرة ، وبالظل وتساقط الورق جعلت الأرض سوداء ولينة ودسمة بحيث كان للطحلب والأعشاب والشجيرات الصغيرة أن تنمو بسهولة نمواً بهيجاً .

حين أتى ناس فيما بعد مرة أخرى وأرادوا أن يستعملوا الحديقة السابقة للاستراحة والملهى أصبحت غابة صغيرة . كان على المرء أن يقنع . ولئن تم إصلاح الطريق القديمة بين صفّي شجر الدلب ، إلا أن المرء اكتفى بأن يقيم ممشى ضيقاً ومتعرجاً عبرالدغل وأن يغطي البقع الجرداء في الغابة بتعاشيب وأن يضع مقاعد خضراء للجلوس في أماكن جيدة . والناس الذين كان أجدادهم قد غرسوا أشجار الدلب على الجبل وقصوها ووضعوها كيفما كان وشكّلوها ، أقبلوا الآن مع أطفالهم إليها ضيوفاً وكانوا سعداء أن المجازات تحولت بالإهمال إلى غابة استطاعت أن تسكن فيها شمس ورياح وتغني فيها طيور ويسترسل فيها ناس في أفكارهم وأحلامهم وملذاتهم .

استلقى باول أبديريك في ظل خفيف بين الغابة والمرج وكان في

يده كتاب مجلد تجليداً أحمر وأبيض . تارة كان يقرأ فيه وتارة كان يتابع بنظره من فوق الأعشاب الفراشات الزرقاء المتطايرة . وقف هنا حيث عبر فريتيوف البحر ، فريتيوف العاشق ، سارق المعابد ، المنفي من وطنه . في الصدر ضغينة وندامة . ركب البحر اللامضياف ، وهو يقف عند الدفة ، عاصفة وتلاطم أمواج يضربان السفينة التنينية السريعة ، وحنين عميق يخضع الربان القوي .

فوق المرج رانت حرارة محرقة ، وغنّت صراصير غناء عالياً مدوياً ، وفي الغابة غنت العصافير غناءً أعمق وأعلى . كان رائعاً أن تنظر ، وأنت متمدد في هذه الفوضى الوحيدة من الطيوب والأنغام وأشعة الشمس ، إلى السماء الحارة بعينين مزرورتين أو تسترق السمع إلى الوراء إلى الأشجار المظلمة ، أو تتمدد بعينين مغمضتين وتشعر بالارتياح العميق الدافئ في أعضائك كلها . على أن فريتيوف ركب البحر ، وفي الصباح جاءه ضيف ، وإذا لم ينه اليوم بالذات قراءة الكتاب ، فربما كان الأمر عديم الجدوى من جديد مثلما كان في الخريف الماضي . كان قد استلقى هنا بالذات وكان قد بدأ بأسطورة فريتيوف ، وكان قد جاء زائر أيضاً ، وكان قد توقف عن القراءة . كان الكتاب قد بقي في مكانه ، أما هو فكان قد ذهب إلى مدرسته في المدينة وفكر بين هوميروس وتاسيتوس بصورة دائمة بالكتاب الذي تم الشروع به وما قد يحدث في المعبد للخاتم والتمثال .

قرأ بحماسة جديدة ، بصوت غير مرتفع ، وهبت ريح خفيفة من فوقه من خلال ذؤابات أشجار الدردار وغنت جماعات الطيور وطارت الفراشات الوهاجة ، بعوض ونحل . وحين أغلق الكتاب ونهض واقفاً كان قد فرغ من قراءة الكتاب ، وكان قد كساه الظل ، وعلى صفحة السماء الوردية انطفأ المساء . نحلة متعبة حطت على كمه خلت أنه يحملها . كانت الصراصير لا تزال تغني . توجه باول مسرعاً عبر الأدغال والدرب المشجر بأشجار الدلب ومن ثم عبر الشارع والدهليز إلى البيت . كان جميلاً أن يراه المرء في القوة اللدنة لسنه السادسة عشرة و كان قد نكس الرأس بعينين هادئتين ، وما زال ممتلئاً بمصير البطل الشمالي ومرغماً على التفكير .

الحجرة الصيفية التي كان المرء يتناول فيها الوجبات ، كانت في الخلف في أقصى مكان من البيت . كانت في الأصل صالة لا يفصلها عن الحديقة إلا سور زجاجي وبرزت رحبة مثل جناح صغير من البيت . هنا كانت الحديقة الأصلية التي كان يطلق عليها منذ القدم "على البحيرة" ، مع أنه كان بدلاً عن البحيرة غدير صغير متطاول بين الأحواض والحيطان الشبكية من الخشب والدروب وغراس الفاكهة . وكان السلم المؤدي من الصالة إلى العراء محاطاً بسور من الدفلى والحور ، وبالمناسبة لم يبد الجو " على البحيرة " ارستقراطياً ، بل بدا ريفياً على نحو مريح .

قال الأب : " إذاً غداً تأتي المصابيح ، وآمل أن تسرّ يا باول . "

" أجل ، فأنا فرح . "

" لكن ليس من قلبك ؟ أجل ، يا بني ، ما باليد حيلة . إننا نحن نفر من الناس ، يكبر علينا بيت وحديقة كثيراً جداً . فالروعة كلها ينبغي ألا تحجب عن إنسان ! بيت ريفي وحديقة إلى ذلك ، بحيث إن أناساً سعداء يصولون فيه ويجولون ، وكلما كثر حسن . بالمناسبة فأنت تأتي متأخراً تأخراً مهيباً فلم يعد هناك حساء ."

ثم التفت إلى المدرس الخصوصي .

" أيها الموقر ، لا يراك المرء أبداً في الحديقة . كنت اعتقدت دوماً أنك تعبد الحياة الريفية ."

قطب السيد هومبرغر جبينه .

" ربما كنت على صواب . إلا أنني أود أن أصرف وقت فراغي في دراساتي الخاصة قدر المستطاع ."

" بكل احترام وإخلاص ، أيها السيد هومبرغر! حين تطبق شهرتك الآفاق سأوعز بتثبيت لوحة تحت نافذتك . وأمني النفس بأن تشهد هذا ."

قال ببرود " إنك تغالي في تقدير طموحي . وسيان عندي إن اشتهر اسمي أم لا . وبخصوص اللوحة- "

" لاتقلق ، أيها السيد العزيز ! لكنك متواضع كل التواضع . خذ نموذجاً يا باول ."

بدا للعمّة أن الوقت قد حان لتنقذ الممتحن . فقد عرفت هذا النوع من الحوارات المهذبة التي كانت ترفه عن رب المنزل كثيراً جداً ، وقد خافت منها . وعلى حين كانت تقدم الخمر وجهت الحديث باتجاه آخر وأبقته على هذه الحال .

كان الحديث بصورة خاصة عن الضيوف المنتظرين . وقلما التفت باول إلى ذلك . فقد أكل بكل ما لديه من طاقة وفكر بجانب ذلك مرة ثانية كيف أن هذا المعلم الخصوصي الشاب بدا إلى جانب أبيه الذي كاد أن يخط الشيب شعره لكأنه الأكبر سناً .

أمام النوافذ والأبواب الزجاجية بدأت الحدائق والأراضي المشجرة تتبدل ، الغدير والسماء ، وقد مستها أولى رعشات الليل الطالع . فالشجيرات اسودت وانسابت في أمواج سوداء ، والأشجار التي تخطت ذراها خط التلال البعيد انتصبت سامقة في السماء الصافية بأشكال لا عهد للمرء بها ، وغير مرئية قط في النهار وبولع صامت . والطبيعة المتنوعة الخصبة فقدت طبيعتها المنتشرة الملونة تلويناً هادئاً مريحاً وتقاربت في مجموعات كبيرة متماسكة تماسكاً وثيقاً . والجبال النائية سمت على نحو أجرأ وأشد عزماً ، والسهول امتدت على نحو ضارب إلى السواد ، ولم يكن في الإمكان الاستدلال إلا على نتوءات للأرض أكثر ضخامة . أمام النوافذ تصارع ضوء النهار الذي مازال موجوداً في فتور مع نور المصابيح المتساقط .

وقف باول في في مصراع الباب المفتوح ونظر بلامبالاة ومن دون أن يفكر كثيراً في أثناء ذلك . فقد فكر مجرد تفكير ، ولكن ليس بالشيء الذي رآه . رأى الليل يحل . لكنه لم يستطع أن يحس كم كان جميلاً . كان شاباً في غاية الشباب وحيوياً للغاية وكان أحدث سناً وأنشط من أن يقبل شيئاً كهذا وأن يتطلع فيه ويجد فيه مرضاته . فما فكر به كان ليلة على بحر الشمال . فعلى الشاطئ بين الأشجار المكللة بالسواد ترسل نار المعبد المتأججة تأججاً داكناً لهباً ودخاناً صوب السماء ، وعلى الصخور يتكسر البحر ويعكس أضواء حمراء هائجة ، وفي الظلام تفرّ بكامل الأشرعة سفينة فايكينغ .

صاح الأب : " والآن ، أيها الصبي ، أي كتاب عشق رديء كان معك اليوم في الخارج ؟"

" كتاب فريتيوف !"

" هكذا ، هكذا ، أما زال الشباب يقرؤون ؟ أيها السيد هومبرغر ، ما رأيك ؟ كيف يرى الناس في هذه الأيام هذا السويدي القديم ؟ أما زال حقيقة كائنة ؟"

" أنت تقصد إساياس تيغنر ؟ "

" بالضبط ، إساياس . وماذا عنه ؟"

" مات ، أيها السيد أبديريك ، مات إلى الأبد ."

"مـــا أحلى أن أصـــدق هذا ! على أيامي كفّ هذا الرجل عن

الحياة ، أعني آنذاك ، حين كنت أقرؤه . فقد أردت أن أسأل عما إذا كان لا يزال زياً ."

" يؤسفني أنني لست مطلعاً على الزي والأزياء . فيما يتعلق بالتقويم العلمي الجمالي - ؟"

" هذا ما كنت أعنيه . إذاً العلم -- ؟"

" تاريخ الأدب لا يسطّر ذلك المدعو تيغنر إلا اسماً . لقد كان كما صحّ قولكم زيّاً . وفي هذا القول الفصل . الشيء الأصيل والجميل لم يكن قط زياً ، إنما يعيش ، وتيغنر ،كما قلت ، ميت . لم يعد له وجوده بالنسبة إلينا . فهو يبدو لنا غير أصيل ، متكلفاً ومبتذلاً لا طعم له . . ."

استدار باول بعنف .

" هذا مستحيل ، يا سيد هومبرغر !"

" هل لي أن أسأل لم لا ؟"

" لأنه جميل ! أجل ، إنه جميل وكفى ."

" هكذا ؟ ليس هذا سبباً لكي تنفعل على هذا النحو !"

" لكنك تقول إنه مبتذل ولا قيمة له . ولكنه جميل حقاً ."

" أتظن ؟أجل ، إذا عرفت تمام المعرفة ما هوالجميل فعلى المرء أن يتنازل لك عن كرسي تدريس . ولكن كما نرى ، يا سيد باول ، هذه المرة لا يتفق حكمك مع علم الجمال . انظر . إنه العكس تماماً كما هي

الحال مع توسوديددس . فعلم الجمال يجد هذا جميلاً ، وأنت تجده رهيباً . وفريتيوف- "

" آه ، لا علاقة لهذا بالعلم ."

" لا يوجد شيء ، ما من شيء على الإطلاق ليس له علاقة بالعلم . لكن ، أيها السيد أبديريك ، اسمح لي أن انصرف ."

" الآن؟"

" ما زال هناك شيء يجب أن أكتبه . "

" خسارة ! كنا على وشك أن نسترسل في الحديث على نحو ظريف . ولكن الحرية أهم من كل شيء ! إذاً طابت ليلتكم !"

غادر السيد هومبرغر الحجرة في أدب وثبات واختفى في الدهليز من دون أن يصدر صوتاً .

ضحك رب المنزل : " إذاً أعجبتك المغامرات القديمة ، يا باول ؟ لا تتركن أي علم يفسدك ، وإلا استحققت ما ينزل بك . لن يتعكّر مزاجك ؟"

" ليس هذا بشيء ، ولكنك تعرف أنني كنت قد أملت أن يرافقني إلى الريف . فقد قلت أنت إنه لا داعي لأن أعكف على الكتب في هذه العطلة ."

" إذا ما قلت انا هذا ، فليكن هذا إذاً ، وفي إمكانك أن تكون سعيداً . والسيد المعلم لا يلسعك ."

" ولم كان عليه أن يأتي معنا ؟"

" نعم ، افهم يابني ، أين كان عليه أن يبقى ؟ هناك وحيث هو موجود فحاله للأسف ليست مقبولة بصورة خاصة . وأنا أريد أن تكون لي مسراتي أيضاً ! تذكّر أنّ مخالطة الرجال المطلعين أولي العلم مكسب . ولا أتمنى أن أفتقد صديقنا السيد هومبورغ ."

" والله يا أبتاه ، عندك لا يعرف المرء ماالمزاح وما الجد ."

" إذاً تعلم أن تميّز هذا يابني . سيكون مجدياً . أما الآن فنريد أن نعزف قليلاً ، أليس كذلك؟"

سحب باول والده على الفور بسرور إلى الغرفة المجاورة . لم يحدث كثيراً أن عزف الأب معه بدون طلب . ولم يكن هذا بظاهرة عجيبة ، إذ أنه كان معلماً على البيانو ، ولم يكن في وسع الصبي ، إذا ما قورن به ، إلا أن يخبط قليلاً جداً على البيانو .

بقيت العمة غريبة وحدها حيث كانت . كان الأب والابن من بين الموسيقيين الذين لم يرق لهم أن يكون هناك مستمع غير مرئي لا يعرفون عنه أنه يجلس في الجوار وينصت . وقد عرفت العمة هذا تمام المعرفة . وكيف لا تعرف ؟ وأنى لها أن تجهل أية سمة صغيرة رقيقة فيهما كليهما وهي التي أحاطتهما منذ سنين بالحب وحمتهما به واعتبرتهما كليهما مثل طفليها .

جلست هادئة في كرسي خيزران يمكن ثنيه وأنصتت . فما

سمعته كان مقدمة موسيقية عزفت عزفاً ثنائياً ومن المؤكد أنها لم تسمعها أول مرة ، إلا أنها ما كانت لتستطيع أن تتذكر اسمها ؛ إذ أنها بقدر ما كان يحلو لها أن تسمع الموسيقا فإنها كانت تفهم القليل منها . وعرفت أنّ العجوز أو الصبي سيسأل فيما بعد عند الخروج : " أيتها العمة ، أية قطعة كانت هذه ؟" ثم إنهاّ ستقول : " موتزارت" أو " من كارمن " ولهذا ستكون عرضة للسخرية ، إذ أنه كان دائماً شيئاً آخر .

أنصتت واتكأت بظهرها إلى الكرسي وابتسمت . كان من المؤسف أنه ما من أحد استطاع أن يرى هذا ، إذ أن ابتسامتها كانت من النوع الخالص ، كانت ابتسامة بالعين أكثر منها بالشفتين ، فقد اشترك الوجه كله والجبين والوجنتان في اللمعان والتألق من أعماق الصدر ، وبدا مثل فهم عميق وحب عميق . ابتسمت وأنصتت . كانت موسيقا جميلة ، وأعجبتها جداً . على انها لم تستمع للمقدمة الموسيقية فحسب ، مع أنها حاولت أن تفهمها . في بادىء الأمر بذلت جهدها لتكتشف من يجلس فوق ومن يجلس تحت . كان باول يجلس تحت ، وكانت قد استرقت السمع لتوها . لا لضعف أو نقص ، لكن الأصوات العليا رنّت بمثل هذه الخفة والجرأة وخرجت هكذا من الداخل على نحو لا يستطيع تلميذ أن يعزفه . هنا استطاعت العمة أن تتصور كل شيء . رأت الاثنين يجلسان إلى المعزف . وفي مواضع ممتازة رأت الأب يبتسم بحنوّ . أما باول فكان يراها عند مثل هذه المواضع تنتصب على نحو

أعلى على الكرسي الوثير فاغرة الفم متوهجة العينين . وفي أثناء هذه الصيغ الأكثر بشاشة بصورة خاصة انتبهت ما إذا لم يكن على باول أن يضحك . وفي هذه الحال كان العجوز يقطب حاجبيه أو يقوم بحركة بذراعه مثل الحركات الصبيانية غير المتكلفة بحيث إنه لم يكن سهلاً على ناس شباب أن يضبطوا أنفسهم .

كلما تقدمت المقدمة الموسيقية رأت الآنسة صاحبيها كليهما أمامها على نحو أوضح وقرأت على نحو أعمق في وجهيهما المنفعلين من العزف . ومع الموسيقا السريعة مر بها جزء كبير من الحياة والخبرة والحب .

كان الوقت ليلاً ، وكان الناس قد تمنوا لبعضهم بعضاً " نوماً هادئاً" ، وكل واحد كان قد توجه إلى غرفته . هنا وهناك انفتح أو انغلق باب نافذة . ثم ساد السكون .

ما هو بديهي في الريف ، هدوء الليل الذي هو لابن المدينة شيء عجيب . فمن يخرج من مدينة ويأتي إلى ضيعة أو إلى مزرعة ويقف في المساء الأول إلى النافذة أو يستلقي في السرير ، فإنّ هذا الهدوء يلفّه مثل سحر الوطن أو مرفأ السكينة لكأنه يقترب من الشيء الحقيقي والسليم ويحس بهبوب الشيء الأزلي .

الحق أنه ليس سكوناً كاملاً . إنه سكون مليء بأصوات ، إلا أنها أصوات الليل العميقة الخافتة الهادئة الغامضة ، على حين تتميز

أصوات الليل في المدينة عن أصوات النهار تمايزاً بسيطاً جدّاً . إنه غناء الضفادع وحفيف الأشجار وخرير الجدول وطيران طائر ليلي ، خفاش . وإذا ما مرت عربة كارو متأخرة منطلقة بسرعة أو نبح كلب حراسة فإنّ هذا تحية متمناة من تحيات الحياة ويتم تخفيضه وابتلاعه من قبل الفضاء على نحو جليل رائع .

كان المعلم الخصوصي قد ترك الضوء مشتعلاً وراح يتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً مضطرباً ومتعباً . كان قد قرأ المساء كله حتى منتصف الليل تقريباً . وهذا السيد هومبورغر لم يكن ذلك الذي ظهر عليه هو أو أراد أن يظهر عليه . لم يكن مفكراً . لا ولم يكن عقلاً علمياً ، إلا أنه كان يتمتع بمواهب ، وكان شاباً . ولهذا لم يكن يفتقر إلى مثل عليا وهو الذي لم يكن في طبعه أي مركز آمر لا معدى عنه .

شغله حالياً عدد من الكتب توهم فيها شبان مرنون مرونة عجيبة أنهم كدسوا أحجار حضارة جديدة بأن سرقوا في لغة رقيقة حسنة الوقع تارة راسكين Ruskin وتارة نيتشه من أجل مختلف الأشياء النفيسة الجميلة والصغيرة السهلة الحمل .هذه الكتب كانت قراءتها مسلية أكثر بكثير من راسكين ونيتشه بالذات ، كانت ذات رشاقة جذابة مغناجة وكبيرة في صبغة خفيفة وذات بريق رائع روعة الحرير . وحيثما تعلق الأمر بعمل ناجح وعبارات آمرة وحماسة وعاطفة ، استشهدوا بدانتي أو زرادشت .

وعلى هذا كان هومبورغر أيضاً مكفهر الجبين ، عيناه متعبتان كأنما كان السبب اجتياز أمكنة هائلة ، وخطوته مضطربة ومتباينة . شعر أنّ أكباشاً (آلات حرب) كانت قد وضعت في كل مكان في العالم اليومي التافه المحيط به وأنه صح الاعتماد على الرسل وباعثي الغبطة الجديدة . فالجمال والروح سيعمران عالمهم ، وكل خطوة فيه ستقطر شعراً وحكمة .

أمام نوافذه كانت السماء المرصعة بالنجوم وكانت تنتظر ، والغيمة السابحة والحديقة الحالمة والحقل النائم المتنفس وجمال الليل كله . هذا الجمال الذي انتظر ليتقدم إلى النافذة ويراه . انتظر بأن يجرح قلبه بالشوق والحنين ، ويغسل عينيه بالماء البارد وأن يحرر جناحي روحه المقيدين . إلا أنه استلقى في الفراش ، قرّب المصباح وواصل القراءة وهو مستلق .

كان باول أبديريك قد أطفأ النور ، إلا أنه لم ينم بعد ، بل جلس بالقميص على حافة النافذة وأرسل نظره إلى ذؤابات الأشجار الهادئة . كان قد نسي البطل فريتيوف . لم يفكر على الاطلاق بأي شيء محدد ، فقد اكتفى بالاستمتاع بالساعة المتأخرة التي لم يترك له شعورها ، شعور الغبطة النشط ، مجالاً للنوم . ما أجمل النجوم في العتمة! ويا للعزف الذي عزفه أبوه اليوم من جديد ! ولكم كانت الحديقة هادئة وساحرة في الظلام !

ضمّ ليل حزيران الصبي برقة وعلى نحو لصيق ، فقد أقبل عليه هادئاً ساكناً وبرّد ما كان حاراً فيه ومتأججاً . فقد انتزع منه فيض شبابه بهدوء إلى أن هدأت عيناه وابترد صدغاه ، ثم نظر الجمال في عينيه مبتسماً مثل أمّ طيبة . ولم يعد يدري من نظر إليه ومن كان هو ، فقد استلقى غافياً على السرير ، وتنفس تنفساً عالياً ونظر شارد الفكر مستسلماً لعيون كبيرة هادئة استحال في مرآتهما الامس واليوم إلى صور متشابكة تشابكاً عجيباً وأساطير صعب حلّها . كما أنّ نافذة المرشح أ يضاً كانت الآن مظلمة . فإذا ما مرّ جوّال ليلي على سبيل المثال على الطريق العام ورأى البيت والدهليز والحديقة العامة والجنينة في سبات هادىء استطاع أن ينظر من الجانب الآخر إلى هذا الجانب بحنين وأن يسرّ بالمنظر الساكن بشيء من الحسد . وإذا ما كان متسوّلاً فقيراً مشرّداً استطاع أن يدخل بغير اهتمام إلى الحديقة العامة المفتوحة عن حسن نية ويختار لنفسه أطول مقعد للمبيت .

في الصباح اسيقظ المدرس الخصوصي هذه المرة على غير عادته قبل الآخرين جميعاً . ولهذا لم يكن نشيطاً . كان قد أصابه صداع من المطالعة الطويلة في ضوء المصباح ؛ وحين أطفأ المصباح أخيراً كان السرير دافئاً للاستلقاء وقائماً قاعداً للنوم ، عندئذ نهض صاحياً مرتعشاً بعينين كليلتين . أحس على نحو أوضح من ذي قبل بضرورة بعث جديد ، إلا أنه لم تكن لديه في هذه اللحظة أية رغبة في متابعة

دراساته ، بل شعر بحاجة قوية إلى الهواء الطلق . وعلى هذا غادر البيت في هدوء وتجول ببطء في الحقول .

في كل مكان كان الفلاحون قد باشروا عملهم وراحوا يتابعون الذي كان يمشي بخطى وئيدة رزينة بأنظارهم على نحو خاطف وساخر ، كما بدا له أحياناً . لقد حزّ هذا في نفسه ، وغذّ الخطى لكي يصل إلى الغابة القريبة حيث احتضنته البرودة ولفّه السدف الهادىء . ضرب هناك ملولاً على غير هدى نصف ساعة من الزمن . ثم شعر بخواء داخلي وأخذ يفكر هل سيكون هناك قهوة بعد قليل . استدار على عقبيه ومر من جديد وهو عائد إلى البيت بالحقول التي غمرتها الشمس الدافئة وبالفلاحين الذين لا يكلون ولا يملون .

تحت باب البيت خطر بباله فجأة على نحو غير مؤدب أن يندفع إلى الفطور بمثل هذا الاندفاع العنيف الشره . واستدار إلى الوراء ، فضح نفسه وقرر أن يمشي قبل ذلك بخطوات معتدلة عبر طرق الحديقة لكي لا يظهر عند المائدة مقطوع الأنفاس . وبخطوة متئدة مريحة مشى عبر الشارع المشجر على جانبيه بشجر الدلب وأراد أن يستدير لتوه إل الوراء شطر زاوية الدردار حين أرعبه منظر غير متوقع .

كان شخص ما متمدداً على المقعد الأخير الذي اخفته شجيرات البيلسان قليلاً . كان منطرحاً على بطنه وكان قد وضع وجهه على المرفق واليدين . وكان السيد هومبرغر في ارتياعه الأول ميالاً إلى أن

يفكر في عمل وحشي ، إلا أنّ تنفس المستلقي العميق الثابت سرعان ما علمه أنه يقف أمام نائم . بدا هذا مهلهلاً ، وكلما اكتشف المعلم أن له علاقته بشاب أغلب الظن أنه حديث السن وغير قوي ، زادت الجرأة والاستياء في نفسه . وغمر صدره تفوّق وشمم رجولة حين اقترب بعد تردد قصير في حزم وعزم وأيقظه بالهز .

" انهض يا كارل ! ماذا تفعل هنا ؟"

ترنح العامل المتجول في النهوض مذعوراً ، وحدّق في الدنيا خائفاً مشدوهاً . رأى سيداً في سترة طويلة واقفاً أمامه آمراً وفكر قليلاً بما يمكن أن يظنه هذا إلى أن خطر بباله أنه دخل ليلاً إلى حديقة مفتوحة وبات هناك . فقد أراد أن يتابع السير مع طلوع الفجر ، كان مثقل الرأس بالنوم وتم تقريعه .

" ألا تستطيع أن تتكلم ، ماذا تفعل هنا ؟"

" نمت فقط " ، تنهد المصعوق ونهض كلياً . وحين وقف على قدميه أثبتت ضآلة جسده التعبير الفتي فتوة غير جاهزة لوجهه الذي ما زال وجه طفل إلى حد ما . ربما كان في الثانية عشرة على أبعد تقدير .

" تعال معي !" أمر المرشح ، وأخذ معه الغريب الذي تبعه مسلوب الإرادة إلى البيت حيث قابله السيد أبديريك عند العتبة .

" صباح الخير ، أيها السيد هومبرغر ، نهضت مبكراً ! ولكن أي رفقة غريبة تجلبها ؟"

" هذا الصبي ! استخدم حديقتكم مبيتاً له ، واعتقدت أن علي أن أعلمكم بذلك ."

وفهم رب البيت على الفور ، وابتسم ابتسامة الرضا .

" أشكركم أيها السيد العزيز . وبصراحة ، ما كنت أظن قلبك رقيقاً مثل هذه الرقة . ولكنك على صواب ، إنه لواضح أن الشاب المسكين يجب أن يحصل أقل ما يمكن على فنجان قهوة . هل لك أن تقول للآنسة في الداخل ، بأن ترسل له فطوراً إلى هنا . وإلا انتظر ، نحن نوصله إلى المطبخ . – تعالوا معي أيها الأولاد ، فهناك شيء ما باق . إلى منضدة القهوة جمع المشترك في تأسيس ثقافة جديدة حوله سحابة جليلة من الجد والصمت الأمر الذي لم يسر السيد الشيخ قليلاً . على أنه لم تحدث أية مداعبة ، ذلك لأن الضيوف المنتظرين شغلوا كل تفكير .

وثبت العمة المرة تلو المرة مهتمة ومبتسمة من حجرة إلى أخرى وشارك الخدم بتحفظ في الهيجان وابتسموا متفرجين ابتسامة عريضة ، وعند الظهر اجتمع رب البيت مع باول في العربة للسفر إلى محطة القطار القريبة .

إذا كان من طبع باول أنه كان يتخوف من أن تقطع عليه زيارات الضيوف حياته في العطلة ، الحياة الهادئة المعتادة ، فقد كان طبيعياً له أيضاً أن يتعرف على طريقته على الذين قدموا إذا أمكن وأن يراقب طبيعتهم وأن يستوعبها بأي شكل كان .

وهكذا راقب في أثناء العودة في العربة المزدحمة قليلاً الغرباء الثلاثة بانتباه هادئ ، أولاً البروفسور المتحدث بحيوية ، كما راقب الفتاتين بقليل من الحياء والخجل .

أعجبه البروفسور ذلك لأنه عرف أنه كان صديق أبيه الذي كان يخاطبه بالكاف . وبالمناسبة وجده شديداً بعض الشيء ومسناً وغريب الأطوار بعض الشيء ، ولكن ليس بغيضاً إلى النفس وعلى أية حال بالغ الذكاء . وكان التفاهم مع الفتاتين أصعب بكثير . إحداهما كانت فتاة شابة ،فتاة مراهقة ، وعلى أية حال في مثل سنه تقريباً . ولن يتعلق الأمر إلا بما إذا كانت هي من النوع الساخر أو الطيب القلب ، وسيكون الأمر وقفاً عما إذا كانت ستنشأ بينه وبينها حرب أو صداقة . في الحقيقة كانت الفتيات الشابات كلهن في هذه السن متشابهات ، وكان الحديث والانسجام معهن كلهن صعباً على حد سواء ، وأعجبه أنها كانت على الأقل هادئة ولم تفرغ على فورها كيساً مليئاً بالأسئلة .

والأخرى دفعته إلى مزيد من الحدس والتخمين . ولربما كانت ، وهذا لم يعرف حسبانه بطبيعة الحال ، في الثالثة أو الرابعة والعشرين وكانت من السيدات اللواتي يطيب لباول كثيراً أن يراهن ويراقبهن عن بعد ، إلا أن أوثق معاشرة لهن كانت تجعله حيياً ، وكثيراً ما تسبب له الحيرة والارتباك . ولم يستطع أن يفصل لدى هذه الكائنات الجمال الطبيعي عن التصرف الظريف واللباس ، وكثيراً جداً ما وجد حركاتهن

التعبيرية وتسريحاتهن متكلفة وخمن عندهن كماً من معلومات فائقة عن أشياء كانت في نظره لغزاً عميقاً .

و كان إذا أمعن التفكير في ذلك كره هذا الجنس كله . فهن جميعهن بدون جميلات ، إلا أنهن جميعهن كانت لهن في السلوك الرقة المخففة نفسها والثقة ، والمطالب نفسها المبالغ فيها والتفضل المزدري نفسه إزاء الشبان من أترابه . وكنّ إذا ماضحكن أو ابتسمن ، وهذا ما كن يفعلنه مراراً وتكراراً ، بدا هذا في كثير من الأحيان متصنعاً وكاذباً على نحو كريه جداً . وفي هذا كانت المراهقات مقبولات وكان يمكن احتمالهن أكثر .

لم يشارك في الحديث عدا عن الرجلين إلا الآنسة توسليندي التي كانت الفتاة الكبيرة الأنيقة . كما أنّ بيرتا الشقراء الصغيرة أصرّت على الصمت في استحياء مثل باول الذي جلست قبالته . كانت تعتمر قبعة من القش كبيرة وغير ملونة ، محنية حنياً رقيقاً وذات أشرطة زرقاء وكانت تلبس ثوباً شفافاً خفيف الزرقة له زنار فالت وحواش بيضاء قليلة العرض . بدت شاردة كلياً في منظر الحقول المشمسة ومروج القش الساخنة .

على أنها كثيراً ما ألقت في أثناء ذلك نظرة سريعة على باول . كان سيطيب لها أن تأتي معهم مرة ثانية إلى ايرلينهوف لولم يكن الشاب . فقد بدا مرتّباًجداً ، لكنه كان ذكياً ، والأذكياء كانوا في معظم

الأحيان الأكثر بشاعة . وفي هذه الحال ستكون هناك بين حين وآخر كلمات دخيلة خبيثة كل الخبث وكذلك أسئلة مثل تلك التي تنم عن لطافة وعجرفة ، كأن يسأل المرء عن اسم زهرة من زهور الحقل ، ومن ثمّ ، وفي حال أنها لم تعرفه فستكون هناك ابتسامة مثل تلك الابتسامات الوقحة ، وما شابه ذلك . عرفت هذا من ابني عمتها ، أحدهما كان طالباً جامعياً ، والآخر كان تلميذاً في الثانوية ، وكان تلميذ الثانوية يميل إلى أن يكون الأسوأ ، تارة عديم التربية على نحو صبياني وتارة أخرى على نحو فيه كياسة ساخرة سخرية لا تطاق خافت منها خوفاً وأي خوف .

شيء ما على الأقل كانت بيرتا قد تعلمته ، وكانت قد قررت أن تتمسك به أيضاً على كل الأحوال : ما كان لها أن تبكي ولا في حال من الأحوال . لا أن تبكي ولا أن تغضب ، وإلا هزمت . وقد أرادت هذا هنا مهما كلفها ذلك . وخطر ببالها على نحو مريح أنه ستكون هناك في كل الأحوال عمة أيضاً ؛ وإلى هذه أرادت أن تلجأ من بعد ذلك طلباً للحماية ، إذا ما استدعى الأمر .

" باول ، هل أنت أصمّ ؟ " صاح السيد أبديريك فجأة .

" لا ، ياأبي ، ولماذا؟"

" لأنك نسيت أنك لا تجلس وحيداً في العربة . في وسعك أن تري بيرتا شيئاً ما أكثر لطافة ."

تنهد باول على نحو غير مسموع . إذاً الآن بدأت الأمور .

" انظري يا آنسة بيرتا ، هناك في الخلف بيتنا ."

" لكن يا أولاد ، لن يخاطب أحدكما الآخر بصيغة الاحترام والتفخيم !"

" لا أدري ياأبت – إنما أنا على ثقة ."

" حسن ، إذاً تابعا! إلا أنه زائد عن اللزوم ."

كان الاحمرار قد علا وجه بيرتا ، وما إن رأى باول ذلك حتى كانت حالته كحالتها . فالحديث بينهما كان قد انفض من جديد ، وكان كلاهما سعيداً أن العجوزين لم يلاحظا ذلك . فقد انزعجا ، وتنفسا الصعداء حين انعطفت العربة بطقطقة مفاجئة إلى الممر المفروش بالحصى ومرت أمام البيت .

قال باول :" تفضلي يا آنسة !" وساعد بيرتا على النزول ، وبهذا كان قد تخلص مؤقتاً من قلقه عليها ، إذ أن العمة كانت تقف في الباب وبدا كأن البيت يبتسم بأسره وينفتح ويطلب الدخول ، فقد هزّت رأسها بتحية المضياف الحارة البهيجة ومدت يدها ورحّبت بالواحد تلو الآخر وبكل واحد مرتين ، ثم تمّ اصطحاب الضيوف إلى غرفهم وطلب إليهم المجيء إلى المائدة جياعاً وفي الحال .

كانت على المائدة البيضاء باقتا زهر كبيرتان وامتزج عبيرهما بروائح الأطعمة . قطع السيد أبديريك اللحم المحمر ، وتحرّت العمة ببصر

ثاقب الصحون والصحاف . وتصدّر البروفيسورالمائدة منشرح الصدر هاشاً باشاً ، هانيء البال بالسترة الطويلة ، ورمى العمة بنظرات رقيقة ، وأزعج رب البيت الذي يعمل بجد واجتهاد بأسئلة لا حصر لها ونكات . وساعدت الآنسة توسنيلدي في تقديم الصحون بخفة ورشاقة وابتسام وبدا أنها مشغولة قليلاً جداً ، لأن جارها ، المرشح ، ولئن أكل القليل ، إلا أنه قلل كثيراً من الحديث . فحضور بروفيسور قديم الطراز وسيدتين شابتين أثّر فيه أثر التحجّر . فقد كان وهو يشعر بالخوف على كرامته الشابة مستعداً دائماً لأية هجمات بل لأية إهانة حاول أن يردها سلفاً بنظرات باردة وصمت مجتهد فيه .

جلست بيرتا إلى جانب العمة وشعرت بالسكينة والاطمئنان . وكرس باول نفسه بجهد للأكل كي لا يتورط في أحاديث ونسي نفسه بذلك وأكل مريئاً وشرب هنيئاً أكثر من الآخرين كلهم . وعند انفضاض المائدة كان ربّ البيت قد حدّد موضوع الحديث بعد معركة حامية مع صديقه وأدار دفةالحوار ولم يسمح بأخذها منه ثانية . فالبروفيسور المهزوم وجد في هذه الحال الوقت للأكل وعوّض باعتدال . ولاحظ السيد هومبورغر أخيراً أنه ما من أحد يخطط لهجوم عليه ، إلا أنه رأى متأخراً جداً أن صمته كان غير لائق واعتقد أنه مراقب بطريقة ساخرة ممن تجلس بجانبه . ولهذا أخفض رأسه إلى حد أنّ تجعيدة خفيفة نشأت تحت الذقن ، ورفع حاجبيه وبدا أن مشاكل تجول في رأسه .

بما أن رب البيت فشل فقد بدأت توسنيلدي حديثاً مع بيرتا شاركت فيه العمة . كان باول قد ملأ بطنه في أثناء ذلك ووضع ،على حين أحس فجأة بالتخمة ،السكين والشوكة . وحين رفع بصره رأى بالمصادفة البروفيسور في لحظة مضحكة : كان قد وضع لتوه بين أسنانه لقمة كبيرة ولما يحررها بعد من الشوكة حين أجبرته عبارة غليظة في حديث أبديريك على الإصغاء . ولهذا نسي للحظات أن يسحب الشوكة ونظر من طرف بعينين واسعتين وفم فاغر إلى صديقه المتكلم . وفي هذه الحال فإنّ باول الذي لم يستطع أن يقاوم الدافع إلى الضحك المفاجىء أطلق كركرة تم إخفاتها بصعوبة .

لم يجد السيد أبديريك في زحمة الحديث متسعاً إلا لنظرة غضب سريعة . فهم المرشح أنه مرمى الضحك وعضّ على شفته السفلى . وضحكت بيرتا فجأة أيضاً بانفعال لغير ما سبب آخر . كانت سعيدة جداً بحيث إنّ باول اجتاز هذه اللامبالاة الصبيانية . فلم يكن على الأقل واحداً من أولئك الذين لا غبار عليهم .

سألت الآنسة توسنيلدي : " مالذي يسرك هكذا ؟"

" لا شيء في الواقع :"

" وأنت يا بيرتا ؟"

" أيضاً لا شيء ، أشاركك الضحك فقط ."

سأل السيد هومبرغر بلهجة مغتصبة : " هل لي أن أصبّ لك أيضاً ؟"

" لا ، شكراً ."

قالت العمة بلطف : " لكن أنا ، من فضلك ." إلا أنها تركت النبيذ من بعد ذلك في مكانه من دون شرب .

كان المرء قد رفع الطعام وأتى بالقهوة والكونياك والسيجار .

سألت توسنيلدي باول عما إذا كان يدخن هو أيضاً .

قال :" لا ، فهذا لا أستسيغه ."

وفجأة أضاف بعد وقفة بصدق :" كما أنّ هذا ليس مسموحاً لي بعد أيضاً ."

حين قال ذلك ابتسمت الآنسة توسنيلدي في خبث ، على حين أمالت الرأس قليلاً إلى الجانب . في هذه اللحظة بدت للصبي جذابة ، وندم على الكره الذي صبّه عليها من قبل . كان في إمكانها أن تكون لطيفة جداً .

كان المساء دافئاً ومشجعاً على الخروج بحيث إن المرء ظل جالساً في الساعة الحادية عشرة في الحديقة تحت الفوانيس التي تومض وميضاً خفيفاً . وما من أحد فكر الآن بالمرة بأنّ الضيوف شعروا بالتعب من السفر وأنهم أرادوا الذهاب إلى الفراش مبكراً .

تماوج الهواء الدافىء في رطوبة خفيفة جيئة وذهاباً على نحو غير

متطابق وحالم ، وكانت السماء صافية في عليائها ومتألقة وندية في آن واحد ، وقد انشدت صوب الجبال على نحو حالك السواد ولطيف بالعروق المرتعشة ، عروق لمع البرق البعيد . فالأدغال فاحت عبيراً حلواً وثقيلاً ، والياسمين الأبيض تلألأ بأضواء مضطربة شاحباً من داخل الظلمة .

" أتعتقد إذاً إن هذا الإصلاح لثقافتنا لن يكون مصدره وعي الشعب ، بل سيرجع إلى فرد عبقري أو بعض الأفراد العباقرة ؟"

بثّ البروفيسور شيئاً من الرفق والتسامح في نبرات سؤاله .

" أتصور الأمر هكذا -" أجاب المعلم الخصوصي بشيء من العناد ، وبدأ خطبة طويلة لم يصغ إليها أحد إلا البروفيسور .

مازح أبديريك بيرتا الصغيرة التي آزرتها العمة . فقد استلقى إلى الوراء في الكرسي ملء الارتياح وشرب النبيذ الأبيض ممزوجاً بالماء المعدني .

" قرأت إذاً قصة < إيكارد > أيضاً ؟"

سأل باول الآنسة توسنيلدي .

كانت مستلقية في مقعد يطوى ، مقعد كان قد وضع على نحو واطىء جداً ، وكانت قد ألقت برأسها إلى الوراء ونظرت إلى الأمام نحو الأعلى .

قالت : " أجل ، في الحقيقة كان على المرء أن يمنع عنكم مثل هذه الكتب ."

" هكذا ؟ ولماذا ؟"

" لأنكم لا تستطيعون بعد أن تفهموا كل شيء ."

" أتعتقدين ذلك ؟"

" طبعاً ."

" إلا أن هناك مواضع فيها ربما فهمتها أنا أفضل منك ."

" أصحيح ؟ وأية مواضع ؟"

" المواضع اللاتينية ."

" ياللدعابات التي تطلقها !"

كان باول جذلاً مسروراً جداً . فقد شرب شيئاً من الخمر في المساء ، ووجد هذا جميلاً أَنْ يغوص في الليل البهيم الرقيق ، وانتظر بفضول ما إذا كان سيخرج السيدة الأنيقة من هدوئها الخامل ويستدرجها إلى تناقض أكثر حدة أو إلى ضحكة . إلا أنها لم تنظر إلى ناحيته . فقد استلقت بلا حراك ، الوجه نحو الأعلى ، يد على الكرسي ، وأخرى مسترخية حتى الأرض ، عنقها الأبيض ووجهها الشاحب تميزا في تلألؤ باهت عن الأشجار السوداء .

" ما أفضل شيء أعجبك في قصة < إيكارد > ؟"

" أفضل ما أعجبني ؟ " سألت الآن ، من دون أن تنظر إليه ثانية .

" نشوة السيد شباتسو " .

" حقاً ؟"

" لا ، الطريقة التي طردت بها عجوز الغابة ."

"هكذا؟"

" أو ربما أعجبني بشكل أفضل كيف تركته براكسيديس يهرب من السجن . هذا جميل ."

" نعم ، هذا جميل . إنما كيف كان هذا ؟"

" مثلما تفرّغ هي الرماد فيما بعد - "

" أجل ، أجل ، أنا أعرف ."

" أما الآن فعليك أن تقولي لي أيضاً ما أفضل شيء أعجبك ؟"

" في قصة< إيكارد > ؟"

" نعم ، بطبيعة الحال ."

" الموضع نفسه حيث تساعد براكسيديس الراهب على الفرار . وكيف تزوده عندئذ بقبلة ثم تبتسم وتعود إلى القصر ."

" أجل - أجل " ، قال باول ببطء ، لكنه لم يستطع أن يتذكر القبلة .

كان حوار البروفيسور مع رب البيت قد انتهى . أشعل السيد أبديريك لنفسه سيجارة غليظة من نوع فيرجينيا ونظرت بيرتا في فضول وقد ترك رأس السيجار الطويل فوق شعلة الشمعة . وظلت الفتاة تطوق بيمناها العمة الجالسة قربها وأصغت بعينين واسعتين إلى التجارب الرائعة التي حدّثها عنها السيد العجوز . كان الحديث عن مغامرات ورحلات ، وخصوصاً في نابولي .

" هل هذا حقيقي فعلاً ؟" جرؤت على السؤال وضحك السيّد أبديريك .

" هذا وقف عليك وحدك أيتها الآنسة الصغيرة . فالحقيقي في حكاية من الحكايات هو دائماً الشيء الذي يصدقه المستمع ."

"أبداً ؟! في هذه الحال يجب أن أسأل أبي عن ذلك ."

"إفعلي ذلك !"

ربّتت العمة على يد بيرتا التي أحاطت بخصرها .

" إنها دعابة يا طفلتي ."

أصغت إلى الحديث ، وذبّت فراشات الليل المترنحة عن كأس نبيذ أخيها ورشقت كل من نظر إليها بنظرة لطيفة . انشرح صدرها بالسيد العجوز وبيرتا وباول الذي يثرثر بحيوية ونشاط وبتوسنيلدي الجميلة التي نظرت من وسط الحفلة إلى زرقة الليل ، وسرت بالأستاذ الخصوصي الذي استمتع لاحقاً بأحاديثه . كانت لاتزال شابة بما فيه الكفاية ولم تنس كيف يمكن أن يكون الجو دافئاً ولطيفاً للشباب في مثل ليالي الصيف هذه في الحديقة .

ما أكثر المصاير التي ما زالت تنتظر هؤلاء الشباب الحسان والشيوخ الحكماء ! وكذلك المعلم الخاص . كم كانت لكل واحد حياته وأفكاره وأمنياته مهمة إلى هذا الحد ! وكم بدت الآنسة توسنيلدي جميلة ! جمال حقيقي .

ربتت السيدة اللطيفة الطيبة على يد بيرتا وابتسمت برقة للمرشح المنعزل قليلاً وتحسست بين الحين والآخر وراء كرسي رب البيت ما إذا كانت زجاجة الخمر الخاصة به لا تزال في الثلج .

قالت توسنيلدي لباول :" إحك لي شيئاً عن مدرستك !"

" عن المدرسة ! إننا الآن في عطلة ."

" ألا تحب الذهاب إلى المدرسة ؟"

" وهل تعرفين أحداً يحب الذهاب إلى هناك ؟"

" لكنك تريد أن تدرس ؟"

" صحيح أريد ذلك ."

" ولكن أي شيء أحب إليك ؟"

" أحب إلي ؟ هاها - أفضّل أن أصبح لصّ بحر ."

" لصّ بحر؟"

"أجل ، لص بحر . قرصان ."

" في هذه الحال لن يكون في وسعك أن تقرأ الكثير ."

" ولن يكون هذا أيضاً ضروريا . سأتسلى ."

" هل تعتقد ذلك ؟"

" بكل تأكيد . سوف - "

" والآن ؟"

" سوف - آه ، ليس في وسع المرء أن يقول هذا ."

" إذاً لا تقله ."

شعر بالملل . اقترب صوب بيرتا وساعدها في الاصغاء . كان الأب بالغ الفرح . كان يتكلم الآن وحده ، وأصغوا جميعاً وضحكوا جميعاً .

عندئذ نهضت الآنسة توسنيلدي ببطء في ثوبها الانكليزي الخفيف غير المشدود وتقدمت من الطاولة .

" أود أن أقول لكم تصبحون على خير ."

هنا تحرك الجميع ونظروا إلى الساعة ولم يستطيعوا أن يفهموا أنّ الوقت كان منتصف الليل .

في الطريق القصير حتى البيت مشى باول إلى جانب بيرتا التي أعجبته فجأة كثيراً جداً ، وخاصة منذ أن سمعها تضحك من أعماق قلبها لنكات أبيه . كان حماراً لكي يمتعض من الزيارة . فقد كان شيئاً جميلاً أن يتحدث هكذا في المساء مع فتيات .

شعر بأنه مرافق سيدة مؤدب وأخذ يأسف أنه لم يهتم المساء كله إلا بالأخرى ، وتلك كانت في الحقيقة بنتاً طويلة اللسان . كانت بيرتا أحب إليه بكثير ، وآلمه أنه لم يلازمها اليوم . حاول أن يقول لها ذلك . وضحكت ضحكة نصف مكبوتة .

" كان أبوك مسلياً ومؤنساً . كان ظريفاً لطيفاً ."

اقترح عليها للغد نزهة إلى آيشيلبيرغ . فالمسافة قصيرة والمكان

جـمـيل . وانتـقل إلى الوصف وتكلم عن الطريق وعن المناظر وتكلم بحماسة .

عندئذ مرت الآنسة توسنيلدي نفسها بهما ، بينما كان في أشد الكلام حـمـاسـة . التـفـتت قليـلاً ونظرت في وجـهـه . حـدث هذا في هدوء وبشيء من حب الاستطلاع ، إلا أنه وجـد هذا سـاخـراً وصـمت فجأة . رفعت بيرتا بصرها مدهوشة ورأت أنه صار معتل المزاج من دون أن تعرف السبب . صافحت بيرتا باول . تمنى لها ليلة سعيدة . أومأت بتحية وذهبت .

كـانت توسنيلدي قد خرجت قبل ذلك من دون أن تصبحه على خير . رآها تصعد الدرج ومعها مصباح يدوي ، وعلى حين تتبعها بنظره اغتاظ منها .

استلقى باول في فراشه صاحياً واستسلم للحمى اللطيفة ، حمى الليل الدافىء .

كـانت الرطوبة في ازدياد ، ولمع البرق البـعـيـد كـان يرتعش بصـورة دائمـة على الجـدران . وبين الحين والآخر ظنّ أنه يسمع السـمـاء ترعـد رعـداً خـفـيـفـاً على مـسـافـة بعـيـدة . وفي فـتـرات توقّف طويلة جـاءت وذهبت ريح ضعيفة لم تجعل ذؤابات الأشجار تخشخش إلا بصعوبة .

فكر الصبي في شبه حلم بالمساء الماضي وشعر أنه كان اليوم على غير مـا كـان عليه عـادة . فقـد خيل إليـه أنه أكـثـر يفـاعـاً وبدا له أن دور

اليافع البالغ قد نجح فيه اليوم أكثر مما كان في محاولات سابقة . وكان قد تحدث مع الآنسة بسلاسة ، وفيما بعد مع بيرتا .

عذّبه ما إذا كانت توسنيلدي قد أولته أهمية . ربما كانت قد لعبت معه مجرد لعب ، ليس غير . وفيما يتعلق بقبلة براكسيديس فكان عليه أن يقرأ الموضع ليتأكد من ذلك ، أم أنه لم يفهم فعلاً هذا أو أنه نسيه ؟ كان يتمنى أن يعرف ما إذا كانت الآنسة توسنيلدي جميلة فعلاً ، جميلة بحق . بدا له الأمر هكذا ، إلا أنه لم يطمئن لا إلى نفسه ولا إليها . أعجبته وهي بين جلوس واستلقاء في الكرسي في ضوء المصباح الخافت ، هيفاء القامة وهادئة ، باليد المتدلية إلى الأرض . وكما نظرت إلى فوق في استرخاء ، على نحو جمع المرح والتعب ، والعنق النحيل الأبيض – في فستان طويل فاتح اللون – هذا كله يمكن أن يكون هكذا في لوحة .

طبيعي أنّ بيرتا كانت حتماً أحبّ إليه . ولربما كانت على شيء من السذاجة والبساطة ، إلا أنها كانت رقيقة وجميلة ، واستطاع المرء الكلام معها من دون شك ، فهي تتغامز على شخص ما في السر . فلو أنه اختلط بها كثيراً من البداية بدلاً من اللحظة الأخيرة فلربما كانا الآن صديقين جيدين .

بدأ يؤسفه الآن عموماً أنّ الضيوف لم يرغبوا في البقاء إلا يومين .

لكن لماذا نظرت إليه الأخرى هذه النظرة حين ضحك عند العودة إلى البيت مع بيرتا ؟

رآها مرة ثانية تمر به وتدير الرأس ، ورأى هو نظرتها مرة أخرى . كانت في الحقيقة جميلة . تصوّر كل شيء مرة أخرى بوضوح ، إلا أنه لم يتجاهل ذلك - كانت نظرتها ساخرة ، ساخرة سخرية ظافرة . لماذا ؟ أبسبب < أيكارد > ؟ أم لأنه كان قد ضحك مع بيرتا ؟

رافقه الغيظ من ذلك حتى النوم . في الصباح كانت السماء مغطاةً بالغيوم ، إلا أنها لم تمطر . وفاحت في كل مكان رائحة الحشيش اليابس والتراب الحار .

" خسارة " ، شكت بيرتا عند النزول ، " لن يستطيع المرء القيام بنزهة اليوم ."

" ومما يؤسف له أنّ الحال يمكن أن تستمر النهار كله " ، واساها السيد أبديريك .

قالت الآنسة توسنيلدي : " إلا أنك في الحالة العادية لست متحمساً تلك الحماسة للتنزه ."

" ولكن لو لم نكن هنا إلا لوقت قصير !"

اقترح باول : " عندنا ساحة للعبة البولينغ (الأوتاد الخشبية) في العراء ، في الحديقة . وكذلك أيضاً لعبة الكروكيت . لكن لعبة الكروكيت مملة ."

قالت الآنسة توسنيلدي : " إنني لأجد لعبة الكروكيت جميلة جداً ."

" في هذه الحال نستطيع أن نلعب إذاً ."

" حسن ، ولكن فيما بعد . يجب أن نشرب القهوة أولاً ."

بعد الفطور ذهب الشابان إلى الحديقة ، كما أنّ المرشح انضمّ إليهما . ومن أجل لعبة الكروكيت وجدوا العشب عالياً جدّاً ، فقرروا اللعبة الأخرى . جرّ باول بهمة وحماسة الوتد الخشبي وحطّه .

" من يبدأ ؟"

" دائماً ذلك الذي يسأل ."

" حسن إذاً . من يلعب مع الآخر ؟"

شكّل باول فريقاً مع توسنيلدي . فقد لعب لعباً جيداً جداً وأمل أن تثني عليه أو أن تمازحه مجرد ممازحة . إلا أنها لم تر هي هذا ولم تعر اللعب أية أهمية . فكان إذا ما أعطاها باول الكرة دفعت بتكاسل ولم تعدّ كم وتداً خشبياً سقط . وفضلاً عن ذلك كانت تتحدث مع رب البيت عن تورجينييف .

كان السيد هومبورغر مهذباً جدّاً اليوم . بيرتا وحدها بدت أنها منهمكة في اللعب . فقد ساعدت دائماً في وضع الأوتاد وتركت باول يريها التسديد .

صرخ باول : " الملك من الوسط! يا آنسة ، مؤكد أننا سنفوز .

فهذا يعادل اثنتي عشرة نقطة ."

أجابت بالإيماء فقط .

" الحق أنّ تورجينييف ليس روسياً قحاً " ، قال المرشح ونسي أنه كان عليه أن يلعب . اغتاظ باول .

" أيها السيد هومبورغر ، الدور عليك !"

" أنا ؟"

" أجل .إننا ننتظر كلنا ."

راودته نفسه أن يقذف الكرة على القصبة . بيرتا التي لاحظت تبرمه ، اضطربت الآن ولم تعد تصيب .

" في هذه الحال نستطيع أن نتوقف ."

ما من أحد اعترض . انصرفت الآنسة توسنيلدي وتبعها المعلم الخاص . باستياء وامتعاض قلب باول مقدمة الأوتاد الخشبية التي لا تزال قائمة .

سألت بيرتا على استحياء : " ألا ينبغي أن نتابع ؟"

" اللعب اثنين اثنين لا يجدي نفعاً . وأريد أن أزيل الأشياء من مكانها ."

ساعدته بتواضع . وحين صارت الأوتاد الخشبية كلها في الصندوق التفت صوب توسنيلدي . كانت قد اختفت في الحديقة العامة . طبيعي أنه لم يكن في نظرها إلا صبياً غبياً .

" وماذا الآن ؟"

" لعلك تريني الحديقة قليلاً ؟"

هنا سار عبر الطرق بسرعة كبيرة جداً بحيث إن بيرتا جاءت مقطوعة الأنفاس وأنه كان عليها أن تركض ركضاً تقريباً لكي تلحق به . وأراها الغابة الصغيرة والطريق الذي على جانبيه أشجار الدلب ، ومن ثم شجرة الزان ذات الأوراق الحمراء والمروج . وعلى حين استحيا بعض الشيء أن يكون فظاً هكذا وقليل الكلام ، عجب في الوقت نفسه أنه لم يخجل قط من بيرتا .

فقد تعامل معها لكأنها كانت أصغر بسنتين . كانت هادئة ، وديعة وحيية ، ولم تتفوه بكلمة واكتفت أن تنظر إليه بين الحين والآخر لكأنها تطلب الاعتذار لأمر ما .

عند الصفصافة الباكية التقيا الآخرين كليهما . فالمرشح ظلّ يتابع الكلام ، والآنسة كانت قد صمتت وبدت معتلة المزاج . وفجأة ازداد ميل باول إلى كثرة الحديث . نبّه إلى الشجرة العتيقة وفرّق الأغصان المتدلية عن بعضها وأشار إلى المقعد الدائري الذي يحيط بالجذع .

" نريد أن نجلس . " طلبت الآنسة توسنيلدي .

جلس الجميع جنباً إلى جنب على المقعد الخشبي . كان الجو هنا حاراً جداً وسديمياً ، جلس باول إلى اليمين بجانب توسنيلدي .

بدأ السيد هومبرغر : " ياللهدوء هنا !" وأومأت الآنسة بالإيجاب .

قـالت :" وحـار إلى هذا الحـد ! لا نريد أن نتكلم لفـتـرة من الزمن ."

هنا جلس الأربعة صامتين ، إلى جانب باول استقرت على المقعد يد توسنيلدي ، يد امرأة طويلة ودقيقة بأصابع رفيعة وأظافر أنيقة معتنى بها وتلمع لمعاناً خفيفاً . نظر باول إلى اليد باستمرار فقد ظهرت من كم واسع ذي لون رمادي فاتح ، أبيض مثل بياض الذراع الظاهر إلى ما فوق المعصم ، فقد انثنت من المعصم قليلاً إلى الخارج واستقرت في هدوء تام لكأنها كانت متعبة .

صمت الجميع . وفكر باول بمساء أمس .

في ذلك الوقت كانت اليد نفسها قد تدلت ساكنة هادئة وطويلة أيضاً مثل هذا الطول والقدّ كله الذي كان بين جلوس واستلقاء هكذا من دون حراك . فقد ناسبها هذا وناسب قدها وثيابها وصوتها الناعم نعومة لطيفة والذي لم يكن حراً كل الحرية أو طليقاً ، وناسب وجهها الذي بدا بالعينين الهادئتين هكذا فطناً ومترقباً ورزيناً .

نظر السيد هومبورغر إلى الساعة .

" المعذرة أيتها السيدتان ، عليّ أن أمضي إلى العمل . ستبقى هنا يا باول ؟"

انحنى ومضى .

بقي الآخرون جالسين في صمت . كان باول قد قرب يسراه من يد المرأة ببطء وحذر مليء بالخوف مثل مجرم ، ثم تركها تستقر

لصقها . لم يعرف لماذا فعل ذلك . فقد حدث رغم إرادته . وفي أثناء ذلك أحس بخوف خانق جداً وأن الجو صار حاراً جداً بحيث إن جبينه تصبب عرقاً .

" لا أحب أن ألعب أيضاً الكروكيت " ، قالت بيرتا بصوت خافت ، كما لو كانت تتكلم من حلم . وبذهاب المعلم الخاص نشأ بينهما وبين باول فراغ ، وكانت قد فكرت طوال الوقت فيما إذا كان عليها أن تقترب من باول أم لا . فكلما طال ترددها استصعبت الأمر دائماً أكثر بأن تقوم بذلك ، وها قد بدأت ذلك لا لشيء إلا لكي لا تحس بأنها وحيدة أكثر من ذلك .

" الحق أنها ليس بلعبة ظريفة . " أضافت بعد توقف طويل بصوت مضطرب . لكن ما من أحد أجاب .

ساد صمت من جديد . اعتقد باول أن قلبه توقف عن الخفقان . فقد حدا به لأن يهمّ واقفاً وأن يقول أي شيء مضحك أو سخيف أو أن يولّي مسرعاً . إلا أنه ظل جالساً ، وترك يده في مكانها وأحس كما لو أن الهواء قد منع عنه تدريجياً إلى حد الاختناق . إلا أنه كان ممتعاً بطريقة محزنة مؤلمة .

نظرت الآنسة توسنيلدي في وجه باول نظرتها الهادئة المتعبة قليلاً . ورأت أن نظره ثبت على يده اليسرى التي كانت إلى جانب يدها اليمنى على المقعد . عندها رفعت يدها اليمنى قليلاً ووضعتها

بشكل ثابت على يد باول وتركتها لتستقر هناك .

كانت يدها طرية ، لكنها قوية ذات دفء جاف . وذعر باول مثل لص بوغت وبدأ يرتعش ، إلا أنه لم يسحب يده . كاد نفسه أن يتوقف ، كانت دقات قلبه تضرب بقوة ، وجسمه اشتعل ناراً واقشعر برداً في آن واحد . وشيئاً فشيئاً امتقع لونه ونظر إلى الآنسة نظرات الخوف والتوسل .

ضحكت ضحكة خافتة :" هل أنت مرعوب ؟أعتقد أنك كنت قد غفوت " .

لم يستطع أن يقول أي شيء . كانت قد سحبت يدها ، أما يده فكانت لا تزال حيث هي وظل يحس باللمس دائماً . وتمنى أن يسحبها إلا أنه كان من الضعف والبلبلة ما جعله عاجزاً عن التفكير بأي شيء أو اتخاذ أي قرار والقيام بأي شيء ، حتى ولا هذا .

فجأة أرعبه صوت مخنوق مليء بالخوف تناهى إليه من خلفه . تحرر وقام بسرعة آخذاً نفساً عميقاً . كما أن توسنيلدي نهضت أيضاً .عندها جلست بيرتا وانحنت إلى الأسفل ونشجت بالبكاء .

قالت توسنيلدي لباول : " ادخل أنت . سنلحق بك على الفور ."

وحين انصرف ، أضافت أيضاً :" أصابها صداع ."

" تعالي يا بيرتا . الجو حار جداً هنا . فالمرء يختنق من الرطوبة . تعالي وتمالكي نفسك ! نريد الذهاب إلى البيت ."

لم تحر بيرتا جواباً . استقر عنقها النحيل على الكم الفاتح الزرقة ، كمّ فستان المراهقة الشفاف الذي تدلى منه الذراع النحيل غير الرشيق ذي المعصم العريض . وشرقت بالدمع في صمت وخفوت إلى أن انتصبت بعد فترة غير قصيرة محمرة ومدهوشة ومسحت شعرها إلى الخلف وبدأت تبتسم ببطء وعلى نحو آلي .

لم يجد باول راحة . لماذا وضعت توسنيلدي يدها هكذا فوق يده؟ هل كانت مجرد دعابة ؟ أم عرفت كم آلم هذا ألماً غريباً ؟ وكلما تصور هذا شعر من جديد الشعور نفسه ؛ تشنج خانق لأعصاب كثيرة أو عروق ، وضغط ودوار خفيف في الرأس ، حرارة في الحلق ، وغليان للقلب غريب مختلف اختلافاً قاتلاً كأن النبض توقف . إلا أنه كان لذيذاً بقدر ما آلم .

ومرّ بالبيت إلى الغدير وسار في ممرات الفاكهة جيئة وذهاباً . في أثناء ذلك كانت الرطوبة تزداد باستمرار . كانت السماء قد تلبدت كلها بالغيوم وبدت تنذر بعاصفة مصحوبة بالبرق والرعد . لم تهب ريح ، إنما بين الحين والآخر كان في الأفنان شؤبوب خفيف متردد ، ارتجفت مرآة الغدير الملساء الباهتة لحظة من الزمن ارتجافاً مجعداً فضياً .

رأى الشاب القارب الصغير العتيق الذي كان مربوطاً إلى الضفة المعشوشبة ، صعد إليه وجلس على مقعد المجذف الذي كان لا يزال موجوداً . على أنه لم يفكّ القارب . إذ أنه لم يكن هناك منذ زمن أية

مجاذيف . غطّ يديه في الماء ، وكان هذا فاتراً على نحو مقيت . وفجأة داهمته كآبة لا أصل لها وكانت غريبة عليه كل الغرابة . وخيّل إليه كأنه في حلم مزعج ، كما لو أنه عجز عن تحريك أي عضو كلما أراد ذلك . فالضوء الخافت والسماء الملبدة بالغيوم الداكنة ، والغدير الضبابي الفاتر والقارب الخشبي العتيق المغطى في القرار بالطحلب من دون مجاذيف ، بدا هذا كله مكروباً ، محزوناً بائساً مستسلماً لوحشة شديدة مملة شارك فيها من غير ما سبب .

سمع عزف بيانو تناهى إليه من البيت ، خافتاً غير واضح . إذاً كان الآخرون في الداخل ، وأغلب الظن أن الأب كان يعزف لهم لحناً . وسرعان ما عرف باول القطعة الموسيقية أيضاً ، كانت من موسيقا "بيير غونت " لغريغ ، وكان يودّ الدخول . إلا أنه بقي جالساً وحدق من فوق الماء الخامل عبر غصون الفاكهة الساكنة المتعبة في السماء المتقعة اللون ، حتى إنه لم يستطع أن يترقب في سرور العاصفة الرعدية كالمعتاد ، مع أنه كان لا بد أن تقع بالتأكيد عما قريب وستكون العاصفة الرعدية الحقيقية الأولى في هذا الصيف .

ثمّ توقف عزف البيانو ، وعمّ سكون برهة من الزمن . إلى أن تناهت إلى الأسماع عدة إيقاعات ناعمة منعشة على نحو موزون ، موسيقا خجولة غير عادية . والآن أغنية ، صوت امرأة . كان باول يجهل هذه الأغنية ، لم يسمعها قط ، كما أنه لم يفكر في ذلك أيضاً . أما

الصوت فقد عرفه ، الصوت المخفض تخفيضاً ضعيفاً والمتعب قليلاً .
كان هذا صوت توسنيلدي . ربما لم تكن أغنيتها شيئاً مميزاً ، إلا أنه أثّر في الصبي وأثاره أيضاً على نحو مقبض ومؤلم مثل ملامسة يدها .
وأصاخ السمع من دون أن يتحرك ، وبينما كان جالساً يصيخ السمع سقطت في الغدير أولى قطرات المطر الخاملة سقوطاً فاتراً وثقيلاً .
وأصابت يديه ووجهه من دون أن يشعر بها . أحس فقط أنّ شيئاً ملحاً ومختمراً متوتراً حوله وفي أعماقه يتكثف ويتكتل ويبحث عن مخرج .
في الوقت نفسه خطر بباله موضع من قصة < أيكارد > ، وفي هذه اللحظة فاجأته وأخافته فجأة المعرفة الأكيدة . فقد عرف أنه يحب توسنيلدي . وفي الوقت نفسه عرف أنها كانت بالغة وسيدة ، أما هو فكان تلميذ مدرسة ، وأنها سترحل غداً .

ثمّ رنّ جرس المائدة ذو النغمات الحادة - وكان الغناء قد صمت لحظة من الزمن . سار باول الهوينى إلى المنزل . أمام الباب مسح قطرات المطر عن يديه وأرجع شعره إلى الوراء وتنفس تنفساً عميقاً كما لو أنه كان على وشك القيام بخطوة صعبة .

شكت بيرتا :" ها إنّ السماء تمطر الآن . إذاً لن يتحقق شيء؟"

" أي شيء ؟" سأل باول من دون أن يرفع بصره عن الصحن .

" كنا - كنت قد وعدتني أن تسير بي إلى آيشيلبيرغ ."

"هكذا . لا ، فهذا غير ممكن في هذا الطقس ."

كان في نفسها ما يشبه التوق إلى أن ينظر إليها وأن يسألها عن صحتها . وكانت شبه مسرورة أنه لم يفعل ذلك . كان قد نسي كلياً اللحظة المؤلمة تحت الصفصافة ، لحظة انفجرت باكية . هذا الانفجار المفاجىء بالبكاء كان له على كل حال أثرٌ ضئيل في نفسه ولم يقوّه إلا في يقينه أنها لاتزال فتاة صغيرة جداً . وعوض من أن ينتبه إليها كان ينظر بصورة دائمة بطرف عينيه صوب الآنسة توسنيلدي .

كانت هذه تتحدث مع رب البيت الذي خجل من دوره الغبي أمس ، حديثاً حامياً حول أمور رياضية . كانت حال السيد هومبورغر في أثناء ذلك كحال الكثيرين ؛ فقد تكلم عن أشياء لم يفهم منها شيئاً ، على نحو فيه مجاملة وسلاسة أكثر مما كان حديثه عن مثل تلك التي كانت مألوفة له ومهمة . وفي أغلب الأحيان كان الحديث للسيدة ، وكان يكتفي هو بالأسئلة والإيماء والموافقة وبعبارات تملأ وقفات صمت . إنّ فن المحادثة المداعب بعض الشيء عند السيدة الشابة حرره من طريقته البليدة المعهودة ؛ لا بل إنه أفلح ، حين أخطأ في صب النبيذ ، في أن يستخف هو نفسه بالشيء ويعتبره دعابة . على أنّ رجاءه المدبّر بمكر ودهاء لأن يقرأ للآنسة بعد الأكل فصلاً من أحد كتبه الأثيرة ، تمّ رفضه بلطف وأدب .

سألت العمة غريته : " لم يعد عندك صداع ، يا بنية؟"

"لا ، على الإطلاق " ، قالت بيرتا بصوت خافت . إلا أنها بدت مريضة بما فيها الكفاية .

" يا لكما من ولدين !" خطر ببال العمة التي لم يغب عنها اضطراب باول أيضاً . كان لديها حتى الأحاسيس الباطنية وقررت ألا تزعج الشابين من غير موجب ، إنما أن تنتبه وتمنع الحماقات . كان هذا عند باول أول مرة ، وكانت متأكدة من ذلك . و إلام بعد ، ولسوف يستقل عنها ويجنّب سبيله نظراتها !- يالكما من ولدين !

في الخارج كاد الظلام أن يحل . وسال المطر وخف مع هبات الريح المتبدلة ، والعاصفة الرعدية ظلت مترددة ، والرعد ظل يدوي على بعد أميال .

" أتخافين من العاصفة الرعدية ؟" سأل السيد هومبرغر جارته الجالسة إلى المائدة .

" على العكس ، لا أعرف شيئاً أجمل . في وسعنا أن نذهب إلى الكشك فيما بعد ونتفرج . هل تأتين معنا يا بيرتا ؟"

" إذا شئت ، نعم ، بكل سرور ؟"

" وأنت أيضاً أيها السيد المرشح ؟ حسن ، إنني أتطلع إلى ذلك بتشوق . إنها العاصفة الرعدية الأولى هذا العام . أليس كذلك ؟"

بعد الأكل مباشرة انطلقوا ومعهم المظلات إلى الكشك القريب . وأخذت بيرتا معها كتاباً .

شجعت العمة :" ألا تريد أن تنضم إلى هؤلاء يا باول ؟"

" شكراً ، لا ، يجب أن أتمرن ."

ذهب في فوضى من المشاعر المؤلمة إلى غرفة البيانو . ولكن ما إن بدأ بالعزف حتى احتار هو نفسه ماذا يعزف ، إلى أن دخل الأب .

" يا بني ، ألا يمكنك أن تنتقل إلى بعض الغرف الأخرى ؟ أحسنت أنك أردت التمرين ، لكن كل شيء له أوانه ، ونحن المتقدمين في السن نود أن نحاول النوم قليلاً في هذه الرطوبة .إلى اللقاء ، يا بني ! "

خرج الصبي واجتاز غرفة الطعام ، عبر الممر إلى البوابة . في الجانب الآخر رأى الآخرين يدخلون كشك الحديقة . وحين سمع وراءه خطوة العمة الوئيدة خرج إلى العراء مسرعاً وابتعد مسرعاً مكشوف الرأس واليدان في الجيب ، عبر المطر . وازداد الرعد بصورة دائمة وانفجرت بروق أولى خجولة وتهزّمت متوهجة في العشب الضارب إلى السواد .

دار باول حول البيت متجهاً صوب الغدير .

شعر بألم عصيّ أنّ المطر ينفذ إلى ثيابه ، على أن الهواء المعلّق لم ينتعش بعد ، سخنه بحيث إنه عرض كلتا يديه وذراعيه النصف عاريتين إلى قطرات المطر المتساقطة بشدة .

في ذلك الوقت كان الآخرون يجلسون معاً في كشك الحديقة مبتهجين وكانوا يضحكون معاً ويثرثرون ، وما من أحد فكر به . نازعته نفسه إلى هناك ، إلا أن عناده طغى ، وإذا كان قد رفض المجيء معهم ، فإنه أبى أن يجري وراءهم أيضاً . وتوسنيلدي لم تدعه على الإطلاق .

فقد طلبت من بيرتا والسيد هومبرغر المجيء معها إلى كشك الحديقة ، ولم تطلب منه ، لماذا لم تطلب منه هو !

وصل مبللاً من فوق إلى تحت ، من دون أن يلقي بالاً إلى الطريق . وتلاحقت البروق من فوق إلى تحت عبر السماء في خطوط عريضة على نحو رائع بارع ، وهدر المطر بصوت أعلى . وتحت السلم الخشبي الخاص بكشك البستاني تناهت إليه صلصلة ، وبدويّ حبيس خرج كلب المزرعة الكبير . حين تعرف على باول التصق به مسروراً ومتزلفاً إليه . وضع باول ذراعه حول عنقه في حنو فائض فيضاً مفاجئاً وسحبه إلى زاوية السلة التي أصبحت معتمة وبقي معه هناك مقرفصاً وتكلم معه وداعبه ولم يعرف إلى متى .

في كشك الحديقة كان السيد هومبرغر قد دفع طاولة الحديقة الحديدية إلى الحائط الخلفي المقام والذي رسمت عليه مناظر ساحلية إيطالية . فالألوان المشرقة ، الأزرق والأبيض والوردي ، كانت تنسجم انسجاماً سيئاً مع لون المطر الرمادي ، وبدت رغم الرطوبة أنها تحس بالبرد .

قال السيد هومبرغر : " الطقس رديء من أجل إيرلينهوف ."

" لماذا ؟ إنني أرى العاصفة الرعدية رائعة ."

" وأنت أيضاً يا آنسة بيرتا ؟"

" يحلو لي أن أرى هذا ."

لقد أغضبه أن الصغيرة قد جاءت معهم . والآن بالذات حين بدأ

يتفاهم مع توسنيلدي الجميلة على نحو أفضل .

" وستسافرين غداً من جديد ؟"

" لماذا تقول هذا بطريقة مأساوية ؟"

" لا بد أن يؤلمني هذا ."

" حقاً ؟"

" يا حضرة الآنسة –" .

كان المطر يهطل على السطح الرقيق ويتدفق في دفعات شديدة من خلال الميازيب .

" هل تعلم أيها السيد المرشح أن تلميذك هذا شاب لطيف ؟ لا بد أن يكون متعة أن تدرّس واحداً مثله ؟ "

" هل تعنين ما تقولين ؟"

" بكل تأكيد ، إنه شاب رائع ، أليس كذلك يا بيرتا ؟"

" لست أدري ، لم أره إلا نادراً ."

" ألا يعجبك ؟"

" بلى . إنه ليعجبني ."

" ماذا تمثل هذه اللوحة الجدارية هناك ، أيها السيد المرشح ؟ تبدو مناظر من الريفييرا ؟"

كان باول قد عاد إلى البيت بعد ساعتين مبللاً من رأسه إلى أخمص قدميه ومتعباً جداً ، وكان قد استحم بالماء البارد وبدل ثيابه .

ثم انتظر إلى أن عاد الثلاثة إلى البيت ، وحين جاؤوا وعلا صوت توسنيلدي في الممشى أصابته رجفة وخفق قلبه خفقاناً شديداً . ومع هذا قام بشيء ما كان يعتقد قبل ذلك بلحظة أنه نفسه يملك الشجاعة لذلك .

حين صعدت الآنسة السلم وحدها ترقبها وفاجأها في الدهليز العلوي . تقدم صوبها وقدم لها باقة ورد صغيرة . وورود برية كان قد قطفها في الخارج في المطر .

سألت توسنيلدي :" هل هذا لي ؟" .

" أجل ، لك ."

" بم استحققت هذا ؟ خفت من أنك لا تطيقني ."

" يا إلهي ، إنك تسخرين مني ."

" بالتأكيد لا ، يا عزيزي باول ، أشكرك شكراً جزيلاً على الزهور . وورود برية ، أليس كذلك ؟"

" ورد النسرين ."

" أريد أن أشكّ واحدة منها ، فيما بعد ."

ومن ثم تابعت سيرها إلى غرفتها .

في المساء بقي المرء جالساً هذه المرة في الصالة . كان الجو قد تلطف ، وفي الخارج ظلت القطرات تسقط من الغصون التي غسلت غسلاً تاماً . كان في نيّته أن يعزف ، إلا أن البروفسور آثر أن يقضي

بضع ساعات في الحديث مع أبديريك .

وهكذا تفسح الجميع في جلستهم في الصالة الكبيرة ، فالسادة دخنوا ، والشباب كانت أمامهم كؤوس عصير الليمون .

كانت العمة تشاهد مع بيرتا مجموعة صور وكانت تحكي لها قصصاً قديمة ، وكانت توسنيلدي طيبة المزاج وضحكت كثيراً . كان الحديث الطويل الخائب في كشك الحديقة قد أنهك المعلم الخصوصي كثيراً ، فقد أرهقت أعصابه من جديد وهز عضلات وجهه متألماً . لقد وجد الأمر مبتذلاً أنها غازلت الآن على نحو مضحك الصبي باول ، وبحث بطريقة دقيقة لاختيار وسيلة ليقول لها هذا .

كان باول أكثر الجميع حيوية ونشاطاً . لقد حملت وروده في الحزام وكانت قد خاطبته " عزيزي باول " . ولعب هذا لعب الخمر في رأسه . فقد روى نكاتاً وحكى حكايات ، وكانت له وجنتان متوردتان ولم يبعد نظره عن آنسته التي رحبت بتودداته ترحيباً بالغ اللطف والرشاقة . وفي أثناء ذلك كان صوت يهتف في أعماق روحه بدون انقطاع : " غداً سترحل ! غداً سترحل ! "

وكلما علا الهتاف وازداد إيلاماً ، ازداد تشبثاً باللحظة الجميلة في لهفة زائدة وازداد تبسطاً في الحديث إثر ذلك .

أما السيد أبديريك الذي أصغى لحظة إلى الجهة الأخرى فقد هتف ضاحكاً :" أنت تبدأ مبكراً ، يا باول !"

لم ينزعج . وللحظات تملكته رغبة ملحة في الخروج . لكن لا ، لا !

في أثناء ذلك كانت بيرتا قد خاطبت العمة مخاطبة "الصديق" ، واستسلمت لحمايتها بامتنان . أحست كأن عبئاً أثقل كاهلها ، ذلك أن باول رفض أن يعر ف عنها وحدها أي شيء وأنه لم يوجه إليها طوال النهار كلمة واحدة تقريباً ، واستسلمت متعبة وتعيسة لحنان العمة العطوف .

كان السيدان العجوزان قد بزّ كل منهما الآخر في تجديد الذكريات وما أحسا بشيء تقريباً من أنه بجانبهما أهواء شابة تتعارض وتتصارع فيما بينها .

سقط السيد هومبرغر أكثر فأكثر . ولم يلق بالاً تقريباً إلى أنه كان بين الفينة والأخرى يقذف في الحديث بنكتة مسمومة بشكل ضعيف ، وكلما ازدادت المرارة والثورة في نفسه قلّ نجاحه في أن يجد الكلمات . فالكيفية التي نسي باول فيها نفسه ولم يضبط نفسه فيها وجدها تصرفاً صبيانياً والكيفية التي استجابت فيها الآنسة لذلك ، وجدها لا تغتفر . وما كان أحبّ إليه من أن يمسّي بالخير مودعاً ويمضي . إلا أن هذا كان سيبدو حتماً مثل اعتراف أنه أفرغ ما في جعبته قبل الأوان وبات عاجزاً عن القتال ، وآثر أن يبقى حيث هو ويقاوم ويجالد . وإذا كانت روح توسنيلدي اللعوب تلعاباً فرحاً ومرحاً مساء اليوم في نظره بشعاً مقيتاً ، فإنه ما كان ليرغب في أن يفارق الآن منظر حركاتها الخفيفة ووجهها المتورد توردا خفيفاً .

سبرت توسنيلدي غوره ، ولم تكلّف نفسها عناءً في أن تخفي مسرتها باهتمامات باول المتيمة ، ذلك أنها رأت أن ذلك يغضب المرشح ، وهذا الذي لم يكن في أية حال من الأحوال إنساناً ذا قوة جسدية كبيرة ، أحس أن غيظه قد تحول تدريجياً إلى ذلك الاستسلام الواهي المحزن حزناً أنثوياً والذي كان قد أنهى به الآن كل محاولة من محاولات الحب تقريباً . هل سبق أن فهمته امرأة وقدرته بحسب قيمته . ياللتعاسة ، لكنه كان فناناً بما يكفي لأن يستمتع بخيبة الأمل أيضاً ، وبالبقاء وحيداً مع كل مكامن مفاتنها ومحاسنها . ولو بشفة مرتعشة ، لكنه استمتع بذلك ، ولو أنه لم يقدر حق قدره وتم رفضه ، إلا أنه كان البطل في المشهد ، وحامل الطبيعة المأساوية الصامتة مبتسماً والخنجر في صدره .

لم يفترق الناس إلا متأخرين . حين دخل باول إلى غرفة نومه الباردة رأى من خلال النافذة المفتوحة السماء مغطاة بسحب رقيقة خفيفة بيضاء كالحليب وساكنة ، واخترق غلالتها ضوء القمر ناعماً وقوياً وانعكس آلاف الانعكاسات في أوراق أشجار الحديقة البليلة . بعيداً فوق التلال ، وعلى مقربة من الأفق ، أضاءت قطعة من السماء الصافية على نحو ضيق ممتد في الطول مثل جزيرة ضياءً رطباً وخفيفاً ، وكان فيها نجم وحيد شاحب .

أطال الصبي النظر في الخارج ، ولم ير هذا إلا موجاناً خافتاً وأحس حوله بأنسام صافية مبردة تبريداً منعشاً وسمع أصواتاً عميقة لم

تسمع قط مثل أعاصير بعيدة وتنفس الهواء الرقيق لعالم آخر . وقف عند النافذة وقد أمال جسده إلى الأمام ونظر من دون أن يرى ، مثل من عمي بصره ، وقد امتدت أمامه على نحو غامض وشديد دنيا الحياة والأهواء ، تهزها أعاصير حارة وتظللها سحائب ثقيلة الوطأة معتمة .

كانت العمة آخر الذين ذهبوا إلى النوم . كانت قد تفحصت الأبواب ومصارع النوافذ بحذر ويقظة ، وتطلعت إلى الأضواء وألقت بنظرة إلى المطبخ المعتم ، ثم توجهت إلى حجرتها وجلست على ضوء الشموع في كرسيها العتيق الطرز . عرفت الآن ما كان عليه الصغير ، وكانت مسرورة في أعماقها أنّ الضيوف نووا الرحيل في الغد . ليت كل شيء انتهى نهاية طيبة ! كان غير عادي أن تفقد ولداً مثل هذا بين عشية وضحاها . إذ أنها عرفت أنه يجب ألا يكون لها سلطان على روح باول ، وأنها يجب أن تستغلق عليها أكثر فأكثر ، ورأته ، وهي مهمومة وقلقة ، يقوم بأولى خطواته الشبابية في حديقة الحب التي لم تتذوق هي نفسها من ثمرها على أيامها إلا القليل والثمار المرة تقريباً . ثم تذكرت بيرتا وتنهدت ، ثم ابتسمت قليلاً وعبثت بعدها طويلاً في أدراجها عن هدية وداع مواسية للصغيرة . وفي أثناء ذلك ذعرت على حين غرة حين رأت أن الوقت قد تأخر .

فوق البيت النائم وفوق الحديقة التي أدغشت هدأت الغيوم البيضاء الخفيفة ، والجزيرة السماوية على الأفق امتدت ببطء إلى حقل واسع نقي واضح الظلمة ، وقد توهجت أنجم تشع إشعاعاً ضئيلاً .

وامتـد فوق أبعد التلال خط فضي لطيف قليل العرض يفصلها عن السماء . وفي الحديقة تنفست الأشجار المنتعشة من الأعماق تنفس المستريح ، وعلى مرج الحديقة العامة تبادلت دائرة الظلام السوداء الخاصة بشجرة الزان النحاسية مع ظلال غيوم رقيقة معدومة الشكل .

تصاعد الهواء اللطيف الذي مازال مشبعاً بالرطوبة بلطف نحو السماء الصافية صفاء تاماً . كان على الساحة المفروشة بالحصى وعلى الطريق العام بركٌ صغيرة لمعت لمعاناً ذهبياً أو عكست الزرقة الرقيقة . ومرت العربة وهي تطقطق وصعد المرء إليها . وانحنى المرشح عدة انحناءات خفيفة ، وأومأت العمة بتحية ملؤها المحبة والحنان وصافحت الجميع مرة ثانية ، وتتبعت الخادمات بأعينهن الرحيل من أقصى الدهليز .

جلس باول في العربة مقابل توسنيلدي ومثّل دور المسرور المبتهج وأثنى على الطقس الجميل وتكلم بالثناء عن النزهات الرائعة في أثناء العطلة إلى الجبال والتي ينوي القيام بها ، وامتص في نهم كل كلمة وكل ضحكة للفتاة . وفي الصباح الباكر كان قد تسلل بضمير معذب إلى الحديقة وكان قد قطف أجمل الوردات الصفراء المتفتحة نصف تفتح في حوض أبيه المفضل المعتنى به عناية دقيقة . وحمل هذه الآن ، وقد وضعها بين ورقة حريرية وأخفاها في جيب السترة العلوي وكان قلقاً دائماً من أن يكسرها . كما أنه كان خائفاً من أن أباه قد يكتشف ذلك .

كانت بيرتا الصغيرة هادئة هدوءاً تاماً ، وأبقت غصن الياسمين

المتفتح أمام الوجه ، الغصن الذي كانت العمة قد أعطتها إياه . كانت في الحقيقة سعيدة نوعاً ما لكي ترحل الآن .

سألت توسنيلدي في غبطة : " هل لي أن أبعث لك بطاقة ذات يوم ؟" .

" أجل ، ولا تنسي هذا ! سيكون هذا جميلاً ."

ثم أضاف :" ثم إنّ عليك أن توقّعي يا آنسة بيرتا ."

ارتعشت قليلاً وأومأت .

قالت توسنيلدي :" حسن إذاً ، آمل أن تتذكر ذلك أيضاً ."

" أجل ، سأتذكرك ."

هنا وصل المرء إلى المحطة ، وكان على القطار أن يأتي في ربع ساعة . وشعر باول بأن ربع الساعة هذا مثل إمهال قضائي لا يقدر . إلا أن حالته كانت غريبة ، فمنذ أن غادر المرء العربة وتمشّى أمام المحطة جيئة وذهاباً لم تعد تخطر بباله أية كلمة أو نكتة . ضاق صدره فجأة وكان على حين غرة صغيراً ، وكثيراً ما أنصت إلى الساعة وأنصت إن كان القطار الآتي مسموعاً . ولم يسحب وردته إلا في اللحظة الأخيرة ودسها عند سلم العربة في يد الآنسة . أومأت برأسها منشرحة الصدر وصعدت . ثم انطلق القطار ، وانتهى كل شيء .

قبل العودة مع أبيه اقشعر بدنه ، وحين صعد الأب عاد هو

وسحب قدمه عن سلم العربة ، وقال : " الحق أني لأرغب في أن أتمشى إلى البيت ."

" شعور بالذنب ، يا صغيري باول ؟"

" لا يا أبتاه ، إن في وسعي أن آتي معك أيضاً ."

على أن السيد أبديريك أومأ بالنفي ضاحكاً ، وانصرف وحده .

دمدم في طريقه بينه وبين نفسه : " ما عليه إلا أن يتحمل هذا ، وهذا لن يقتله ." وتذكر منذ سنوات أول مرة مغامرته الغرامية الأولى ، وعجب كيف أنه مازال يعرف كل شيء . والآن إذاً كان الدور على صغيره ! إلا أنه أعجبه أن الصغير كان قد سرق وردة . وكان قد رآه .

في البيت بقي واقفاً لحظة من الزمن أمام خزانة الكتب في غرفة الجلوس . تناول رواية فيرتر ودسها في جيبه ، إلا أنه أخرجها مرة أخرى وقلبها قليلاً وأخذ يصفر لحن أغنية وأعاد الكتاب إلى مكانه .

في أثناء ذلك كان باول يسير إلى المنزل على الطريق العام الحار وسعى في أن يتخيل المرة تلو المرة صورة توسنيلدي الجميلة . لم يفتح عينه ولم يفكر بما ينبغي عليه فعله الآن إلا حين بلغ سياج الحديقة العامة متراخياً يتصبب عرقاً . هنا جذبته الفكرة التي خطرت بباله من غير مقاومة إلى شجرة الصفصاف . وقصد الشجرة برغبة جياشة وانسلّ من بين الغصون إلى المكان نفسه من المقعد حيث كان قد جلس أمس بجانب توسنيلدي وحيث كانت قد وضعت يدها على

يده . أغمض عينيه وترك يده ملقاة على الخشب وأحس مرة أخرى بالإعصار كله الذي كان قد اجتاحه أمس وأسكره وعذبه . وتماوج حوله لهيبٌ وهاجت بحور وترجرجت أنهار ساخنة منطلقة كالريح على أجنحة أرجوانية .

طال جلوس باول على المقعد ومن ثم تناهى إلى السمع وقع خطوات شخص تقدم منه . رفع نظره مرتبكاً ، وقد انتزع من وسط مئات الأحلام ، ورأى السيد هومبرغر واقفاً أمامه .

" ها أنت هنا ، يا باول ؟"

" لا ، كنت في المحطة وعدت ماشياً ."

" وها أنت تجلس هنا وأنت حزين ."

" لست حزيناً ."

" ليكن إذاً ، الحق أني رأيتك أنشط وأخف روحاً ."

لم يحر باول جواباً .

" الحق أنك اهتممت كثيراً بالسيدات ."

" أهذا رأيك ؟"

" لا سيما بواحدة . كنت سأميل إلى الاعتقاد أنك ستفضل الفتاة الأصغر سناً ."

" الفتاة المراهقة ؟ هه ."

" تماماً . الفتاة المراهقة ."

هنا رأى باول أن المرشح قد ابتسم ابتسامة شماتة مزعجة ، ومن دون أن ينبس ببنت شفة ، استدار وانصرف عبر المرج .

على الغداء كان الوضع هادئاً للغاية .

" يبدو أننا كلنا متعبون قليلاً " ابتسم السيد أبديريك . " وأنت أيضاً يا باول ، وأنت أيها السيد هومبرغر ؟ إلا أنها كانت تسلية لطيفة . أليس كذلك ؟"

" بكل تأكيد أيها السيد أبديريك ."

" لم تتحدث مع الآنسة بشكل جيد ؟ يقال فيها إنها كثيرة الإطلاع جداً ."

" باول يجب أن يكون على علم بهذا ."

" مما يؤسف له أنني لم أتحدث معها إلا للحظات ."

" ما رأيك في هذا ، يا باول ؟"

" أنا ؟عمن تتكلمون ؟"

" عن الآنسة توسنيلدي . إذا لم يكن لديك مانع . يبدو أنك شارد التفكير بعض الشيء ."

خطر ببال العمة :"كم يكون الصبي اهتم بالسيدات" .

عاد الجو حاراً . وشع الدهليز حرارة ، وعلى الشارع كانت آخر برك المطر قد جفت . وعلى المرج المشمس انتصبت شجرة الزان النحاسية العتيقة يغمرها الضوء الدافىء ، وعلى أحد أغصانها القوية جلس باول أبديريك الشاب ، مستنداً إلى الجذع وقد أحاطت به ظلال الأوراق

السوداء الضاربة إلى الحمرة . كان هذا المكان القديم المفضل للصبي ، كان هناك في أمان من كل مفاجأة . هناك على فرع شجرة الزان كان قد قرأ بطريقة سرية في الخريف وقبل ثلاث سنوات " اللصوص " ، وهناك كان قد دخن نصف اللفافة الغليظة الأولى ، وهناك كان قد نظم قصيدة الهجاء الأولى في أستاذه الخصوصي السابق والذي كانت عمته قد قامت قيامتها عند اكتشافها إياها . تذكر هذه الأزمان ومقالب أخرى بشعور الاستعلاء والتسامح ، كما لو أنّ هذا كان منذ أزمان مغرقة في القدم . تصرفات الأطفال ، تصرفات الأطفال!

نهض متنهداً واستدار باحتراس في المقعد ، أخرج سكينه وأخذ يحفر في الجذع . كان ينبغي أن يتشكل قلب من ذلك تضمن حرف ت ، ونوى أن يخرج هذا في شكل جميل ونظيف حتى لو أنه احتاج من أجل ذلك إلى عدة أيام .

و في المساء نفسه توجه صوب البستاني كي يسن له السكين . وهو نفسه داس على العجلة لهذا الغرض . في طريق العودة جلس إلى وقت قصير في القارب العتيق وحرك يده في الماء وحاول أن يتذكر لحن الأغنية التي كان قد سمعهم يتغنون بها مساء أمس من هنا . كانت السماء قد اكتسى نصفها بالغيوم وبدا كما لو أن عاصفة رعدية ستأتي في الليل .

(١٩٠٥)

الميكانيكي المساعد

كان عمري آنذاك يتراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة . وحين انتهت سنتي الأولى من التدريب المهني في المعمل الميكانيكي دخل عندنا مساعد جديد اسمه سبيدن .

كان يضرب في الأرض في سلاسة وانقياد قبل العمل الذي قدمه له معلمنا ، رغم أنه كان في أجمل ربيع .

حين دخل محيياً تحية الحرفيين لفت سلوكه انتباهنا على الفور . لم يعجبنا . فالميكانيكيون لا بل وصانعو السيارات قلما أنكروا آنذاك في تجوالهم كبرياء نقابتهم ؛ فقد راق لهم أن يظهروا في تصرفهم شيئاً من الجرأة ، وشيئاً غير مؤدب ، كما عرفوا أيضاً كيف يقفون ويتكلمون .

أما هذا فقد دخل مثل مذنب مسكين ولم ينطق بكلمة إلا بتحية الحرفيين القديمة " ميكانيكي غريب " ولم ينظر إلا إلى المعلم من دون أن يومئ إلينا نحن الزملاء برأسه . وحين تمّ تشغيله بذل في أول ربع ساعة مباشرة قصارى جهده قبل أن تقدم له وجبة خفيفة . إذاً هو لم يعجبنا .

كان اسمه سبيدن ، وانحدر ، على ما اعتقد ، من سولوتورنيشن ، إلا أنه لم يأتِ من هناك ، فقد كان يبحث زمناً طويلاً عن عمل ، والآن جاء من فرانكفورت ، وأمضى أربعة أسابيع في الطريق ، إلا أنه كانت لديه بدلة ثانية ، لا بل نقود . كان كتيب عمله وتجواله على مايرام ، لا بل كانت معه أيضاً وثيقة امتحان المتمرن . كان صعباً أن يعرف المرء كم كان عمره . فقد خمنته بنحو سبعة وعشرين ولو أنه بدا أعمر من ذلك . إذ أنه كانت له ، كما يرى المرء أحياناً عند ذوي الرؤوس العنيدة ، حركات فتية ووجه مسن . ويوجد أمثال هؤلاء .

في اليوم الأول كان سبيدن شوكة في عين صديقي كريستيان .

قال لي : " قل لي ماذا تريد . فالغريب لا يرفع رأساً ، فأنا أعرف هذا الصنف . كل ما يلزم هو أن يقف بجانب العجوز ضدنا . ولن أستغرب إن أسرع يوم الأربعاء إلى درس الورعين ."

صح هذا ولم يصح أيضاً ، فالجديد لم يذهب إلى الورعين التقويين . في المساء الأول دعي من قبلنا ، كما جرت العادة وذهب معنا أيضاً إلى مطعم " شفانين " . إلا أنه نهض في التاسعة والنصف ودفع ثمن كأسي بيرة هاناوية وعاد إلى البيت . وحين أوى إلى النوم في الحادية عشرة ، رآه كريستيان ينحي جانباً كتاباً كان يقرأ فيه .

قال كريستيان :" هؤلاء الذين يقرؤون هكذا ليلاً ثم يخفون الكتاب حين يأتي المرء ، هؤلاء في نظري هم الصالحون ."

و وافقته أنا أيضاً . لمَ ستكون القراءة نافعة ليلاً؟ كان في إمكانه أن يقرأ الصحيفة اليومية أو جريدة الميكانيكيين في أثناء وجبة العصر أو ظهراً في المعمل .

عند طرق الحديد اعترض طريق كريستيان ذات مرة على نحو يخلو من الكياسة .

صاح كريستيان في وجهه :" افسح الطريق أيها المتزلف الرعديد !"

قال سبيدن : " أنا في الوضع السليم ،لكن أنت غيّر وقفتك ."

جنّ جنون كريستيان ." الآن ستبتعد!" صرخ كريستيان ، " أو أني سأهوي بهذه المطرقة على الرأس ."

عندئذٍ امتقع لون سبيدن وابتعد . وحين أتم الطرق بعد ذلك ، توجه صوب كريستيان وقال : " أنت ، ما كان ينبغي أن تقول هذا . اسحبها !"

ضحك كريستيان : " سأسحب قذارة ."

" اسحبها . فقد تندم على ذلك ."

لكنّ صديقي الطيب غضب الآن ." اندم ؟" صرخ في وجهه ." أنت أيها الغدار الخبيث . أيها المرائي ! إن لم تعجبك الحال عندنا ، ففي وسعك أن تنصرف ، فما من أحد يعيقك ."

بدءاً من هذه اللحظة كان السويسري أهدأ من أي وقت مضى ، ولم نطقه كلنا .

في هذه الفترة انضم مساعدٌ جديد إلى الخراط كريستيان ، ولأن الخراط كان يمدنا مراراً وتكراراً ببكرات خشبية وأجزاء نماذج ، فسرعان ما عرفنا المساعد أيضاً . ذات مرة قال لي : " منذ متى عندكم هذا الرجل ، سبيدن ؟"

قلت :" منذ نيسان ."

" أهكذا . يا بختكم بشخص طيب ؟"

" ولم إذاً ؟"

" كانت له علاقة مع زوجة مدير المصنع ، وقد ضبطوه وطردوه . علاقة مع امرأة متزوجة!"

كنت آنذاك لا أزال بريئاً ولم أكن أدري أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث . ولم أصدق هذا أيضاً للمرة الأولى ولم أنقل القصة السخيفة . ليس على تلميذ متمرن إلا أن يتمكن من سد فمه . لكن ما لبث أن عرف الآخرون هذا أيضاً وانطلق كريستيان يقول هذا على الفور .

ذات صباح لم يكن المعلم حاضراً ، والتقى هو وسبيدن عند حجر الجلخ .

" أتجلخ حديداً لولبياً ؟" سأل كريستيان وضحك .

قال سبيدن : " لا ، الإزميل فقط ."

هنا ضحك كريستيان بصوت أعلى ، بحيث إننا كلنا أصخنا

السمع ، وسأل : " أنت ، يا سبيدن ، هل كانت زوجة مدير المصنع حلوة ؟"

و انتفض الآخر . ثم سأل : " عم تتكلم ؟"

ضحك كريستيان قائلاً :" تتظاهر هكذا . فالمرء يعرف فعلاتك . إلا أنه ليس هنا أي مدير مصنع تستطيع أن تغرر بزوجته ."

عندها رفع سبيدن ذراعه عالياً ، وبدا كأنه سيصرع كريستيان الآن أرضاً في الحال ، إذ أنه كان قوياً حـ ـا أ لمثا هذا الغرض . وهرب كريستيان مسرعاً وتركه وشأنه .

كان سينفع هذا الآن ، وربما كان صديقي كريستيان سيكتفي بهذا .لن يعود إلى قول شيء كهذا . أما سبيدن ، ولا بد أن يكون الشيطان قد ركبه ، فقد عاد إلى فعل شيء غير مفهوم كلياً : إنه يقترب في موعد تناول الطعام ويقول شيئاً حلواً : " يؤسفني ، يا كريستيان ، أنني أرعبتك . اعمل معروفاً ولا تعد إلى الحديث عن مثل ذلك ، وإلا ستكون هناك مصيبة ."

عقلت الدهشة لسان كريستيان لحظة من الزمن . على أنه لم ينظر ي المساعد من الآن إلا بعين الاحتقار . وراح يروي عنه نكاتاً ، كلما ستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكنا نضحك كلنا معه ، على حين كان يقف سبيدن عند ملزمته ويكتفي بالعض على أسنانه لأنه استطاع أن يسمع كل شيء . لم ينتظرني إلا مرة واحدة عند انتهاء العمل أمام الورشة ثم

قال لي : " يستحسن ألا تشارك أنت أيضاً في الضحك حين يتكلم كريستيان بمثل هذه الطريقة القبيحة الكريهة ! أنت لا تدري ما تفعل . ولا تدري كم يسيء هذا إليّ . أنت تعلم أن كريستيان نفسه ليس إنساناً طيباً ، فما يسخر به ويهزّر به ، لا أشعر به . أما أنت فلم تفسد بعد . وأنت أيضاً صبي متمرن . ولا أحب أن أسمع هذا عنك ."

لم أفهمه على الإطلاق ، كان معاوناً وكنت صبياً متمرناً . كان له أن يضربني بكل بساطة ، وما من أحد كان سيكترث لذلك . إلا أنه كان غريب الأطوار ، وأية غرابة .

كان يقرأ في المساء بصورة دائمة . في أول الأمر كان يتنزه ، وفي البداية ظننا أنه يذهب إلى فتاة ، إلا أنه لم يكن يخرج إلا وحيداً أمام المدينة ، وفيما بعد ، وحين كان يعود ، كان يجلس في حجرته ويقرأ . أراد المعلم أن يسب ويشتم ، لكن سبيدن دفع ثمن النفط بالذات . وكان زايفرت قد رأى ذات مرة كتابين من كتبه ، وكان كلاهما لتولستوي . وروى لنا زايفرت هذا ، وكريستيان قال : " أهكذا ، كتب لتولستوي ؟ إذاً من أجل ذلك يحتاج الوغد إلى النقود ."

و مع هذا أراد كريستيان أن يرى الآن بنفسه الكتب أيضاً ، إلا أنه كان مقفلاً عليها دائماً . العهد الجديد فقط كان هناك أحياناً .

قال كريستيان " إنه لا يقفل على هذا ، فهو يضعه بطبيعة الحال على المكشوف ، الأخ المنافق . إنه سيقرأ الكثير في الإنجيل !"

و صادف في مساء حار أن خرج الغريب في نزهة وكان قد نسي أن يقفل حقيبته ، ودخل كريستيان حجرته مرة ثانية وفتش ؛ عندها وجد كل شيء مكشوفاً وانقض عليه . وفضلاً عن كتب تولستوي ظهرت مختارات شعرية ومحفظة أوراق ، وما عدا هذا كتاب " الطريق إلى المعرفة أو نور من الشرق " . وفي ديوان الشعر كتب على الصفحة الأولى بيت شعر وتحية : في ذكرى أمسياتنا الخريفية ، ماتيلدي ، وفي المحفظة كان عدد من الرسائل موقعة أيضاً بتوقيع ماتيلدي ، وصورة شمسية لهذه المرأة التي بدت ظريفة مليحة ، إلا أنها لم تعد شابة . ورأيت أنا بنفسي هذه الصورة فيما بعد . وشاهد كريستيان كل شيء بشكل جيد ، وبعدها تناول قلم رصاص ، بلله وكتب شيئاً بذيئاً على ظهر الصورة الشمسية .

في اليوم التالي لم يتمالك نفسه عن أن ينقّر على سبيدن باكتشافه ." أنت !" قال له " لا شك أنها كانت أمسيات خريفية جميلة مع ماتيلدي ؟"

في تلك اللحظة كان الآخر قد أخذ بخناقه ." أنت أيها الشيطان" ، صرخ بصوت عال ، وظننا أنه يريد قتله . إلا أنه تركه فجأة ، واكتفى بالقول : " كان هذا آخر كلمة من كلماتك الكريهة الفظة ، يا كريستيان ، فإذا سمعت ذات يوم كلمة من هذا القبيل ،

كسرتك ." وركله ، وليته انهال عليه ضرباً! لكن لا ، فقد كان يكظم غيظه دائماً .

في المساء بدأت القفرة من بعد ذلك نهائياً . جلس سبيدن في مطعم على غير كل عادة وشرب . ثم عاد إلى البيت متأخراً . كان الآخرون كلهم في السرير . وأغلب الظن أنه فتح حقيبته ونظر إلى الصورة واكتشف إثر ذلك ألفاظ كريستيان البذيئة .

و على الإثر اقتحم الغرفة حيث اضطجع كريستيان بجانب زايفرت . كان لا يزال مستيقظاً .

و حين اندفع الغريب إلى سريره غاضباً إلى تلك الدرجة ، سحب الغطاء بسرعة إلى ما فوق الرأس . كان سبيدن قد حمل في يده قضيباً ضخماً من الحديد المطروق ، وبهذا هوى مرتين بكل مالديه من قوة على الشخص المختبئ . ثم صرخ عالياً جداً بحيث إن زايفرت استيقظ على ذلك وولى هارباً إلى الغرفة وإلى البيت .

الآن أفاق الجميع . فكريستيان ، كما اتضح ، كان فاقد الوعي ؛ إلا أنه لم تنكسر عنده إلا ترقوة . وبعد أربعة عشر يوماً عاد إلى التنقل هنا وهناك .

أما سبيدن فلم يجده المرء إلا بعد يومين في غابة المدينة الخلفية . وهناك كان يجلس ، كما لوأنه كان متعباً ، بين الأدغال على الأرض

الطحلبية ، إلا أنه لم يعد يتنفس . كان قد قطع الشريانين كليهما .

من هذه اللحظة تفككت عرى صداقتي مع كريستيان أكثر فأكثر ، وما لبث أن سافر هو أيضاً متنقلاً ، مع أن الصيف كان قد أوشك على الانتهاء .

(١٩٠٥)



المغامرة الأولى

ياللعجب كيف يمكن أن يصبح شيء معاشٌ غريباً عن شخص ما ويمكن أن يفلت من يده ! سنوات بكاملها مع آلاف التجارب يمكن أن تضيع من شخص ما . وكثيراً ما أرى أطفالاً يذهبون إلى المدرسة ولا أتذكر حياتي المدرسية ، وأرى تلامذة المدرسة الثانوية وأكاد لا أعرف أنني كنت ذات مرة تلميذ مدرسة ثانوية أيضاً . أرى مصممي وصانعي الآلات يمضون إلى ورشهم ومساعدين في التجارة معجبين بأنفسهم يذهبون إلى مكاتبهم ونسيت أنني قمت فيما مضى بالمشاوير نفسها ، ولبست الوزرة الزرقاء وسترة الكتبة ذات الكوعين الأملسين ، وأشاهد في المكتبة كتيبات غريبة كتبها أناس في الثامنة عشرة من العمر وصدرت في دار نشر بيرصون في درسدن ، ولم أعد أذكر أنني أنا أيضاً نظمت مثل هذه الأبيات الشعرية ، لا بل إنني وقعت في حبال مكائد صائد المؤلفين نفسه .

بل إنها لتمثل أمامي من جديد ذات مرة في نزهة أوفي سفرة بالقطار أو في ساعة سهاد وأرق في الليل قطعةُ حياةٍ منسيةٌ كلياً ،

ومضاءةٌ إضاءة تبهر العيون مثل ديكور مسرحي ، بجزيئاتها كلها ، بالأسماء والأماكن كلها ، بالأصوات والروائح ، هكذا كانت حالي ليلة أمس . وبرزت أمامي من جديد تجربةٌ كنت أعرف عنها في أوانها بكل تأكيد أنني لن أنساها وكنت قد نسيتها السنين الخوالي نسياناً مطلقاً ، ومثلما يضع المرء كتاباً أو سكين جيب أو يفتقد هذا أو ينساه ، ثمّ ذات يوم يجده في درج من الأدراج بين أشياء قديمة ويكون لهذا حضوره مرة ثانية ، ويصبح ملكاً له مرة ثانية .

كنت في الثامنة عشرة من عمري وفي نهاية فترة تدريبي المهني في ورشة تصليح السيارات . ومنذ وقت قريب كنت قد رأيت أنني لن أتقدم في هذا الاختصاص وكنت مصمماً أن أغيّر اختصاصي ذات مرة . إلى أن سنحت فرصة لأفاتح والدي بهذا ، بقيت في المصنع وقمت بالعمل بين الملل والسرور مثل من أخطر بترك العمل ويعرف أن الطرق العامة كلها تنتظره .

كان عندنا آنذاك متطوع في الورشة ، وأشد خصاله تميزاً أنه كان ينحصر في أنه كان قريباً لسيدة غنية في بلدة مجاورة . وهذه السيدة التي كانت أرملة صاحب مصنع شابة ، كانت تسكن في فيللا صغيرة ، وكانت لها سيارة فارهة وفرس ركوب وكانت تعتبر متعجرفة وغريبة الأطوار لأنها لم تكن تشارك في جلسات القهوة ، وعوضاً عن ذلك كانت تركب الخيل وتصطاد بالصنارة وتربي الخزامى وتعنى

بالكلاب الكثيفة الشعر (البرناردية) . كان المرء يتكلم عنها بحسد ومرارة ، وخاصة منذ أن عرف أنه كان في إمكانها أن تكون اجتماعية جداً في شتوتغارت وميونيخ حيث كانت تسافر مراراً وتكراراً .

جاءت هذه الاعجوبة ، منذ أن تطوع ابن أخيها أو ابن عمها عندنا ، ثلاث مرات إلى الورشة . وكانت قد حيّت قريبها وطلبت منه أن يريها آلتنا . كان قد بدا هذا في كل مرة بهيجاً رائعاً وكان قد أحدث في نفسي أثراً كبيراً حين طافت بالمكان الملوث بالهباب في زينة رائعة وعينين متطلعتين وأسئلة مضحكة ، امرأة شقراء طويلة ذات وجه نضر نضارة فتاة وساذج سذاجتها . كنا نقف هناك في وزراتنا الملوثة بالزيت وبأيدٍ ووجوه سوداء وشعرنا أن أميرة زارتنا . ولم يناسب آراءنا الديمقراطية الاجتماعية ما فهمناه فيما بعد في كل مرة .

ذات يوم يتقدم صوبي المتطوع في استراحة وجبة العصر ويقول :
" أتريد المجيء معي يوم الأحد إلى عمتي ؟ فقد دعتك ."

" دعتني ؟ لا تمزح معي مزحاً سخيفاً وإلا دسست أنفك في حوض الإطفاء ." لكن هذا لم يكن مزاحاً . فقد دعتني لمساء الأحد . وكان في وسعنا العودة في قطار العاشرة ، ولو أردنا البقاء لفترة أطول فلربما أرسلت معنا السيارة .

الاختلاط بصاحبة سيارة فارهة وربة خادم وخادمتين وسائق وبستاني كان في رأيي آنذاك مجرد خسة وحقارة . إلا أنه هنا لم يخطر

ببالي إلا حين وافقت بحماسة من زمن طويل ، وسألت عما إذا كانت بدلة الأحد مناسبة بما فيه الكفاية .

حتى يوم السبت تجولت في اضطراب وسرور . ثم تملكني خوف . أي شيء أقوله هناك ، كيف أتصرف ، كيف أتحدث معها ؟ وبذلتي التي كنت دائماً فخوراً بها كان بها فجأة طيات وبقع كثيرة وياقاتي كلها كان لها أهداب على الحافة . وفضلاً عن ذلك كانت قبعتي عتيقة ورثة ، هذا كله كان يمكن ألا يعوض بأجمل وأفضل ثلاث قطع عندي ، بزوج من الأحذية القصيرة ، وربطة عنق حمراء حمرة زاهية ونصف حريرية ونظارة أنفية ذات إطار من النيكل .

تمشيت مساء الأحد مع المتطوع إلى زيتلينغن ، وأنا مريض من الاضطراب والحيرة . لاحت الفيللا ، ووقفنا نحن عند سياج مشبك أمام صنوبر وسرو ، وامتزج نباح كلب بصوت جرس الباب . وأدخلنا خادم ولم يتفوه بكلمة وعاملنا بازدراء ، وما كان منه إلا أن تكرّم بأن يحميني من الكلاب البرناردية الكبيرة التي أرادت إمساكي من السراويل . ونظرت نظرات ملؤها الخوف إلى يدي اللتين لم تكونا نظيفتين منذ أشهر تلك النظافة الزائدة . وكنت قد نظفتهما في المساء قبل ذلك بنصف ساعة بالبترول ومعجون الصابون .

استقبلتنا السيدة في الصالون مرتدية ثوباً صيفياً سماوياً بسيطاً . وصافحتنا كلينا وطلبت منا الجلوس ، فالعشاء سيكون جاهزاً عما قريب .

سألتني : " هل أنت قصير النظر ؟"

" قليلاً ."

" اعلم أن النظارة الأنفية لا تناسبك على الإطلاق ."

رفعتها ودسستها في جيبي وبانت على وجهي سيماء العناد .

" وهل أنت اشتراكي أيضاً ؟ " تابعت الاستفسار .

" أتقصدين ديمقراطي اشتراكي ؟ نعم بالتأكيد ."

" ولمَ ؟"

" عن قناعة ."

" هكذا إذاً ، لكن ربطة العنق ظريفة . حسن ، أردنا أن نأكل . جئتم ومعكم الجوع ؟"

في الغرفة الجانبية كانت قد وضعت أدوات المائدة لثلاثة أشخاص ، باستثناء الكؤوس الثلاثة وعلى غير انتظار لم يوجد أي شيء أحرجني . حساء دماغ ، وقطعة لحم مشوية من خاصرة البقر ، وخضار وسلطة وكاتو ، كانت هذه مجرد أشياء عرفت كيف أتناولها من غير أن أخجل . والخمور صبتها السيدة بنفسها . وفي أثناء وجبة الطعام لم تتحدث تقريباً إلا مع المتطوع ، وبما أن الأكلات الطيبة مع الخمر جعلتني ألتذّ بها ، فإنّ نفسي ما لبثت أن طابت وشعرت بالثقة الكبيرة .

بعد انفضاض المائدة تمّ إحضار كؤوس الخمر إلى الصالون ، وحين قدمت لي لفافة غليظة فاخرة اشعلت على شمعة ذهبية حمراء ،

تصاعد هنائي إلى الشعور بالانبساط . هنا جرؤت على أن أنظر إلى السيدة أيضاً ، وكانت حلوة وجميلة جداً بحيث إنني شعرت بأني انتقلت بزهو وفخار إلى أجواء الغبطة والنعيم الخاصة بعالم النبلاء الذي كنت قد اكتسبت عنه تصوراً غامضاً غموض الشوق من بعض الروايات وصفحات الفن والأدب .

و دخلنا في حوار حام ، وصرت جريئاً جداً بحيث إنني أقدمت على أن أنكّت على ملاحظات السيدة السابقة المتعلقة بالديمقراطية الاشتراكية وربطة العنق الحمراء .

قالت مبتسمة : " أنت على صواب . لا تتخلّ عن قناعتك . على أن ربطة عنقك يجب ربطها ربطاً مائلاً على نحو أقل . انظر ، هكذا - "

وقفت أمامي وانحنت فوقي ، وأمسكت بربطة عنقي بكلتي يديها وزحزحتها . في أثناء ذلك أحسست فجأة بهلع شديد كيف أدخلت إصبعين عبر فتحة القميص وتحسست صدري بهدوء . وحين رفعت بصري مذعوراً ، ضغطت مرة ثانية بكلتي إصبعيها وثبتت عينيها في أثناء ذلك في عيني .

يا لها من مصيبة ، قلت في نفسي ، وخفق قلبي خفقاناً شديداً ، على حين تراجعت وتصرفت لكأنها تراقب ربطة العنق . على أنها وبدلاً من ذلك نظرت إلي مرة ثانية نظرة ثابتة وتامة ، وأومأت إيماءة بطيئة عدة مرات .

" يمكنك أن تجلب علبة الألعاب من فوق في الغرفة على الزاوية ." قالت لابن أخيها الذي كان يقلّب في مجلة ." هنا من فضلك ."

ذهب وأقبلت نحوي ، ببطء ، وبعينين واسعتين .

قالت بصوت خافت ورقيق : " يا إلهي ، أنت . أنت لطيف ."

و في أثناء ذلك أدنت وجهها مني ، والتقت شفاهنا ، بهدوء واحتراق ، وتكرر هذا مرة أخرى . ضممتها وشددتها ، هذه السيدة الطويلة الجميلة ، بقوة شديدة بحيث إن هذا كان لا بدّ أن يؤلمها . لكنها لم تبحث إلا عن فمي مرة أخرى ، وعلى حين كانت تقبّل ، ترقرقت عيناها على نحو رقيق رقة الفتاة .

عاد المتطوع ومعه الألعاب ، وجلسنا واقترعنا ثلاثتنا على الشوكولات المحشية . عادت تتكلم بحيوية ونكتت لدى كل رمية زهر ، إلا أنني لم أتفوه ببنت شفة ولقيت صعوبة في التنفس . وفي بعض الأحيان كانت يدها تمتد من تحت الطاولة وكانت تلاعب يدي أو تستقر على ركبتي .

حوالي الساعة العاشرة أوضح المتطوع أنه قد آن الأوان لأن نذهب .

" أتريد الانصراف أيضاً ؟"

لم تكن عندي خبرة في أمور الحب وتلعثمت ، " أجل ، حان

الوقت ." ونهضت واقفاً .

قالت :" ليكن ." ونهض المتطوع ، وتبعته إلى الباب ، وما إن كان عند العتبة حتى جذبتني إلى الوراء بذراعي وشدتني إليها مرة ثانية .

و في أثناء الخروج همست إلي : " كن ذكياً ، أنت ، كن ذكياً !" ولم أفهم هذا .

ودعناها وجرينا إلى المحطة ، قطعنا تذكرة سفر ، وصعد المتطوع . أما أنا فكان في الأمكان ألا أحتاج الآن إلى رفقة . لم أصعد إلا إلى الدرجة الأولى ، وحين صفّر سائق القطار قفزت مرة ثانية من القطار وبقيت حيث أنا . كان الوقت ليلاً دامساً .

مشيت إلى البيت على الطريق العام الطويل حذراً وحزيناً ، ماراً بحديقتها وسورها المشبك مثل لص . سيدة عريقة الأصل أحبتني ! بلاد عجائب انفتحت أمامي ، وحين وجدت مصادفة النظارة النيكلية ألقيت بها في حفر الشارع .

في يوم الأحد التالي كان المتطوع وحده مدعواً إلى الغداء ؛ أما أنا فلم أكن مدعواً . ولم تعد تأتي إلى الورشة .

و كثيراً ما توجهت طوال ثلاثة أشهر إلى زيتلنغن ، يوم الأحد ، أو متأخراً في المساء ، وأصخت السمع على السور المشبك ودرت حول الحديقة وسمعت الكلاب البرناردية تنبح والريح تهب من خلال الأشجار الأجنبية ، ورأيت نوراً في الغرف وقلت في نفسي : ربما رأتني

مرة أخرى ، فهي تحبني ، دات مرة سمعت عزف بيانو ، كان عزفاً رقيقاً منسجماً ، وانطرحت عند السور وبكيت .

و لكن ما من مرة أبداً قادني الخادم إلى فوق وحماني من الكلاب ، وما من مرة لامست يدها يدي أو فمها فمي . في الحلم فقط حدث لي هذا عدة مرات ، في الحلم ليس غير . في أواخر الخريف تخلّيت عن ورشة تصليح السيارات . وخلعت إلى الأبد الوزرة الزرقاء ورحلت بعيداً إلى مدينة أخرى .

(١٩٠٦)



تلميذ اللاتينية

في وسط بلدة قديمة مبنية بناء ضيقاً يقع بيت كبير كبراً خيالياً وله نوافذ صغيرة كثيرة ودرجات أمامية وسلالم مطروقة على نحو يرثى له ، وفي حالة جمعت بين المهابة والسخافة ؛ كان هذا أيضاً شعوركارل باور الشاب الذي كان يدخله بصفة تلميذ في السادسة عشرة كل صباح وظهراً ومعه كيس كتبه . هنا كان صدره ينشرح للاتينية الجميلة الواضحة – ولشعراء الألمانية القديمة وكانت له متاعبه مع اليونانية المعقدة والجبر الذي قلّ حبه له في السنة الثالثة مثلما قلّ في السنة الأولى ، وكان له سروره مرة ثانية ببعض المعلمين المسنين الشائبي اللحى ومتاعبه مع بعض المعلمينْ الشباب .

وغير بعيد من المدرسة انتصب متجر عريق في القدم ، وكان يقصده ناس باستمرار من غير انقطاع مارين بالدرجات البليلة بللاً داكناً عبر الباب المفتوح دائماً ، وفي الممشى الحالك السواد كانت تفوح رائحة الكحول والبترول والجبنة . على أن كارل كان يجد طريقه في الظلمة بصورة جيدة ، إذ أنّ غرفته كانت فوق في البيت نفسه ، وإلى

هناك ذهب هو من أجل الإقامة عند أم صاحب المتجر . وبقدر ما كان معتماً تحت في الأسفل ، كان مضاءً ومشرقاً فوق في الأعلى ، هناك كان عندهم شمس ، بقدر ما أشعت ، وألقوا نظرهم فوق نصف المدينة التي عرفوا كلهم تقريباً أسطحتها واستطاعوا أن يسمّوا كل فرد باسمه .

من مختلف الأشياء الجميلة التي كانت موجودة في المتجر بكميات أكبر لم يصعد إلا قليل منها السلم المائل ، إلى كارل باور على الأقل . إذ أن مائدة أكل العجوز كوستيرر كانت معدّة إعداداً بسيطاً ولم تشبعه قط ، إلا أنه بغض النظر عن هذا ، سكن عندها سكناً لطيفاً ، وكانت له غرفته مثلما كان لأمير قصره . ما من أحد أزعجه فيها ، كان في وسعه أن يمارس ماكان موجوداً ، وفعل شتى الأشياء . كان يمكن أن يكون القرقفان في القفص أقل الأشياء . إلا أنه كان قد أنشأ أيضاً نوعاً من ورشة للنجارة ، وفي الفرن أذاب وصبّ الرصاص والقصدير ، وفي الصيف ربى دوداً غير سامّ وسحالي في علبة ، وكانت هذه تختفي دائماً بعد فترة قصيرة عبر ثقوب جديدة دائماً في قضبان السقف . وفضلاً عن ذلك كان له كمانه أيضاً ، وعندما كان لا يقرأ ولا يمارس التجارة ، كان يعزف أيضاً ، في كل الأوقات ، في النهار والليل .

هكذا كانت للشباب مسراتهم كل يوم ، ولم يترك الوقت يمضي مملاً قط ، ولا سيما أنه لم يكن يفتقر إلى الكتب التي كان يستعيرها أينما وجدها . كان يقرأ كثيراً ، إلا أنه لم يحبّ الكتب على السواء ،

بل فضل الحكايات والأساطير والتمثيليات المأساوية على كل شيء آخر .

هذا كله ، وبقدر ما كان جميلاً ما كان ليشبعه ، ولهذا كان يهبط كلما اشتد به الجوع الرهيب ، متسللاً مثل ابن عرس على السلم الأسود العتيق حتى الممشى الحجري الذي لم يكن يأتيه إلا شريط ضوئي ضعيف قادم من المتجر . ولم يكن هناك بالنادر أن يوجد على صندوق فارغ عالٍ بقيةٌ من الجبنة أو ينتصب برميل نصف مليء وفيه سمك الرنكة مفتوحاً بجانب الباب ، وفي الأيام الحلوة أو حين كان يدخل كارل بجرأة إلى الحانوت نفسه بذريعة الاستعداد للمساعدة ، كانت يداه تجدان طريقهما عدة مرات إلى الجبن أو الخوخ المجفف أو قطع الاجاص المجفف أو ما شابه ذلك .

على أنه لم يقم بمثل هذه الغزوات بجشع وضمير معذب ، بل تارة ببراءة الجائع ، وتارة بمشاعر لص عالي الهمة لا يعرف خوفاً إنسانياً ويواجه الخطر بكبرياء باردة . وبدا له أنه يناسب قوانين النظام الكوني الأخلاقي أنّ هذا الذي كانت تبخل به الأم العجوز عليه ، سيسحب من خزانة الابن الممتلئة .

وربما كانت هذه العادات المتباينة والأشغال والهوايات ستكفي في الحقيقة إلى جانب المدرسة القديرة ، لكي تملأ عليه وقته وأفكاره . على أن كارل باور لم يكن راضياً بعد عن هذا . تارة مقلداً بعض

زملائه التلامذة وتارة نتيجة لقراءته الأدبية الكثيرة ، وتارة بدافع نداء ضميره دخل للمرة الأولى دنيا عشق النساء الجميلة المليئة بالتوقعات والتوجسات . ولأنه عرف مسبقاً أن سعيه وتودده الحاليين لن يؤديا إلى أي هدف حقيقي ، فلم يكن مفرطاً في التواضع وأوقف اعتزازه على أجمل فتيات المدينة التي كانت من أسرة غنية وبزّت بروعة شبابها أترابها العذراوات . ومرّ التلميذ يومياً ببيتها ، وحين كانت تلتقيه لم يكن يرفع القبعة بمثل هذه الشدة كما هي الحال أمام المدير .

هكذا كانت طبيعة ظروفه حين اكتسب وجوده لوناً جديداً وانفتحت له بوابات جديدة إلى الحياة .

ذات مساء وعند نهاية الخريف ، وبما أن كارل لم يشبع مرة ثانية من قدح القهوة الخفيفة بالحليب فقد جرّه الجوع إلى الصيد والقنص ، انزلق على السلم على نحو غير مسموع وبحث في الممشى عن الصيد ، حيث رأى بعد بحث غير طويل صحناً فخارياً وفيه استندت إجاصتان شتويتان ذواتا حجم ولون رائعين إلى شريحة من الجبنة الهولندية حمراء الحتر ، وكان من السهل على الجائع أن يحذر أن وجبة الطعام الخفيفة محددة لمائدة رب البيت ، ولم تضعه الخادمة جانباً إلا للحظات ! ولكن في تلذذ المشهد غير المتوقع كانت فكرة قدر لطيف أسهل فهماً ، وأخفى الهبة في جيبه بمشاعر الامتنان .

و لكن قبل أن ينتهي من ذلك ويختفي من جديد خرجت

الخادمة بابيت من القبو على خفين خفيفين وكانت في يدها شمعة وذعرت عند اكتشافها الجريمة . كانت الجبنة لا تزال في يد اللص الشاب ؛ بقي متسمّراً في مكانه ونكس رأسه ، على حين كان كل شيء فيه قد تشتت وغاص في قاع من الخجل والحياء . وهكذا وقف كلاهما حيث هما ، وقد أضاءتهما الشمعة ، ومنذئذ وهبت الحياة الصبي الجريء لحظات أكثر إيلاماً ، إلا أنه مؤكد أنها لم تمنحه لحظات أكثر إزعاجاً وإرباكاً .

" هذا شيء لا يدخل في الدماغ !" تكلمت بابيت أخيراً ، ونظرت إلى الجاني الذليل لكأنما كان أغنية موضوعها القتل والدمار . وهذا لم يكن عنده أي شيء ليقوله .

تابعت قولها " يا للدنيا ! ألا تعلم أن هذه سرقة ؟"

" بلى !"

" يا ساتر ، من أين لك هذا ؟"

" كان هناك ، يا بابيت ، هنا خطر ببالي -"

" ماذا خطر ببالك ؟"

" لأنني كنت جائعاً جداً فقد -"

عند هذه العبارة فتحت الخادمة المسنة عينيها ، وحدقت إلى المسكين بفهم لا متناه ودهشة لا حد لها ورأفة لا متناهية .

" أنت تجوع ؟ ألا تحصل على أي شيء للأكل هناك فوق ؟"

" القليل ، يا بابيت ، القليل ."

" لا بأس الآن ، حسن ، حسن ، استبقِ ما هو موجود في الكيس ، والجبنة أيضاً ، احتفظ بها ، فهناك المزيد منها في البيت ، والآن يجب أن أصعد وإلا جاء أحدهم ."

في مزاج غريب عاد كارل إلى حجرته وجلس والتهم في تأمل الجبنة الهولندية أولاً ، ومن ثم الإجاص . ثم انشرح صدره وتنفس الصعداء ، وتمدد وأخذ يترنم من بعد ذلك على الكمان بأغنية من مزمور الشكر . وما إن انتهى من هذا حتى دق الباب دقاً خفيفاً ، وحين فتح الباب كانت بابيت تقف أمامه ومدت يدها إليه بسندويشة كبيرة وضعت عليها زبدة من غير تقشير .

و بقدر ماسرّه ذلك أراد أن يرفض بأدب ، إلا أنها لم تتحمل هذا واستسلم عن رضى وطواعية .

قالت في إعجاب : " إنك تعزف على الكمان عزفاً جميلاً ، وكثيراً ما سمعت عزفك . وفيما يتعلق بالأكل ، سأهتم أنا بذلك . في المساء أستطيع دائماً أن أجلب لك شيئاً ما ، ولا داعي لأن يعرف أحد هذا ، لماذا لا تعطيك هي الأفضل ، بينما يجب أن يدفع أبوك بدل الأكل على النحو الكافي ."

مرة أخرى حاول الصبي أن يرفض شاكراً على استحياء ، إلا أنها أصمت أذنيها وانقاد راغباً . اتفقا في النهاية على أن يصفّر كارل في

أيام الجاعة عند العودة لحن أغنية " شمس الأصيل الذهبية " على السلم ، عندها ستأتي هي وتجلب له الطعام . وإن صفّر لحن أغنية أخرى أو إن لم يصفّر أي شيء فهذا يعني أنه ما من حاجة إلى ذلك .

بانكسار وامتنان وضع يده في يدها اليمنى العريضة التي ثبتت التحالف بضغط قوي .

بدءاً من هذه الساعة استمتع تلميذ الثانوية في انشراح وتأثر بعطف واهتمام قلب امرأة طيبة ، ولأول مرة منذ سنوات الصبا في الوطن ، إذ أنه كان قد التحق منذ وقت مبكر في مدرسة داخلية ، ذلك أن والديه كانا يسكنان في الريف . وكثيراً ما تذكر تلك السنوات في الوطن إذ أن بابيت حمته ودللته مثل أم تماماً ، وهذا ما كانت ستتمكن من أن تكونه أيضاً تقريباً بحكم سنواتها . فقد كانت في نحو الأربعين . وفي الحقيقة ذات طبيعة حديدية قوية لا تلين ، على أن الفرصة تصنع اللصوص ، وبما أنها وعلى غير توقع كانت قد وجدت في الشاب صديقاً وشاكراً وربيباً ممتناً وطائراً تطعمه ، فقد برز أكثر وأكثر من قرار قلبها الذي كان غافياً حتى الآن ميل شبه وجل إلى الرقة واللطف الخالصين .

هذه الحركة كانت في صالح كارل باور ودللته بسرعة ، مثلما يتقبّل صبية كل شيء يتم تقديمه ، ولو كان أيضاً أندر الثمار ، برضىً مثل حق مشروع تقريباً . وحدث أنه كان قد نسي كلياً بعد أيام قليلة

ذلك اللقاء المخجل كل الخجل عند باب القبو وأطلق كل مساء لحن أغنية " شمس الأصيل الذهبية " على السلم ،لكأن الحال كانت دائماً على هذه الشاكلة .

رغم كل امتنان ما كان سيبقى تذكر كارل لبابيت حياً على نحو ثابت متين لو اقتصرت مبراتها وحسناتها بصورة دائمة على الشيء الذي يؤكل . الشباب جائع ، أما هي فلم تكن دائماً أقل حماساً ، وإن علاقة بالشبان لا يمكن الحفاظ عليها دائماً بالجبنة ولحم فخذ الخنزير ، ولا حتى بفاكهة القبو والخمر .

و بابيت هذه لم تكن محترمة في بيت كوستيرر ولا يستغنى عنها فحسب ، بل تمتعت في الجوار كله بسمعة الأمانة المثالية . وحيثما كانت تحلّ كان يسود جوّ المرح على نحو نزيه وعفيف . وعرفت الجارات هذا ، ولهذا كنّ يرحبن بأ ن تخالطها خادماتهن ، ولا سيما الشابات منهن . فمن أوصت بها لقيت حفاوة وترحيباً ، ومن تمتعت بعشرتها الأكثر أنساً شملها عطفها أكثر مما في معهد الفتيات أو نادي الشبيبة .

إذاً قلما كانت بابيت وحيدة عند انتهاء العمل وفي أعصر الآحاد ، بل إنّ الغيد الحسان اللواتي كانت تعينهنّ في تمضية الوقت وتقدم لهنّ النصائح كنّ يلتففن حولها دائماً . وفي أثناء ذلك كنّ يلعبن ألعاباً ويغنين أغاني ويطرحن أحاجي مسلية وألغازاً للحل ، ومن كان لها خطيب أو أخ سمح لها أن تصحبه بكل سرور . على أنّ هذا لم

يحدث إلا نادرا جداً . إذ أن الخطيبات سرعان ماكنّ يخنّ المجلس في أكثر الأحيان ، أما المعاونون والخدم الشباب فلم تكن تربطهم ببابيت مثل تلك الصداقة التي كانت تربطها بالفتيات . فلم تكن تحتمل قصصاً غرامية غير وطيدة ؛ وكانت إذا ما سلكت إحدى ربيباتها مثل هذه الطرق وكان صعباً إصلاحها بالموعظة الجادة بقيت مبعدة .

إلى شلة العذارى الطروبة هذه انضمّ تلميذ اللاتينية ضيفاً ، وربما تعلّم هناك أكثر مما تعلم في الثانوية . ولم ينسَ مساء انضمامه . كان هذا في الفناء الخلفي ، وكانت الفتيات يجلسن على درجات السلم والصناديق الفارغة ، كان الليل قد أظلم ، وفوق كانت لا تزال سماء المساء المقطوعة قطعاً مضلّعاً تسبح في ضوء ضئيل خفيف الزرقة . كانت بابيت تجلس أمام مدخل القبو نصف الدائري على برميل صغير ، وكان كارل يقف في حياء إلى جانبها مستنداً إلى عارضة البوابة ، لم يقل أي شيء وكان ينظر في الدغش إلى وجوه الفتيات . في الوقت نفسه فكر قليلاً في تخوّف بما سيعلقه رفاقه على هذا الاختلاط المسائي لو أنهم علموا بذلك .

يا إلهي ، وجوه الفتيات ! رآهن جميعهن تقريباً ولا يعرفهن ، إلا أنهن كنّ الآن ، وقد لززن ببعضهن في الغسق ، متغيرات ، ونظرن إليه مثل لغز ، ليس غير . إنه يعرف اليوم أيضاً الأسماء كلها والوجوه كلها ويعرف إلى ذلك قصص الكثيرين منهن . وأية قصص ! كم من المصاير

والجد والقوة والظرافة أيضاً في بعض حيوات الخادمات البسيطة !

كانت أنّا فوم غرونين باوم موجودة ، وهذه كانت قد سرقت ذات مرة وهي فتاة صغيرة في أول خدمة لها وكانت قد سجنت شهراً . وها هي قد أخلصت منذ سنوات واستقامت واعتبرت جوهرة . كان لها عينان واسعتان عسليتان وفم صادّ ، وجلست هناك صامتة ونظرت إلى الشاب بحب استطلاع بارد . على أنّ محبوبها الذي لم يخلص لها آنذاك في قضية الشرطة كان قد تزوج في أثناء ذلك ثم ترمل ثانية . ثم راح يجري الآن مرة أخرى وراءها وأراد أن يحظى بها ، إلا أنها تصلّبت وتصرفت كما لو أنها تريد أن تعرض عنه نهائياً مع أنها ما زالت تحبه في سرها كسابق عهدها .

كانت مارغريت من قسم صنع البوكيهات مبتهجة دائماً ، غنّت وترنّمت وكانت تغمر شعرها المجعد الأصهب شمس . كانت ثيابها نظيفة ، وكان فيها دائماً شيء جميل ومرح ، شريط أزرق أو بعض الزهور ، على أنها لم تنفق قط مالاً ، بل كانت ترسل كل قرش إلى زوج أمها وكان هذا يصرفه على السكر ولم يشكرها . ثم فيما بعد منيت بحياة صعبة وتزوجت زواجاً غير موفق ، وفيما عدا ذلك منيت بالكثير من النحس والضيق ، إلا أنها ما زالت تمشي وتجول الهوينى وقد حافظت على صفائها وأناقتها ، ولئن قللت من الابتسام ، إلا أنّ ابتسامتها ازدادت جمالاً .

إنهن جميعهن تقريباً هكذا ، الواحدة مثل الأخرى ، ما أقل سرورهن ومالهن وما أقل ما لقين من لطف وما أكثر عملهن وهمّهن ونكدهن وكيف كسبن قوتهن وبقين في المقدمة مناضلات مستقيمات لا تلين لهن عزيمة ! وكم ضحكن في ساعات الفراغ القليلة وابتهجن بلا شيء ، بنكتة وأغنية وحفنة جوز وبقية صغيرة من شريط أحمر ! وكم ارتعشن من اللذة حين كانت تُحكى قصة من قصص التعذيب الوحشي وكيف كنّ يشاركن في أغانٍ حزينة وكن يتنهدن وكانت عيونهن الطيبة تمتلىء بدموع غزيرة !

كان بعضهن أيضاً كريهات وهيابات وكن دائماً مستعدات للتعييب والقيل والقال ، أما بابيت فكانت تقطع عليهن الكلام إذا ما دعت الحاجة . وهن أيضاً حملن عبئهن ولم تسهل عليهن الأمور . وغريت فوم بيشوفس إيك كانت بصورة خاصةتعيسة . ضاقت بالحياة ذرعاً وعانت من فضيلتها الكبرى ، لا بل إن الحال في نادي العذارى لم تكن في نظرها ورعة وصارمة بما فيه الكفاية ، فعند كل كلمة فظة غليظة كانت تتنهد تنهداً عميقاً وتعض على شفتيها وتقول بصوت خافت : "على العادل المنصف أن يعاني كثيراً ." عانت سنة بعد سنة وتربت في النهاية في أثناء ذلك ، وكانت إذا ما أحصت جوربها بالريالات الألمانية (التالر) المدخرة شرعت في البكاء . استطاعت أن تتزوج مرتين معلم مهنة ، إلا أنه لم يتوافر لها العيش معهما كليهما ،

لأنّ الأول كان متهوراً والآخر كان عادلاً ونبيلاً جداً بحيث إنه كان عليها أن تتخلى عن التنهد وعن أن تكون مظلومة .

هؤلاء كلهن جلسن في ركن الفناء المظلم وقصصن لبعضهن بعضاً حوادثهن وانتظرن ما سيأتي به المساء من خير ومسرة . فأحاديثهن وحركاتهن بدت للشاب المثقف في أول الأمر أنها ليست بالأعقل ولا الأكثر تأدباً ، ولكن بما أن ارتباكه زال فسرعان ما بدا له الأمر أكثر حرية وراحة ، فراح يتطلع إلى الفتيات اللاتي قبعن في الظلمة جنباً إلى جنب كما في صورة لا كبقية الصور جميلة جمالاً غريباً .

"أجل ، هذا هو إذاً السيد تلميذ اللاتينية ،" قالت بابيت وأرادت أن تروي على فورها قصة جوعه الذي يدعو للرثاء ، إلا أنه شدّها من كمها متوسلاً وترفقت به بطيبة قلب .

" من المؤكد أنّ عليك أن تتعلم الكثير جداً ؟" سألت مارغريت الصهباء الشعر من قسم صنع البوكيهات وتابعت حديثها على الفور : " ماذا تريد أن تختص ؟"

"أجل ، هذا غير مؤكد بعد . ربما طببيب ." وأثار هذا هيبة ، ونظرن إليه جميعاً باهتمام .

" في هذه الحال يجب أن يكون لك في أول الأمر شاربان ،" قالت ليني من عند الصيدلاني ، وقهقهن تارة في كركرة خافتة وتارة في زعيق وأتين بآلاف المداعبات التي صعب عليه أن يدفعها عنه لولا

مساعدة بابيت له . في النهاية طلبت منه أن يحكي لهن حكاية . وبقدر ما كان قد قرأ أيضاً ، على أنه لم تخطر بباله إلا حكاية ذلك الذي ارتحل ليتعلم الشعور بالخوف والفزع ؛ ولكن ما إن بدأ حتى رحن يضحكن ويهتفن :" نعرف هذا من زمن طويل " ، وقالت غريته فوم بيشوفس إيك بازدراء :" ليست هذه إلا للصغار ." هنا أمسك عن الكلام وخجل ، ووعدت بابيت نيابة عنه : " في المرة القادمة سيحكي شيئاً آخر ، فعنده كتب كثيرة في البيت" ، ووافق هو على هذا أيضاً وقرر أن يرضيهن بشكل رائع .

في أثناء ذلك كانت السماء قد فقدت آخر شعاع أزرق ، وفي السواد الباهت سبح نجم .

" الآن يجب أن تعدن إلى البيت" نبهت بابيت ، ونهضن وهززن ضفائرهن ووزراتهن وسوينها ، وأومأت كل منهن للأخرى بالرأس وانصرفن ، بعضهن من باب الفناء الخلفي والبعض الآخر من الممشى وباب البيت .

كارل باور صبّح أيضاً على خير وصعد إلى غرفته بإحساس غامض ، مبسوطاً وغير مبسوط أيضاً . إذ أنه بقدر ما كان غارقاً في كبرياء الشباب وحماقات تلامذة اللاتينية ، إلا أنه كان قد لاحظ أنّ بين هؤلاء الجدد من معارفه حياة معاشة تختلف عن حياته وأنّ هؤلاء الفتيات كلهنّ تقريباً ، المقيدات بسلسلة مثبتة إلى الحياة اليومية

النشطة ، حملن في أعماقهن قوى وعرفن أشياء كانت غريبة عليه غرابة حكاية . وليس من دون تكبر بسيط نوى أن يتعمق بأقصى ما يمكن في الشعر الممتع لهذه الحياة البسيطة وفي عالم أوائل الأشياء الشعبية وعالم الأغاني التي تدور حول موضوعات القتل والنكبات وأغاني الجنود . لكنه أحس أنّ هذا العالم متفوق على عالمه في أشياء معينة تفوّقاً رهيباً وخشي شتى ألوان الظلم والقهر منه .

على أنه في أثناء ذلك لم يكن في الإمكان رؤية أي خطر من هذا القبيل ، كما أنّ اللقاءات المسائية للخادمات صارت أيضاً أقصر ، إذ أنّ الدنيا كانت قد أشتت بشدة ، وحسب المرء كل يوم حساباً لأول سقوط للثلج ، مع أنّ الطقس كان لا يزال أيضاً معتدلاً كل الاعتدال . ومع هذا وجد كارل الفرصة لكي يتخلص من حكايته . كانت حكاية تسونديل هاينر وتسونديل فريدر التي كان قد قرأها في علبة المصاغ ، ولم تلق أدنى استحسان . فالعبرة الأخلاقية في النهاية أسقطها ، إلا أنّ بابيت أضافت بدافع الحاجة الخاصة والقدرة الخاصة مثل هذه العبرة . ومدحت الفتيات ، ما عدا غريت ، القاص على الفضل وأعدن بالتناوب المشاهد الرئيسة ورجون بشدة أن يحكي مرة ثانية في القريب العاجل شيئاً مثل هذه . ووعد بذلك أيضاً ، ولكن في اليوم التالي اشتد البرد بحيث إنه لم يعد هناك مجال للوقوف هنا وهناك في العراء ، ثم إنه كلما اقترب عيد الميلاد كانت تمر به أفكار أخرى ومسرات .

كان ينحت المساء كله في علبة تبغ لأبيه ويحفر إلى جانب ذلك بيت شعر باللاتينية . على أنّ بيت الشعر لم يكن ينال قط ذلك النبل الكلاسيكي ، ومن دون هذا لا يمكن لشعر لاتيني خماسي وسداسي التفعيلات أن يقف على قدميه ، ولهذا اكتفى أخيراً بأن كتب بأحرف زخرفية كبيرة : " لتهنأ بها ." وضخّم الخطوط بسكين الحفر ولّمع العلبة بحجر الخف والشمع . ومن ثمّ سافر هانىء البال لقضاء العطلة .

كان كانون الثاني بارداً وصافياً ، وكان كارل يذهب ، كلما سنحت له ساعة فراغ ، إلى ملعب الجليد للتزلج . وفي أثناء ذلك ضاع ذات يوم حبه الوهمي قليلاً لتلك الفتاة الجميلة من الطبقة الوسطى . فرفاقه خطبوا ودها بمئات الخدمات الصغيرة التي يقوم بها المعجب ، واستطاع أن يرى أنها كانت تعامل الواحد مثل الآخر بنفس المجاملة الباردة العابثة قليلاً وبالدلال نفسه . وهنا جرؤ ذات مرة ودعاها إلى السفر من غير أن يحمر خجلاً وأن يتلعثم كثيراً ، ولكن ليس من غير خفقان قلب . وضعت يسراها الصغيرة المرتدية جلداً ناعماً في يمناه المتوردة من البرد ، وانطلقت معه ولم تخف سخريتها من تحفزه المضطرب لحديث كيّس مؤدب . وأخيراً انفصلت عنه ببعض الشكر وانحناءة من الرأس ، وإثر ذلك سمعها تضحك مع بعض صديقاتها اللاتي نظر بعضهن إليه بأطراف أعينهن في دهاء ، ضحكاً رنانا وخبيثاً ، على نحو ما تستطعنه فتيات صغيرات مدللات وجميلات .

كـان هذا شـيـئـاً كـثـيـراً جـداً عليـه ، ومن هذه اللحظة أقلع في امتعاض عن هذا التطلع الهيمان الزائف على كل حال ووجد مسرة وتسلية في ألا يحيّي في المستقبل هذه البنت الطويلة اللسان ، كما نعتها الآن ، لا على ملعب الجليد ولا في الشارع .

و سروره بأن يتحرر من جديد من هذه القيود المشينة ، قيود الشهامة واللباقة في معاملة النساء ، حاول أن يعبر عنه لا بل أن يضاعفه بأن خرج في مغامرات مراراً وتكراراً في ساعات مسائية مع بعض رفاقه الجسورين . فكانوا يعابثون خادم الشرطة ويدقون على نوافذ مضاءة في الطابق الأرضي ، وكانوا يشدون حبال أجراس ويحشرون عيدان ثقاب مكسرة في أزرار كباس كهربائية وكانوا يهيّجون كلاب حراسة مقيدة أشد التهييج ويرعبون نساء وفتيات في أزقة ضواحي نائية بالصفير والمفرقعات وألعاب نارية صغيرة .

طاب كارل باور نفساً بهذه الأفعال في عتمة المساء الشتائية ؛ فقد جعله مجنوناً وجريئاً غرور بهيج وفي الوقت نفسه حماس تجربة مزعج وسبب له خفقاناً لذيذاً لم يعترف به لإنسان واستمتع به مثل نشوة . وبعد ذلك كان يعزف على الكمان وقتاً طويلاً وكان يقرأ كتباً شيقة وخيل إليه في أثناء ذلك أنه مثل فارس قاطع طريق عائد من الغارة مسح سيفه وعلقه على الحائط وأشعل النار في مشعل من خشب الصنوبر ، يضيء في دعة وسلام .

و لكن لما أن كل شيء كان يؤدي دائماً وأبداً في هذه الرحلات في الدغش إلى نفس المقالب والتسليات ، ولما أنه ، كما بدا له ، لم يحدث شيء من تلك المغامرات الصحيحة المتوقعة سراً ، فقد بدأ اللهو ينغّص عليه شيئاً فشيئا وانسحب خائب الأمل أكثر فأكثر من الرفقة المرحة الفرحة . وفي ذلك المساء بالذات ، وبما أنه شارك لآخر مرة وبقلب حائر وبعزيمة خائرة ، كان لا بد أن تنتظره تجربة صغيرة .

فالصبيان كانوا يجرون أربعةً أربعةً جيئة وذهاباً في زقاق بروهيل ، وكانوا يلعبون بعصي صغيرة ويفكرون بأعمال مشينة . كان أحدهم يضع نظارة أنفية من صفيح ، والأربعة جميعاً أمالوا القبعات والقلنسوات باستهتار صبياني إلى مؤخر الرأس . وبعد قليل سبقتهم خادمة قادمة بسرعة . فمرت بهم مسرعة . كانت تحمل سلة ذات يد على ذراعها . وتدلت من السلة قطعة طويلة من شريط أسود ، رفرفت تارة بطريقة مضحكة ولمست تارة أخرى الأرض بالطرف المتسخ .

و من دون أن يخطر بباله أي شيء في أثناء ذلك أمسك باور مبتهجاً جذلاً الشريط وثبته . على حين تابعت الخادمة الشابة سيرها في استخفاف وانحل الشريط أكثر فأكثر ، وانفجر الصبيان في ضحك بهيج . عندئذ التفتت الفتاة ووقفت كالبرق أمام الشبان الضاحكين ، جميلة وشابة وشقراء ، وصفعت باور ولمّت الشريط الضائع وانصرفت مسرعة .

هنا صار المؤدب بالضرب مسخرة ، على أن كارل لزم الصمت كلياً

وودعهم عند ناحية الطريق الثانية على جناح السرعة .

أحسّ بشيء غريب . فالفتاة التي كان قد رأى وجهها لحظة واحدة في عتمة الزقاق بدت له جميلة ولطيفة جداً ، والضربة من يدها ، وبقدر ما خجل منها سرته أكثر مما آلمته . ولكن كلما فكر بأنه كان قد لعب على هذه المخلوقة الحلوة مقلباً صبيانياً وأنها يجب أن تغضب الآن عليه وترى فيه مهرجا مزّاحاً ، اكتوى بنار الندم والخجل .

سار إلى البيت الهوينى ولم يصفّر هذه المرة على السلم غير المنحدر أي لحن أغنية ، بل صعد إلى غرفته هادئاً محزوناً . جلس نصف ساعة في الحجرة الباردة المظلمة والجبين إلى صفحة النافذة . ثم تناول الكمان وعزف عزفاً أعلى أغنيات رقيقة قديمة من زمن طفولته ، ومن بينها بعض الأغنيات التي كان قد غناها أو عزفها على الكمان منذ أربع أو خمس سنوات . وتذكر أخته والحديقة والبيت ، وتذكر شجَرة الكستناء وزهرة الكبوشية على الشرفة ، وتذكر أمه . وحين أوى إلى الفراش متعباً مشوّش البال فإنه رغم ذلك لم يستطع أن ينام ، هنا حدث للمغامر المعاند وبطل الأزقة أن أخذ يبكي بكاء خافتاً ورقيقاً وواصل البكاء بهدوء إلى أن غفت عيناه .

اكتسب كارل عند رفاقه إلى الآن ، رفاق جولاته المسائية ، شهرة جبان وفارّ ، إذ أنه لم يشترك قط مرة أخرى بهذه المشاوير . وعوض عن ذلك قرأ مسرحية دون كارلوس وقصائد ايمانويل غايبل وهاليغ فون

بيرناتيسكي ، وأخذ يدوّن يومياته ولم يعد يستغل إلا نادراً استعداد بابيت الطيبة للمساعدة .

وبدا لهذه أنّ شيئاً ما لا بدّ أن يكون على غير ما يرام عند الشاب ، وبما أنها كانت قد تبنت رعايته فقد ظهرت ذات مرة في باب الحجرة لكي تتفقد شؤونه . لم تأت بيدين فارغتين ، بل جلبت معها قطعة لا بأس بها من النقانق الفرنسية وأصرت على أن يأكلها كارل أمام عينيها على الفور .

قال :" بالله عليك دعينا من هذا يابابيت ، فلست بجائع الآن ."

على أنها كانت ترى أنّ الشباب يجب أن يتمكنوا من الأكل كل ساعة ، ولم تتراجع حتى نفّذ لها مشيئتها . كانت قد سمعت ذات مرة عن تحميل الشباب فوق طاقتهم في الثانوية ولم تعرف إلى أي مدى ابتعد صنيعها من كل فرط جهد في الدراسة ورأت في عدم الرغبة في الأكل الملفت للنظر بداية مرض ووعظته وعظاً واستفسرت عن تفاصيل أحواله وعرضت عليه في النهاية مسهِّلاً شعبياً مجرَّباً . هنا كان لا بدّ لكارل أن يضحك وأوضح لها أنه في كامل الصحة وانّ ضعف شهيته لا يعود إلا إلى مزاج أو اضطراب . وفهمت هذا على فورها .

قالت في حيوية " كما أنّ المرء لا يسمعك تصفّر أيضاً لحناً إلا نادراً ، وما مات لك أحد . قل إنك لست عاشقاً ؟"

لم يستطع كارل أن يمنع من أن يحمر قليلاً ، إلا أنه نعى ستياء

هذه الشبهة عن نفسه وادّعى أنه لا ينقصه إلا شيء قليل من التسلية ، فهو يضيق بالملل .

قالت بابيت بانشراح : " في هذه الحال عندي شيء لك . غداً سيكون عرس ليز الصغيرة من الناصية التحتانية وقد طالت خطبتها لأحد العمال . ويدور في خلد الناس أنه كان يمكن أن تقيم حفلة أفضل ، إلا أنّ الزوج ليس على خطأ ، والمال وحده لا يصنع السعادة أيضاً . ويجب أن تأتي إلى العرس ، وليز تعرفك ، وسيسعد الجميع إذا ما جئت وأظهرت أنك لست متكبراً غاية التكبر . كما أنّ أنّا فوم غرونينباوم وغريت فوم بيشوفيس إيك ستكونان حاضرتين أيضاً ، وأنا وعدد قليل من الناس . فمن ذا الذي سيدفع أيضاً ؟ إنه ليس إلا عرساً هادئاً ، في البيت ، ولن يكون هناك طعام بكميات كبيرة ولا رقص ولا شيء من هذا القبيل . وبدون هذا يمكن أن يمرح المرء ."

" إلا أنني لست مدعواً " ، قال كارل في تشكك لأنّ الموضوع لم يبدُ له مغرياً إلى هذا الحد . أما بابيت فقد اكتفت بالضحك .

"لا ، لا ، أنا ساهتمّ بذلك ، وما المسألة إلا مسألة ساعة أو ساعتين في المساء . والآن يخطر ببالي الشيء الأمثل ! أنت تجلب معك الكمان .- ولمَ لا ! إنها لأعذار سخيفة ! سيخلق هذا طرباً ، وسيشكرك المرء على ذلك ."

لم يمض وقت طويل حتى وافق السيد الشاب .

في اليوم التالي مرّت بابيت عليه عند المساء واصطحبته ؛ كانت قد لبست ثوباً رائعاً من أيام الصبا ما زال في حالة جيدة ، ثوباً ضايقها كثيراً وأدفأها ، وكانت منفعلة ومتوردة من فرحة الحفل . إلا أنها لم تحتمل أن يغير كارل ثيابه ، وما كان عليه إلا أن يضع ربطة عنق جديدة ، و نظفت له على الفور الحذاء ذا العنق الطويل بالفرشاة عند الساقين رغم البدلة الرسمية . ومن بعد ذلك مضيا معاً إلى المنزل البائس في الضاحية حيث كان الزوجان الشابان قد استأجرا غرفة إلى جانب المطبخ وأخرى صغيرة ، وكان كارل قد أخذ معه كمانه .

مشيا ببطء وحذر ، إذ أنه منذ الأمس كان قد حلّ طقس ذوبان الجليد ، وأرادا أن يصلا إلى هناك بأحذية نظيفة . كانت بابيت قد تأبطت مظلة كبيرة كبراً هائلاً وأبقت تنورتها مرفوعة بكلتا يديها ، ولم يسرّ كارل الذي خجل قليلاً ، أن يراه الناس معها .

في غرفة جلوس حديثي الزواج المتواضعة جداً والمبيضة بالجص جلس حول المائدة المجهزة تجهيزاً جيداً والمصنوعة من خشب التنوب سبعة أو ثمانية أشخاص ، بالإضافة إلى الزوجين زميلا العريس وبعض بنات العم أو العمة أو صديقات المرأة الشابة . وكان في المأدبة لحم خنزير محمر مع السلطة ، ثم كان هناك على المنضدة كعكة وإلى جانب ذلك كان هناك على الأرض كوزا بيرة كبيران . حين وصلت بابيت مع كارل وقف الجميع ، وانحنى رب البيت انحنائتين حييتين ،

وقامت السيدة الطلقة اللسان بالترحيب والتعريف ، وكل ضيف صافح القادمين .

قالت المضيفة : " خذوا من الكعكة !" ووضع الزوج بصمت كأسين جديدين وسكب البيرة . وبما أنهم لم يشعلوا بعد أي مصباح ، فلم يتعرف كارل إلا على غريتا فوم بيشوفس إيك ، وبإيعاز من بابيت دسّ في يد ربة البيت قطعة نقود ملفوفة بورقة كانت قد ناولته إياها قبل ذلك لهذا الغرض ، وهنّأ بهذه المناسبة . وبعد ذلك دفعوا إليه بكرسي ، وجلس أمام كأس جعته .

في هذه اللحظة رأى بذعر مفاجئ إلى جانبه وجه تلك الفتاة التي كانت قد سددت له مؤخراً صفعة في زقاق بروهيل . إلا أنها بدت أنها لا تعرفه ، على الأقل نظرت إلى وجهه نظرة اللامبالاة ، ورفعت كأسها إزاءه بلطف حين قرعوا الآن الكؤوس كلهم معاً بناء على اقتراح المضيف . وبما أن كارل اطمأنّ بذلك قليلاً فقد جرؤ على أن ينظر إليها نظرة مباشرة . وكان قد تذكر بما فيه الكفاية في الفترة الأخيرة كل يوم ذلك الوجه مراراً وتكراراً ، وآنذاك لم يره إلا لحظة واحدة ومنذ ذلك الحين لم يره مرة ثانية ، وعجب كيف بدت مختلفة . كانت أرق وألطف ، وأنحف بقليل وأخف من الصورة التي كان قد حملها معه . ولكنها لم تكن حسناء جميلة بقدر ما كانت جذابة فاتنة ، وبدا له أنها لن تكون أكبر منه سناً .

و بينما كان الآخران ، أي بابيت وآنّا ، يتحدثان في حيوية ، لم يكن في مقدور كارل أن يقول أي شيء ، وجلس حيث هو ودوّر كأس البيرة بيده ولم يصرف نظره عن الشابة الشقراء . وكان إذا ما تذكر كم تاقت نفسه إلى أن يقبّل هذا الثغر أصابه رعب إلى حد ما ، إذ أن هذا بدا له أنه كلما أطال النظر إليها كان الأمر أصعب وأجسر لأن يكون مستحيلاً كل الاستحالة .

تضاءل وبقي جالساً فترة من الزمن صامتاً وكئيباً . عندها نادته بابيت بأنّ عليه أن يتناول كمانه ويعزف شيئاً ما . ومانع الشاب قليلاً متظاهراً بالتواضع ، إلا أنه دس يده في العلبة بعد ذلك ، فنقر وهندم الكمان وعزف أغنية محبوبة شارك الجمهور كله في غنائها على الفور مع أنه كان قد بدأ غناءها بصوت عال . وبهذا كان الجو قد تحسن ، ونشأ مرح صاخب حول المائدة . وقدّموا إلى الجمهور مصباحاً قائماً على الأرض جديداً صغيراً ، وقد ملئ زيتاً وأشعل ، وبدأت أنغام أغنية تلو الأخرى تنساب في الحجرة ، ووضعوا كوز بيرة جديداً ، وحين بدأ كارل باور يعزف لحن رقصة من أقل الرقصات التي كان يتقنها ، ظهر في اللحظة ثلاثة أزواج وداروا ضاحكين في المكان الضيق جداً .

في حوالي الساعة التاسعة تحرك الضيوف ، كان للشقراء الطريق نفسها مسافة شارع قبل كارل وبابيت ، وفي هذه الطريق جرؤ كارل لأن يجري حواراً مع الفتاة .

سأل على استحياء : " أين تعملين هنا ؟" .

" عند التاجر كولديرر ، في زقاق الملح عند الناصية ."

" أهكذا ؟"

" أجل ."

" أي نعم . هكذا . . . "

ثم ساد فاصل صمت أطول . إلا أنه خاطر وبدأ مرة ثانية .

" هل صار لك فترة طويلة هنا ؟"

" نصف سنة ."

" أقول دائماً إنني رأيتك ذات مرة ."

" أما أنا فلا ."

" مرة في المساء ، في زقاق بروهيل ، أليس كذلك ؟"

" لا علم لي بذلك ، يا إلهي ، ليس في مقدور المرء أن يدقق النظر في الناس كلهم في الحارة ."

و تنفس الصعداء مغتبطاً أنها لم تعرف فيه الجاني من ذلك الوقت ؛ وكان قد عزم على أن يستميحها العذر .

وهنا كانت قد وصلت إلى ناحية شارعها فبقيت واقفة لكي تودع . وصافحت بابيت ، وقالت لكارل :

" وداعاً الآن ، أيها السيد الطالب ، وشكراً جزيلاً ."

"على ماذا ؟"

" على الموسيقا ، الموسيقا الجميلة ، إذاً عمتما مساءً معاً ."

حين أرادت أن تستدير ، مدّ كارل يده ووضعت يدها بصورة خاطفة في يده . ثم انصرفت .

و حين صبّح على بسطة السلم على خير ؛ سألت :" كان الوقت جميلاً ، أليس كذلك ؟"

قال بسعادة :" كان جميلاً ، رائعاً ، أجل" ، وسرّ أن الوقت كان ظلاماً ، إذ أنه شعر كيف علت وجهه حمرة الخجل .

و مرت الأيام . وأصبح الجو تدريجياً أكثر دفئاً وزرقة ، كما أنّ الجليد المتكون على قرار الأنهار ذاب أيضاً في أشدّ الحفر استتاراً وفي زوايا الأقنية ، وفي وضح أوقات العصر سرى في الأجواء إحساس داخلي بأوائل الربيع .

هنا افتتحت بابيت أيضاً حلقتها المسائية في الفناء من جديد ، وجلست كلما سمح الطقس بذلك ،أمام مدخل القبو في حوار مع صديقاتها ومن كان محسوبها . أما كارل فقد ابتعد وتجول في سحابة حلم عشقه ، فحوض الأسماك في غرفته كان قد تركه يموت ، ولم يعد يزاول الحفر أو النجارة . وبدلاً من ذلك كان قد اشترى زوجين من المقابض الحديدية ذات حجم وقفل كبيرين جداً ، وحين لم يعد العزف على الكمان يجدي نفعاً ، مارس الجمباز إلى درجة الإعياء في حجرته صعوداً وهبوطاً .

ثلاث أو أربع مرات كان قد التقى الفتاة الشابة الشقراء في الزقاق ، وكان قد وجدها في كل مرة أحلى وأجمل . إلا أنه لم يعد يتكلم معها ، ولم يبدُ له أيضاً أي أمل في ذلك .

ثم حدث في عصر يوم أحد ، أول أحد في شهر آذار ، أنه أنصت عند مغادرة البيت المتاخم في الفناء الصغير إلى أصوات الفتيات الخادمات المجتمعات ووقف عند الباب الموارب بحب استطلاع اهتاج فجأة وجاس ببصره من خلال الشق . رأى جريت ومارغريت المرحة من قسم صنع البوكيهات جالستين هناك ووراءهما رأس أشقر نهض قليلاً في هذه اللحظة . وعرف كارل فتاته ، تيني الشقراء ، وكان عليه أن يلتقط أنفاسه أولاً من ذعر بهيج وأن يستجمع قواه قبل أن يتمكن من دفع الباب والدخول إلى الشلة .

" ظننا أنّ السيد ربما صار متكبراً غاية التكبر " ، هتفت مارغريت ضاحكة وكانت أول من مدّ له اليد . وهددته بابيت بالإصبع وأفسحت له مكاناً وطلبت منه الجلوس . ثم تابعت النسوة حديثهن السابق . إلا أنّ كارل سرعان ما ترك مكانه وتمشى قليلاً جيئة وذهاباً ، إلى أن توقف عن السير قرب تيني .

سأل بصوت خافت :"إذاً ، أنت هنا أيضاً ؟" .

" أجل ، ولم لا ؟ اعتقدت دائماً أنك ستأتي . لكن المؤكد أنّ عليك أن تتعلم دائماً ."

" أوه ، ليست حال التعلم بسيئة إلى هذا الحد . في الإمكان الانتهاء من ذلك . فلو أني عرفت أنك ستكونين موجودة لجئت دائماً ."

" بالله عليك كفّ عن مثل هذه المجاملات !"

" لكن هذا حقيقة ، بكل تأكيد . هل تعرفين ، آنذاك في العرس كان الجو جميلاً ."

" أجل ، كان مسلياً جداً ."

"ذلك لأنك كنت حاضرة ، لهذا فقط ."

" دعك من مثل هذه الأشياء ، أنت تمزح ، ليس غير ."

" لا ، لا . لا تغتاظي مني ."

" ولماذا أغتاظ ؟"

" خفت ألا أراك أبداً في النهاية !"

" هكذا ، وماذا بعد ذلك ؟"

" في هذه الحال - لا أعرف بعدها ماذا كنت سأفعل . ربما كنت سألقي بنفسي في الماء ."

" ياإلهي ، خسارة على الجلد ، كان سيبتل ."

"طبعاً ، سيكون هذا مضحكة لك ، ليس غير ."

" ليس هذا بالتأكيد . لكنك تقول أشياء قد تدوّخ الرأس . احترس وإلا صدقتك بالمرة ."

" في إمكانك أن تفعلي ذلك ، أقصد شيئاً آخر ."

هنا طغى عليه صوت غريت الحاد . فقد حدثت شاكية وبصوت رنان قصة رعب طويلة عن سيّد وحرمه الشريرين اللذين كانا يعاملان خادمة معاملة وضيعة ويطعمانها طعاماً رديئاً ، ومن ثمّ ، وبعد أن مرضت ، طرداها دون سابق إنذار . وما إن انتهت من سرد القصة حتى تبعتها جوقة الأخريات عالية وعنيفة إلى أن طالبت بابيت بالهدوء . في حماسة الحوار كانت أقرب الجالسات بجانب تيني قد وضعت ذراعاً حول خصر هذه ، ولاحظ كارل باور أنّ عليه أن يتنازل في أثناء ذلك عن متابعة الحديث المتبادل .

توصّل إلى تقارب جديد ، إلا أنه ثابر على الانتظار إلىَ أن أعطت مارغريت الاشارة للانصراف بعد نحو ساعتين . كانت الدنيا قد أدغشت ومال الطقس إلى البرودة . قال وداعاً باقتضاب وانصرف مسرعاً .

بعد ربع ساعة وحين ودعت تيني آخر مرافقاتها قرب منزلها ومشت وحدها المسافة القصيرة ظهر في طريقها فجأة تلميذ اللاتينية من وراء شجرة قيقب وحياها بأدب حيي . ذعرت قليلاً ونظرت إليه غاضبة بعض الشيء .

" ماذا تريد يا هذا؟"

هنا لاحظت أنّ كارل الشاب بدا خائفاً وممتقع الوجه ، وخففت من نظرتها وصوتها لدرجة كبيرة .

" إذاً ماذا بك ؟"

تلعثم جداً ولم يتفوه إلا بقليل من الكلام الواضح . ومع ذلك فهمت مقصده وفهمت أيضاً أنه جادّ فيما هو فيه . وما إن رأت الشاب هكذا طوع يديها لا حول له ولا قوة حتى آلمها ذلك ، وطبيعي من دون أن تشعر بزهو أقل وسرور أخف بانتصارها .

" لا تقم بأعمال سخيفة " ، كلمته بالحسنى . وحين سمعت أنّ في صوته دمعات مخنوقة أضافت قائلة :" سنتكلم معاً مرة أخرى ، عليّ أن أذهب الآن إلى البيت . ليس عليك أن تنفعل على هذا النحو ، أليس كذلك ؟ إذاً إلى اللقاء !"

بهذا انصرفت مومئة بالإيجاب ، ومضى هو متمهلاً ، بينما ازداد الدغش وانتقل إلى ظلمة وليل . تمشى في الشوارع وعلى الساحات ومرّ بالبيوت والأسوار والحدائق والنوافير التي تنساب انسياباً رقيقاً ، وخرج إلى الحقل الواقع قبل المدينة ثم عاد أدراجه إلى المدينة واجتازها من تحت أقواس دار البلدية ماراً بساحة السوق العليا ، على أنّ كل شيء كان قد تحوّل وصار دنيا خرافية . فقد أحبّ فتاةً وقال لها ذلك ، وكانت لطيفة تجاهه وكانت قد قالت له " إلى اللقاء!"

تمشى هكذا طويلاً على غير هدف ، وبما أنه شعر بالبرودة فقد دسّ يديه في جيبي سرواله ، وحين رفع نظره عند الانعطاف إلى زقاقه وعرف المكان واستيقظ من حلمه ، أخذ يصفّر لحناً على نحو عالٍ ومدو

ّمن غير مراعاة لوقت المساء المتأخر . فقد دوّى الصفير متردداً صداه عبر الشوارع المظلمة ولم يتلاشَ إلا في الممشى البارد الخاص بالأرملة كوستيرر .

فكرت تيني كثيراً بما قد يسفر عنه هذا الموضوع ، على أية حال أكثر من العاشق الذي لم تصل به الحال إلى التفكير بسبب حمّى التوقع والوجد اللذيذة . ووجدت الفتاة أنه كلما لامت نفسها على ما حدث وفكرت به طويلاً ، قلّ الشيء الذميم في الصبي الجميل ؛ كما أنّه كان إحساساً جديداً ولذيذاً أن تعرف أنّ شاباً ظريفاً هذا الظرف ومثقفاً هذه الثقافة أغرم بها ، وأكثر من هذا أنه كان شاباً صالحاً . ومع هذا لم تفكر لحظة واحدة بعلاقة غرامية لا يمكن أن تجرّ عليها إلا المتاعب أو الأذى ، وعلى أية حال فإنها لن تؤدي إلى هدف ثابت .

على أنه عزّ عليها أيضاً من جديد أن تؤذي الصبي المسكين بجواب قاس وبدون جواب . ودت لو أنها زجرته في طيبة ودعابة زجراً يجمع زجر الأخت وزجر الأم . والبنات في هذه السن أكثر تأهباً وأكثر ثقة بطبعهن من الصبيان ، وفوق ذلك فإنّ خادمة تكسب عيشها تمتاز في أمور الخبرة والتجارب على كل تلميذ وطالب امتيازاً كبيراً ، ولا سيما إذا كان هذا عاشقاً واستسلم لهواها من دون إرادة .

تقلّبت أفكار وقرارات الخادمة القلقة طوال يومين . وما من مرة كانت قد توصلت إلى القرار إلا وكان الرفض الصارم الواضح هو الشيء

الصحيح ، وما من مرة قاوم قلبها الذي كان يهوى الشاب ، إلا وعطف عليه في رضى ملؤه الشفقة والرفق .

فعلت أخيراً كما يفعل معظم الناس في مثل هذه الأحوال : وازنت بين قراراتها طويلاً جداً إلى أن استُهلكت هذه القرارات إذا صحّ التعبير وجسّمت معاً من جديد التردد الشاك نفسه كما في أول ساعة . وحين آن الأوان للتصرف فعلت ولم تقل كلمة مما تمّ التروي به وتم الإزماع عليه ، بل تركته للحظة ، مثلما فعل كارل باور أيضاً .

التقته في ثالث مساء بالقرب من منزلها ، وذلك حين مُنحت في وقت متأخر إلى حد ما الإذن بالخروج ، حيا بتواضع وبدا مرتبكاً نوعاً ما . وقف الشاب والشابة كل منهما أمام الآخر ولم يعرف أي منهما ماذا يقول للآخر . وخشيت تيني أن يراها أحد ودخلت بسرعة إلى مدخل مفتوح مظلم ولحقها كارل إلى هناك خائفاً . وبالجوار كانت أحصنة تضرب أرض الاسطبل بحوافرها ، وفي فناء مجاور أو حديقة كان هاوٍ غرّ يعزف عزف المبتدئين على ناي نحاسي .

" أي عزف يعزفه هذا ؟" قالت تيني بصوت خافت ، وضحكت ضحكة متكلفة .

" تيني !"

" نعم ، ما الأمر ؟"

" آه ، يا تيني -- ."

لـم يدر الشــاب الحــيي أي حكم ينتظره ، إلا أنه خــيل إليــه أن الشقراء لم تغضب منه على نحو لا يقبل التسوية .

" أنت حلوة ، وأي حلاوة " ، قال بصوت خافض وذعر على فوره أنه كان قد خاطبها بالكاف من غير سؤال . هنا مدّ يده إلى يدها ، وهو الذي كان رأسه فارغاً ودائخاً ، وقام بذلك على نحو فيه حياءٌ وخجل وأرخى إليد في خوف ورجاء شديدين بحيث أصبح محالاً عليها أن تؤنبه التأنيب المستحق . لا بل إنها ابتسمت ومررّت يدها اليسرى الطليقة على رأس العاشق المسكين .

" أمـا زلت غـاضبـة علي ؟" سـأل وهو مـذهول ذهول الهـانئ المغتبط .

" لا ، أيها الصبي ، يا صغيري ،" ضحكت تيني بلطف .

" لكن عليّ أن انصرف الآن ، إنهم ينتظرونني في البيت . وعلي أن أذهب وأحضرأيضاً نقانق !"

" ألا تسمحين لي بالذهاب معك ؟"

" لا ، أي شيء تظن أيضاً ! امشِ قبلي واذهب إلى البيت بحيث لا يرانا أحد معاً ."

" إذاً طابت ليلتك ، ياتيني ."

" أجل ، هيا امض ، طابت ليلتك ."

كان في وده أن يسأل ويطلب أشياء مختلفة ، إلا أنه لم يفكر قط

الآن بذلك وانصرف مغتبطاً ، بخطوات هادئة خفيفة لكأن شارع المدينة المرصوف بالحجر أرضية عشب طرية ، وبعينين عمياوين متوجهتين إلى الداخل لكأنه قادم من دنيا مضاءة ضياءً يبهر الأبصار . لم يتكلم معها إلا أقل الكلام . إلا أنه كان قد خاطبها بالكاف وخاطبته هي أيضاً بالكاف ، وأمسك يدها ، وهي مرّرت يدها على شعره . بدا له هذا أكثر من كافٍ ، وكذلك أيضاً بعد سنوات كثيرة ، شعر كلما تذكر هذا المساء بغبطة وطيبة مشكورة ملأتا روحه مثل ضوء .

حين فكرت تيني فيما بعد بالحادثة لم تستطع أن تفهم إطلاقاً كيف كان هذا قد حدث . إلا أن نفسها طابت أن كارل قد مني في هذا المساء بغبطة وأنه شاكر إياها على ذلك ، كما أنها لم تنسَ وقاحته الصبيانية ولم تستطع أن تجد في الشيء الذي حدث أي شرعظيم . وعلى أية حال فقد عرفت هذه الفتاة العاقلة أنها مسؤولة من الآن وصاعداً عن الحالم الهيمان وعزمت على أن ترشده بحبل العلاقة التي نشأت بينهما إلى الصواب بأرقّ وأوثق ما يمكن أن يكون . وكانت قد جرّبت هي نفسها بحياتها في ألم ، ولما يمض بعد على هذا زمن طويل ، أنّ أول عشق للإنسان ، ولو كان طاهراً أو جميلاً ، ليس إلا شيئاً مؤقتاً وطريقاً ملتوية . فقد أملت أن تساعد الصغير على أن يجتاز المسألة من غير موجب للإيلام .

لم يحدث اللقاء التالي إلا يوم الأحد عند بابيت ، هناك حيّت

تيني طالب الثانوية بلطف وأومأت إليه برأسها من مكانها مرة أو مرتين مبتسمة ، وجرّته إلى الحديث معها غير مرة وبدت أن موقفها منه بالمناسبة لم يختلف عما كان عليه في السابق . أما بالنسبة إليه فقد كانت كل ابتسامة منها هدية لا تقدر بثمن وكل نظرة كانت لهباً يلفحه بضياء ووهج .

بعد عدة أيام وجدت تيني أخيراً الفرصة لتتكلم مع الشاب بوضوح . كان الوقت عصراً بعد المدرسة ، وكان كارل قد عاد إلى الترصد في المنطقة حول بيتها ، ولم يعجبها هذا . اصطحبته عبر حديقة صغيرة إلى مخزن للخشب وراء البيت ، حيث فاحت رائحة نشارة الخشب وخشب الزان الجاف . هناك تناولته ومنعته قبل كل شيء من ملاحقتها وترصدها وأوضحت له ما يليق بعاشق شاب من طرازه .

" أنت تراني كل مرة عند بابيت ، ومن هناك يمكنك أن ترافقني دائماً إذا شئت ، ولكن فقط إلى حيث يصحب الآخرون شخصاً ما ، لا الطريق كله ، وليس مسموحاً لك أن تصحبني وحدك ، وحين لا تحترس من الآخرين ولا تتمالك نفسك فإن الحال ستسوء . فالناس لهم عيونهم في كل مكان وحين يرون الدنيا تدخن يصرخون على الفور حريق ."

" أجل ، ولكن إذا ما كنت أعز الناس عندك ."

ذكّرها كارل بشيء من التباكي ، وضحكت .

" أعز الناس ! ما معنى هذا مرة أخرى ؟ قل هذا لبابيت أو لأبيك في البيت ، أو لمعلميك ! إني أستخف ظلك ولا أريد أن أخطئ معك ، ولكن قبل أن يمكنك أن تكون أعز الناس عندي ، عليك أن تكون سيد نفسك وتأكل لقمة عيشك ، وحتى ذلك الحين فالأيام طويلة . وفي أثناء ذلك فأنت لست إلا تلميذاً عاشقاً ، ولو لم أرد مصلحتك لما تكلمت معك قط في هذا الموضوع . ولهذا فإنه ليس من داعٍ لأن تطأطئ الرأس حزناً ، فهذا لا يصلح أي شيء ."

" وما الذي ينبغي أن أفعله ، ألا تحبينني ؟"

" يا صغيري ، ليس الكلام عن ذلك . ليس عليك أن تكون غافلاً ، وألا تطلب أشياء لا يستطيع المرء أن يحصل عليها في سنك بعد . نريد أن نكون صديقين حميمين وننتظر ، فمع الأيام يحدث كل شيء كما ينبغي ."

" أهذا رأيك ؟ ولكن وددت أن أقول شيئاً –"

" ما هو ؟"

" أجل ، انظري – أي–"

" هيا تكلم !"

" –إن كنت لا تمانعين في اعطائي قبلة أيضاً ."

راقبت وجهه الذي تورّد وسأل سؤال غير الواثق وراقبت فمه

الصبياني الحلو ، وللحظة واحدة بدا لها مسموحاً أن تحقق له رغبته . ولكنها ما لبثت أن أنّبت نفسها من بعد ذلك وهزت الرأس الأشقر بصرامة .

" قبلة ؟ ولمَ ؟"

" هكذا فقط ، لا تغضبي علي ."

" أنا لست غاضبة ، ولكن يجب ألا تتطاول . سنتكلم فيما بعد عن ذلك مرة أخرى . ما كدت تعرفني حتى تريد أن تقبّل على الفور ! على المرء ألا يعبث بأشياء كهذه . إذاً كن مؤدباً ! ويوم أحد ألقاك ثانية ، ومن ثم يمكنك أن تجلب معك أيضاً كمانك ، أليس كذلك ؟"

" أجل ، بطيبة خاطر ."

تركته يذهب واتبعته نظرها وهو يسير متأملاً وكارهاً بعض الشيء . ووجدت أنه شاب قويم الخلق لا يحق لها أن تؤلمه .

ولو أنّ مواعظ تيني كانت حبّة مُرة أيضاً لكارل باور ،إلا أنه امتثل ولم تسوء حالته في أثناء ذلك . ولئن كانت لديه عن العشق تصورات أخرى بعض الشيء وخاب أمله في البداية تقريباً ، إلا أنه اكتشف الحقيقة القديمة أن العطاء يسعد أكثر من الأخذ ، وأن يحب المرء أحلى وأجمل وأكثر غبطة من أن يكون المرء محبوباً .

لم يكن ينبغي عليه أن يخفي حبه أو أن يخجل منه ، بل إنه أقرّ به ، ولو أنه لم يره في بادئ الأمر مجدياً ، وقد منحه هذا شعوراً باللذة

والحرية ورفعه من الدائرة الضيقة لكيانه التافه حتى الآن إلى عالم المشاعر والمثل السامية .

حين كانت الخادمات يجتمعن كان يعزف لهن في كل مرة قطعة صغيرة على الكمان .

قال فيما بعد " هذا لك دون غيرك يا تيني ، لأنني لا أستطيع أن أعطيك أي شيء آخر وأقوم به حباً فيك ."

اقترب الربيع وحلّ فجأةً و معه الزهور النجمية الصفراء على مراعٍ ذات خضرة ناعمة وزرقة رياح الفون العميقة الخاصة بجبال بعيدة تكسوها الغابات ومعه ستور رقيقة من أوراق فتية في الغصون وطيور مهاجرة عائدة من جديد . فربات البيوت وضعن أمام النوافذ قطع الجذور مع الياقوتية المكحلة وإبرة الراعي على ألواح للزهور ملونة بالأخضر . والرجال هضموا ظهراً تحت بوابة البيت في أكمام القميص وكان في وسعهم أن يدفعوا في المساء الأوتاد في الهواء الطلق . والشبان والشابات اضطربوا وصاروا أكثر حماسة ووقعوا في حب بعضهم بعضاً .

في يوم أحد طلع خفيف الزرقة ومبتسماً على الوادي النهري الأخضر ، تنزهت تيني مع إحدى صديقاتها . أرادتا أن تسيرا ساعة من الزمن إلى إيمانويلزبورغ ، مكانٍ خرِبٍ في الغابة . ولكن حين مرتا قبل المدينة بحديقة صاحب مطعم بهيجة دوت منها موسيقا ورُقصت فيها

رقصة حلقية دورانية على ساحة معشوشبة دائرية ، ولئن مرتا بالغواية ، إلا أنه كان مروراً بطيئاً متردداً ، وحين انحنى الشارع وتناهى إليهما عند هذا المنعرج مرة ثانية الموجان المتضخم تضخماً حلواً ، موجان الموسيقا المدوية دوياً أبعد ، عندها تباطأتا أكثر ولم تتابعا السير ، بل استندتا إلى سور مرج حافة الشارع وانصتتا إلى الجهة الأخرى ، وحين استعادتا قوتهما للذهاب بعد وقت قصير ، كانت الموسيقا اللهفى لهفة المرح أقوى منهما وشدتهما إلى الوراء .

قالت الصديقة :" إن قلعة إيمانوئيل القديمة لن تفرّ منّا هاربة ."

وبهذا واست كل منهما الأخرى ، ودخلتا خافضتي الأعين محمرتي الوجه إلى الحديقة حيث رأى المرء من خلال شبكة من الغصون وبراعم الكستناء الرمادية الراتنجية السماء تضحك على نحوٍ أكثر زرقة . كان عصراً رائعاً ، وحين عادت تيني إلى المدينة عند المساء لم تقم هي بهذا وحدها ، بل رافقها في أدب رجل جميل قوي .

هذه المرة كانت تيني الجميلة قد وصلت إلى الرجل المناسب . كان مساعد معلم نجارة لم يطل به الانتظار كثيراً ليصير معلماً ويتزوج . تكلم ملمّحاً ومتلعثماً عن حبه وتكلم بوضوح وسلاسة عن علاقاته وتطلعاته . ومع أنه لم يكن يعرفها فقد بدا كأنه كان قد رآها عدة مرات وكان قد اشتهاها ولم تكن المسألة عنده مسألة تسلية عابرة بالحب . وطوال أسبوع رأته يومياً واستمالت قلبه كل يوم أكثر ، وفي الوقت

نفسه ناقشا كل ما هو ضروري ، ثم اتفقا واعتبرا انفسهما مخطوبين مثلما اعتبرهم معارفهم .

بعد الانفعال الأول الشبيه بالحلم أتى على تيني مرح هادئ بهيج تقريباً نسيت به كل شيء لفترة قصيرة ، ونسيت أيضاً التلميذ المسكين كارل باور الذي كان ينتظرها بلا جدوى كل هذه الفترة .

حين خطر الشاب الذي تم إهماله ببالها مرة أخرى آلمها كثيراً أنها فكرت في اللحظة الأولى بأن تضنّ عليه بالخبر الجديد . ثم بدا لها مرة أخرى أنه غير مناسب وغير جائز ، فكلما أعملت عقلها في ذلك استصعبت المسألة أكثر . فقد خافت أن تتكلم فوراً بكل صراحة مع الشخص الذي لايدري شيئاً ، إلا أنها عرفت أنّ هذا كان الطريق الوحيد إلى الخير ؛ وأدركت الآن كم كانت لعبتها الخالصة مع الصبي خطيرة . وعلى أية حال كان يجب أن يحدث شيء ما قبل أن يعلم الشاب من آخرين عن علاقتها الجديدة . لم ترغب في أن يظنّ بها الظنون . أحست من غير أن تعرف ذلك بوضوح أنها كانت قد أعطت الشاب ذوقاً وإحساساً داخلياً بالحب وأنّ معرفة أنه انخدع لسوف تضره وتسمم عليه الشيء الذي عاشه ومرّ به . لم يخطر ببالها قط أنّ هذه القصة الصبيانية ستضايقها إلى هذا الحد .

في النهاية توجهت في حيرتها إلى بابيت التي قد لا تكون القاضي الأقدر في مسائل الحب . لكنها عرفت أنّ بابيت كانت تحب

تلميذها ، تلميذ اللاتينية ، وكانت تهتم بصحته ، ولهذا كان أحبّ إليها أن تتحمل عتابها من أن تعرف أنّ الشاب العاشق متروك وحيداً من غير حماية .

لم تسلم من التأنيب . فبعد أن استمعت بابيت إلى قصة الفتاة كلها بانتباه وصمت خبطت في غضب على الأرض وصرخت في وجه المعترفة باستياء كبير .

"لا تتملقي " ، صاحت بها في حدة . " أنت مكرت به ولهوت لهوك الخسيس معه ، مع باور ، ولا شيء آخر ."

" الشتم لا يجدي نفعاً يابابيت . أنت تعرفين أنه لو كانت المسألة عندي مسألة تسلية لما جئت إليك ولما اعترفت لك . لم تكن المسألة بمثل هذه السهولة ."

" هكذا ؟ والآن ، ماذا تتصورين ؟ من ذا الذي سيتحمل تبعة هذا العمل ؟ هل أنا؟ ويبقى كل شيء عالقاً بالصبي المسكين ."

" أجل ، كفاني شفقة عليه . لكن اسمعي . أقصد ، سأتكلم معه الآن وأقول له بنفسي كل شيء ، لكي تتمكني من أن تهتمي به في حال أنّ هذا ضايقه مضايقة شديدة .- إن شئت -؟"

"وهل أستطيع شيئاً آخر ؟ يا بنية ، يا غبية ، ربما تعلمت أنت شيئا من ذلك . أي فيما يتعلق بالغرور والنية في القيام بدور البريء . وقد لا يضر هذا . "

و نتج عن هذه المقابلة أن الخادمة المسنة أجرت لهما كليهما اجتماعاً في اليوم نفسه ، في الفناء من دون أن يحذر كارل إطلاعها على الموضوع . كان هذا حوالي المساء ، وكانت قطعة السماء فوق الساحة الصغيرة تتوهج ناراً ذهبية خفيفة . أما في زاوية البوابة فقد حل الظلام ، وما من أحد استطاع أن يرى هناك الشاب والشابة .

بدأت الفتاة :" أجل ، لا بد أن أقول لك شيئاً ما ، يا كارل . اليوم يجب أن نودع بعضنا . فكل شيء له نهايته ."

" لكن ما الأمر ؟ ولماذا -؟"

" لأن لي الآن خطيباً -"

" لك ---"

" إهدأ ، واسمعني أولاً . أنت أحببتني ، وما أردت أن أصرفك هكذا من غير تبصر . وقلت لك على الفور كما تعلم ، أنه لا يحق لك أن تعتبر نفسك بسبب ذلك أعز إنسان ، أليس كذلك ؟"

صمت كارل .

" نعم ، وبعدئذ ."

" الآن يجب أن ننهي الموضوع . وأنت يجب ألا تأسى لذلك ، فالحارة مليئة بالفتيات ، ولست الفتاة الوحيدة ، ولست أيضاً الفتاة المناسبة لك ، حيث إنك تدرس وفيما بعد ستصبح سيداً وربما دكتوراً ."

" لا ، تيني ، لا تقولي هذا ."

" إن الحال هكذا ولا بد من ذلك . وأريد أن أقول لك أيضاً شيئاً آخر أن هذا ليس أبداً الشيء الصحيح حين يعشق المرء لأول مرة . والمرء وهو شاب إلى هذا الحد لا يعرف ما يريد . فالخطة غير قابلة للتحقق ، وفيما بعد يرى المرء كل شيء على نحومغاير ويدرك أنه لم يكن عين الصواب ."

أراد كارل أن يجيب ، وكان لديه الكثير ليعترض على ذلك ، ولكن من الألم لم يستطع كلاماً .

سألت تيني : " هل أردت أن تقول شيئاً ؟"

" آه ، أنت ، أنت لا تعرفين-"

" ماذا يا كارل ؟"

" آه ، لا شيء . آه يا تيني ، أنّى لي أن أبدأ ؟"

" لا تبدأ بشيء ، بل ابقَ هادئاً . لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً . وبعد ذلك سيسرك أن الأمور جاءت على هذا النحو ."

" أنت تقولين ، أجل ، أنت تقولين -"

" أنا لا أقول إلا ما هو سليم ، وسترى أنني على صواب حتى لو أنك رفضت أن تصدق ذلك الآن أيضاً . يؤسفني ، يؤسفني فعلاً كل الأسف ."

" يؤسفك ؟- تيني ، لا أريد أن أقول أي شيء ، لك أن تكوني على صواب- و لكن أن يتوقف كل شيء هكذا دفعة واحدة ، كل شيء -"

لم يتابع ، ووضعت هي يدها على كتفه المرتعشة وانتظرت بهدوء إلى أن خف بكاؤه .

قالت بعدئذ بحزم : " اسمعني ، يجب أن تعدني الآن أن تكون مؤدباً وعاقلاً ."

" لا أريد أن أكون عاقلاً ، أود أن أكون ميتاً ، الموت أحب من أن -"

" يا كارل ، لا تتصرف تصرفاً وحشياً ! انظر! كنت قد رغبت فيما مضى بالحصول على قبلة - أما زلت تذكر ؟"

" أذكر ."

" إذاً ، الآن إذا ما أحببت أن تكون لطيفاً . انظر ، إني أكره أن تأخذ عني فيما بعد فكرة سيئة ، وأود أن أودعك على صفاء ، وفي هذه الحال أود أن أمنحك قبلة . أتريد ؟"

اكتفى بالإيماء ونظر إليها حائراً . وتقدمت منه على مقربة وأعطته القبلة ، وتلك كانت هادئة ولا شره فيها ، أعطيت وأخذت بنقاء وصفاء . وفي الوقت نفسه أخذت يده وضغطت عليها بخفة ، ثم انصرفت بسرعة عبر البوابة إلى الممشى .

سمع كارل باور وقع خطواتها تدوي في الممشى وسمعها تغيب ؛ وسمع كيف غادرت البيت ، وتخطت السلم الأمامي إلى الشارع . سمع هذا ، إلا أنه فكر بأشياء أخرى .

فكر بساعة مسائية شتائية كانت قد صفعته فيها فتاة شقراء شابة

في الزقاق ، وفكر بمساء من أمسية أوائل الربيع ، حيث كانت يد فتاة قـد دللت شـعـره بالمسح في الظل في مـدخل فناء ، والكون كـان مسحوراً ، وشوارع المدينة كانت أمكنة غريبة جميلة جمالاً بهيجاً . وخطرت بباله ألحان كان قد عزفها فيما مضى على الكمان ، وخطر بباله مساء ذلك العرس في الضاحية المصحوب بالجعة والكاتو . بيرة وكاتو ، خيل إليه ، هما في الحقيقة تشكيلة تبعث على السخرية ، إلا أنه لم يستطع أن يواصل التفكير في ذلك ، إذ أنه كان قد أضاع أعز الناس وكان قد انخدع وتم التخلي عنه . الحق أنها كانت قد أعطته قبلة - قبلة . . . آه يا تيني !

جلس متعباً على أحد الصناديق الفارغة الكثيرة التي كانت موجودة في الفناء . والمربع السماوي الصغير فوقه صار أحمر وفضياً ، ثم خبا وبقي وقتاً طويلاً ميتاً ومظلماً ، و بعد ساعات ، ومع أن الدنيا كانت مقمرة ، فقد ظل كارل باور جالساً على صندوقه ، وارتسم ظله المختصر أسود ومشوهاً أمامه على البلاط الحجري غير المستوي .

لم تكن إلا نظرات عابرة فردية قليلة لمتفرج خلف السور ، كان باور الشاب قد ألقاها في مملكة الحب ، إلا أنها كانت كافية لتظهرله الحياة كئيبة وتافهة من غير سلوى حب النساء . هكذا عاش الآن أياماً فارغة كئيبة وتصرف من الأحداث وواجبات الحياة اليومية بلا اهتمام مثل شخص لم يعد ينتمي إلى ذلك ، ومعلم اليونانية بدد مواعظه القديمة

الجدوى على الحالم الغافل ؛ وكذلك اللقمات الطيبة ، لقمات بابيت الوفية لم ينجح مفعولها عنده ، ومواساتها الخالصة لم تؤثر فيه .

كان لا بدّ من تحذير غير عادي شديد اللهجة من جانب المدير وعقوبة حبس مزرية لرد المنحرف إلى طريق العمل والعقل . وأدرك أنه لمن العناء والإزعاج أن يرسب قبل السنة المدرسية الأخيرة ، وبدأ يدرس إلى وقت متأخر دائماً في أمسية أوائل الصيف بحيث إن رأسه تبخر . كان هذا بداية الشفاء .

بين الحين والآخر كان يقصد حارة الملح التي كانت ليني تسكن فيها ولم يفهم لماذا لم يعد يلتقيها مرة واحدة . كان لهذه أسبابه . كانت الفتاة قد رحلت مباشرة بعد آخر حديث لها مع كارل لكي تتم في وطنها جهاز العرس . وظن أنها لا تزال هنا وأنها تتهرب منه ، ولم يرغب في أن يسأل أحداً عنها ، ولا بابيت أيضاً . وبعد مثل هذه الظنون الخاطئة والتيهان كان يصل إلى البيت ، حسب الظروف ، عابساً وحزيناً ، وكان يندفع إلى الكمان ويحملق طويلاً عبر النافذة الصغيرة في الأسطحة الكثيرة .

ومهما يكن فقد تقدمت به الحال ، وكان لبابيت نصيبها في ذلك أيضاً . وكانت إذا ما لاحظت إنه كان يوماً وخيماً لم يكن صعودها إليه في المساء وطرقها على بابه بالنادر . ومع أنها لم ترد أن تجعله يعرف أنها

تعرف سبب ألمه ومعاناته فإنها كانت تجلس إليه من بعد ذلك طويلاً وكانت تواسيه . لم تتكلم عن ليني ، ولكنها كانت تحكي نوادر قصيرة مضحكة وكانت تجلب له نصف زجاجة نبيذ فاكهة جديد أو خمر وكانت تطلب منه أغنية على الكمان أو قراءة حكاية . وهكذا كان المساء يمضي بسلام ، وكان إذا تأخر الوقت وانصرفت بابيت أصبح كارل أكثر هدوءاً واستطاع أن ينام من غير أحلام مزعجة . في كل مرة كانت الفتاة المسنة تشكره على المساء الجميل قبل أن تودعه .

شيئاً فشيئاً استعاد الملتاع طبيعته السابقة ومرحه ، من غير أن يعلم أنّ تيني استفسرت عنه مراراً وتكراراً من بابيت في الرسائل . كان قد أصبح أكثر رجولة ونضجاً بقليل . وكان قد عوّض ما فاته في المدرسة وعاش الحياة نفسها تقريباً كما عاشها قبل سنة ، اللهم إلا جمع السحالي وتربية الطيور فهو لم يعد إلى ذلك . ومن أحاديث كبار التلامذة في السنة الثانوية الأخيرة الذين كانوا معه يتناهى إلى سمعه كلام له وقع مغرٍ عن روائع أكاديمية ، فقد أحس بأنه قريب من هذه الجنات قرباً مستعذباً وراح ينتظر بسرور وفراغ صبر العطلة الصيفية . لم يعلم إلا الآن من بابيت أيضاً أنّ تيني غادرت المدينة منذ زمن طويل ، وأنّ الجرح كان لا يزال يختلج ويحترق احتراقاً خافتاً ، إلا أنه كان قد شفي وكان على وشك أن يندمل .

ولو أنه لم يحدث شيء آخر لكان كارل قد احتفظ بقصة حبه الأول في تذكار طيب ومشكور وما كان سينساها قط . إلا أنّ خاتمة قصيرة وقعت ولم ينسها .

قبل العطلة الصيفية بثمانية أيام كان التطلع بسرور إلى العطلة قد غطى في نفسه التي ما زالت سهلة الانقياد على كرب الحب المدوي وطغى عليه . بدأ يحزم متاعه وأحرق الدفاتر القديمة . الأمل بنزهات في الغابة واستحمام في النهر ورحلات بالقارب وعنب الدب والتفاح اليعقوبي وأيام التنزه البهيجة بهجة لا تحدها حدود ، هذا كله سرّه سروراً شديداً لم يعهده منذ زمن طويل . وسار في الشوارع الساخنة سعيداً ، ومنذ عدة أيام لم يفكر بتيني .

ازداد ارتعاشاً حين التقى تيني على غير توقع في عصر يوم في طريق العودة من حصة الجمباز في حارة الملح . بقي واقفاً وصافحها مرتبكاً وسلم سلام المحزون المكروب . ولكن رغم حيرته فقد لاحظ على الفور أنها بدت كئيبة ومذهولة .

سأل في حياء " كيف الحال يا تيني ؟" ولم يدر ما إذا كان ينبغي أن يخاطبها بالكاف أو بصيغة الاحترام .

قالت " ليست على مايرام . هل ترافقني مسافة قصيرة ؟"

استدار وعاد أدراجه إلى جانبها ببطء ، على حين كان عليه أن يفكر كيف كانت قد أبت فيما مضى أشد الإباء أن يراها المرء معه . طبيعي أنها الآن مخطوبة ، قال في ذات نفسه ، وبدافع الرغبة في الكلام فقط ، فقد سأل سؤالاً عن صحة العريس . هنا ارتعشت تيني بصورة يرثى لها بحيث إن هذا آلمه أيضاً .

قالت بصوت خافت :" ألا تعرف بعد أي شيء ؟إنه ملقى في المستشفى ، ولا يعرف المرء ما إذا كان سينجو ."

" ماذا به ؟"

" سقط من عمارة حديثة البناء منذ أمس وهو فاقد الوعي . "

تابعا السير صامتين . وتذكر كارل من غير طائل كلمة طيبة من كلمات المشاركة ، كان هذا بالنسبة إليه مثل حلم مخيف ، مشت الآن هكذا إلى جانبه عبر الشوارع وكان عليه أن يرثي لها .

" إلى أين تذهبين الآن ؟" سأل أخيراً ، لأنه لم يعد يتحمل الصمت .

" إليه مرة ثانية ، فقد صرفوني ظهراً لأن صحتي لم تكن على مايرام ."

رافقها حتى المستشفى الكبير الهادئ الذي انتصب بين أشجار

سامقة ومنشآت مسيجة ، ودخل معها أيضاً مرتجفاً ارتجافاً خفيفاً متخطياً الدرج العريض عبر الممرات النظيفة التي أهابه هواؤها المشبع بروائح طبيّة وأثقل عليه .

ومن ثم دخلت تيني وحدها باباً مرقماً . انتظر بهدوء في الممشى ؛ كانت هذه أول إقامة له في مثل هذا الدار ، فالتصور لكثير من الآلا م والمخاوف التي استترت وراء كل هذه الأبواب المدهونة باللون الرمادي الفاتح ، قد أثر في وجدانه تأثيراً عميقاً مصحوباً بالهلع . ولم يحرك ساكناً حتى خرجت تيني مرةأخرى .

" يقولون أن حاله تحسنت بعض الشيء ، وربما أفاق اليوم . إذاً إلى اللقاء ، سأبقى الآن في الداخل ، وشكراً جزيلاً أيضاً ."

دخلت مرة ثانية في هدوء وأغلقت الباب الذي قرأ عليه كارل للمرة المائة رقم ١٧ وهو شارد الفكر . وغادر المستشفى المخيف وهو متأثر تأثراً غريباً عجيباً .

كان السرور السابق قد تلاشى في أعماقه ، ولكن الذي أحس به الآن لم يعد لوعة الحب القديمة ، كان محاطاً وملفعاً بإحساس وتجربة أعظم وأرحب بكثير . ورأى ألم تنازله صغيراً وتافهاً بالقياس إلى تعاسة من فاجأه منظرها . وأدرك فجأة أن مصيره التافه لم يكن فيه أي شيء يدعو للاهتمام ولم يكن استثناء رهيباً ، بل إن القدر يهيمن على نحو

لا مفر منه على أولئك الذين عدهم سعداء .

على أنه كان عليه أن يتعلم المزيد وشيئاً أفضل وأهم . وفي الأيام التالية ، وبما أنه زار تيني مراراً وتكراراً في المستشفى ، ومن ثم ، وحين تحسنت حال المريض بحيث إنه سمح لكارل بأن يراه بين الحين والآخر ، مرّ به مرة أخرى شيء جديد كل الجدة .

هنا تعلم أن يرى أن المصير العسير الذي لا يرحم أيضاً ليس الشيء الأسمى ولا الشيء النهائي ، بل إنه في إمكان نفوس بشرية ضعيفة مليئة بالخوف ومحطمة أن تتغلب عليه وتقهره . كما أنّ المرء لم يكن ليعرف بعد ما إذا كان في الإمكان إنقاذ المصاب أكثر من البقاء البائس بؤساً لا ضيرله ، بقاء عاجزٍ مشلول . ولكن من فوق هذا الهم المليء بالخوف رأى كارل كلا المسكينين يستمتعان بغنى حبهما ، رأى الفتاة المنهكة التي أضنتها الهموم باقية على إخلاصها وتنشر الضوء والسرور من حولها ورأى وجه الرجل المحطم الشاحب رغم الآلام قد أشرق بضياء بهيج لامتنان حار .

لما بدأت العطلة ، بقي عدة أيام أخرى هنا إلى أن أجبرته تيني على السفر .

في الممشى أمام غرفة المريض ودّعها ، على نحو آخر وعلى نحو أجمل مما كان آنذاك في فناء حانوت كوستيرر . شكرها من غير كلام ،

وأومأت له باكية . تمنى لها الخير ولم يكن في صدره أمنية أفضل من أن يحبّ وأن يتلقى الحب هو أيضاً ذات مرة بالطريقة الطاهرة مثل الفتاة البائسة وخطيبها .

(١٩٠٥)



في مدينة صغيرة

الذين يأكلون لا يشيخون . ولئن بدا كاتب العدل تريفس بسنواته الستين في صحة وعافية وكان متعلقاً بالحياة ، إلا أنه أصيب بالسكتة عند الظهر في أيار ، وفي صباح اليوم التالي نقل الساعي مع مساعده نبأ وفاته إلى المدينة المذهولة .

قال الناس في كل مكان : " يا إلهي ، تريفس !"

" لا تجوز الثقة في أحد بعد الآن . عموماً ، يموت الشيوخ الطيبون تدريجياً ، في العام الماضي شيفّيرت ، والآن كاتب العدل تريفس ! "

و قبل ظهر هذا اليوم لم تكن الأرملة مرتاحة . صديقتان حميمتان كانتا قد قدمتا لمؤازرتها ، بلبلتا أفكار المرأة القنوط بتعداد الواجبات كلها وكل ما لا يجوز نسيانه ، وقامتا بأقل مما تكلمتا وواساتا . وهذا بالذات كان يمكن الاستغناء عنه ، إذ أن السيدة زوجة كاتب العدل لم يكن ثمة ما يدعوها إلى أن تكون حزينة وآسفة ، ولم تكن أيضاً هكذا . إلا أنها كانت مخدّرة مما لاقته بصورة سريعة ، ومتخوفة من واجبات

الأرملة التي برزت فجأة ومشاغل العزاء ولم تتحرك في الحرية غير المألوفة إلا في حياء وخفر وفي ارتباك الحالم على حين تعطّل بقربها في غرفة نومها طاغيتها ومزعجها الذي نسيت موته وعدم خطورته المرة تلو المرة للحظات وتوقعت دائماً وأبداً أنها تسمع من جديد صوته الآمر بلهجة غاضبة .

مشت جيئة وذهاباً وهي خائفة منقبضة الصدر ، وبقدر ما كان الجو نشيطاً في البيت بدا لها هادئاً هدوءاً غريباً .

لم يمت كاتب العادل بسهولة . وبصفته إنساناً قوياً أبيّ النفس كان قد أمر طوال حياته وكان قد تعود على أيام حلوة ، لم يستسلم من غير حنق وشتم وكان قد مات في النهاية في يأس حقيقي ، ذلك لأنه لم يفهم لماذا الآن ، وحيث كانت تنتظره الأوقات الجميلة حق الجمال ، أوقات راحة الشيخوخة ، كان عليه أن يمضي تاركاً حياته وأملاكه . ومع أن صوته العالي قد تحطم ونظرته قد تعكّرت ، فقد غضب وسخط وشتم حتى آخر لحظة وعدّ زوجته مسؤولة عن كل شيء .

في الطابق الأرضي للبيت الجميل المؤلف من طابقين كان الجو هادئاً هدوءاً مهيباً . وهناك كان مكتب المتوفى الذي كان قد أغلق ، وفي المدينة كان مساعد المعلم والمتمرن يتنزهان بثياب العيد مضطرين فرحين بيوم العطلة الذي حل على غير توقع .

وعلمت المدينة بأسرها بحادثة الموت ، فمنْ كان يسير في السوق

العليا لم يكفَّ عن النظر في اهتمام وفضول إلى بيت الميت المحزون الذي انتصب هناك منذ عقود من الزمن وكان قد رآه الجميع آلاف المرات واستطاع كل واحد أن يلاحظ عليه اليوم مظهراً لشيء غير مألوف ومظهر احتفال بحادثة عظيمة .

و بالمناسبة لم يكن في الإمكان رؤية أي شيء ملفت للنظر في البيت إلا حوانيت الطابق الأرضي المغلقة . فالشمس الصيفية المضيئة إلى حد ما أشرقت واضحة وبيضاء على ساحة السوق والمنازل والنوافذ والمقاعد ورسمت بأمانة إلى جانب كل صفق نافذة وإلى جانب كل سلّم أمام الدار وكل مكشطة يدوية ظلاً ضئيلاً ، والكلب الضخم ذو الشعر الطويل والذنب الطويل الكث العائد للصيدلية العليا احتل مكانه الممتاز إلى جانب حجر التوقيف القديمة المائلة إلى الأمام عند زاوية السوق . وعلى حوانيت المكتبيين وصانعي القبعات أسدلت المظلات الحديثة الطرز ، ومن أعلى التلة إلى تحت ومن داخل المدارس دوّت أغنية الصبيان رقيقة خفيفة عبر الهواء البهيج .

عند الظهر ، وقبل أن تفتح المدارس أبوابها وتغرق الميدان الهادئ المشمس ، جاء من وراء الناصية من جهة النهر رجل أو سيد في بدلة حفلات وفي يده محفظة جلدية ذات لون بني فاتح ماشياً بخطى هادئة ، ونظر رامشاً بعينيه إلى الساحة غير المظلمة ، حرك القبعة لاهياً ، ومشى واثق الخطوة فوق السوق كله صوب بيت تريفس الذي

توارى في بوابته . في الدهليز البارد هزّ كلا البابين وبدا غاضباً من أن أحـداً من الموظفين لم يكن مـوجـوداً هناك ؛ ومن ثم صـعـد السلم بسرعة ، دق الجرس على الباب الزجاجي ، وعلى الفور وحين فتح له دخل حجرة الجلوس التي غادرتها كلتا المعزيتين . رفع القبعة عن الرأس الأشقر ، ونظر من حوله ونادى :

" ماما ، أين أنت ؟"

" على الفور ، على الفور ، ." نادت هي من الوراء . " مرحباً بك يا هيرمان !"

" مرحباً بك ."

تناول يدها التي كانت قد مدتها صوبه ، وبعد سعال مضطرب سأل بصوت متبدل خفيف :

" أما زال حياً ؟"

السيدة التي كانت قد أجهدت نفسها منذ الصباح ولم تلتقط أنفاسها بعد ارتمت على الكرسي وانفجرت في البكاء وهزت الرأس الصغير . تقدم الابن بضع خطوات حيران ومستاءً بعض الشيء ، وقامت المرأة من جديد :

سألت : " هل تريد الذهاب إليه ؟"

" فيما بعد . متى --؟"

" هذه الليلة ، أو بالأحرى كان الوقت صباحاً ."

و بما أنها رأته سيغضب ، أضافت بسرعة :" أبرقت إليك مباشرة مرة ثانية ."

قال : " هكذا ، هكذا . أريد أن أذهب إلى هناك ، هل هو في غرفة النوم ؟"

ذهبت معه ، وحين دخلا الغرفة المظلمة ، أمسكت بيده ، وقادته بهدوء إلى سرير الأب حيث بقي واقفاً في صمت ، ثم فتح من بعد ذلك صفق نافذة بدفعة . وهنا دخل شريط من ضوء النهار الذهبي إلى العتمة وشع حتى إلى ما بعد فراش الميت . تمدد هذا جامداً بأطراف تم جعلها مستقيمة وبوجه صارم ، وانحنى الابن فوقه . وأحس أن حزناً سيليق به الآن ، وكان يود لو أنه أبدى عبرة . إلا أنه حين نظر في وجه الأب بعضاً من الوقت وجده مشابهاً جداً لوجهه بحيث بدا له أنه يرى نفسه عجوزاً وميتاً ، وتملّكه إثر ذلك فزع بحيث إنه لبث بعض الوقت دون حراك ولم يستطع أن يبعد نظره عن الميت . ثم مشى من غير ضوضاء وأغلق صفق النافذة من جديد وأومأ للأم أن تخرج .

كان غداء اليوم في بيت تريفس تافهاً ، والابن الذي كان له طبع الأب كان عليه أن يضبط نفسه لكي لا يتفوه بكلمة ذم وملامة . وأحست الأرملة بهذا ولاحظت أن لديها بدلاً من الطاغية العجوز الذي يرقد هناك في الجهة الأخرى ، طاغية شاباً .

و طبيعي كان في وسعها أن ترتحل ، وكان في وسعها أن تتحرر ،

ومـا من أحـد كـان قـادراً على أن يجـبـرها على أن تبـقى الخـادمـة في البيت . وحدها عرفت أنها ستبقى وأن الحياة القديمة ستستمر لا على نحو أفضل ولا على نحو أسوأ . فـمن كـان قد تنازل ذات مرة وكـانت فوقه إرادة غريبة طوال حياة غير كاملة فعليه أن يكون أقوى عزيمة من السيدة تريفس إذا ما أراد أن يبدأ مرة أخرى حياة خاصة حرة .

بعد الطعام جاء الضيوف . في البداية كاتب المحضر كلاينشميد ، ومن ثم كبير موظفي الدائرة . وتصرف السيد الدكتور تريفس إزاء كاتب المحضر بلطف وتودد ، ولكن بوقار ، أما بالنسبة لكبير موظفي الدائرة فقد لجأ إلى المجـاملة والتـأدب . كـان قـد عـقـد النيـة بادئ ذي بدء على أن يؤكد انتماءه إلى أعلى مرتبة في مجتمع المدينة .

في عصر متأخر حضر مساعد المعلم وصبي الكاتب وهما لا يزالان في البدلة السوداء وكان قد استدعاهما الدكتور . وكان عليهما أن يطويا النعيات التي جاءت لتوها من الطباعة ويضعاها في ظروف سوداء الأطر ويعنونانها . خلعا سترتي العيد وعملا في أكمام وقاما بواجبهما كارهين خجلين ، مثل كلبين صغيرين قاما بخروج غير مسموح به وتذكرا الآن تبعيتهما وهما يستدعيان بالصفير . وعلى مضض تصفح المساعد أول ورقة وفاة وقعت بين يديه :" بقضاء الله ومشيئته توفي صباح هذا اليوم في نحو الساعة السادسة حبيبنا الغالي الأب والزوج والصهر والعم والخال فريدريش تريفس ، كاتب العدل" ، وما إلى ذلك .

وإذا لم تكن اللهجة الحزينة المهيبة لنبأ الوفاة هذا لهجةً خالصةً كل الخلاص فإنّ الاجتماع الحاشد للزائرين والمعزين أيضاً لم يكن كاملاً . فقد عرف المرء أن زوجة كاتب العدل القصيرة التي ذبل شبابها لم تحظَ بحياة عز ونعيم في ظل سيادة المرحوم تريفس ، كما عرف المرء أيضاً كم أفادت وفاة الأب المبكرة على نحو غير متوقع خطط الابن ومشاريعه . فقد كان هذا في الثلاثين من عمره وكان ينبغي أن يكون مساعداً للعجوز وشريكاً له . على أن تريفس الشاب كان قد درس في الجامعة وكان يشعر بالاستياء نحو أبيه القديم الطرز والأقل ثقافة بحيث إنهما صعب عليهما كليهما أن يتفاهما . وبذلك كان الابن ، وهو ينتظر أياماً قادمة ، قد لاذ إلى مكتب أحد المحامين بعيداً عن البيت في بعض الأحيان وكان قد انتظر أن يطعن أبوه في السن بحيث إنه لا بد أن يحتاج إليه ويأتي به . وعوضاً عن ذلك كان في إمكانه الآن ، متجاوزاً أشد الآمال ازهراراً ، أن يستقرّ في العش الهادئ .

كانت جنازة كاتب العدل في اليوم التالي من وفاته رائعة للغاية . لم يكن هناك من أحدٍ كان قد أحب المرحوم . على أن مشاركة الناس وحب الاستطلاع عندهم كان يطيب لهما أن يحثّا إلى وفيات غير متوقعة وسريعة إلى هذا الحد . فالمواطن السليم الذي يفكر قليلاً إذا ماسمع أن هذا أوذاك قد مات فجأة يرتعش ويحس أنه قد يحدث له مثل هذا الأمر أيضاً في يوم من الأيام . ويتقدم من الجار قائلاً :" هل

تعرف ؟" ويعقب الوفاة جاداً ببعض الملاحظات المتداولة حول هشاشة الحياة الإنسانية . على أن معظمهم كانوا قد جاؤوا إلى الجنازة لأنهم أحسوا في قرارة أنفسهم أن كاتب العدل تريفس كان أحد أشخاص مسقط الرأس الطيبين المنظورين إلى مدى بعيد والذين لاغنى عنهم . وهناك عشرات من أمثال هؤلاء الذين من دونهم لا يحب المرء أن يتصور الزقاق ودار البلدية وساحة لعبة القناني الخشبية ، رجال ذوو قامات طويلة ملفتة للنظر ولحى كبيرة أو وجوه جميلة أنيقة محلوقة حلاقة ناعمة ، أوشيوخ نحاف هزلى الوجوه مزودون بعلب نشوق وعصي . إنهم ليسوا دائماً أمهر الرجال ولا أكثرهم حرصاً على الصالح العام ، إلا أنهم أشخاص ذوو خلق مظهرهم جزء لا يتجزأ من صورة المدينة ومنظرهم يرضي وتحيتهم يقدرها المرء . ومن أمثال هؤلاء كان تريفس ، وقد كان هذا منتمياً إلى الحزب الديمقراطي وصاحب ثروة معتبرة . وهكذا حدث أنّ أقرب المقربين إليه لم يحزن عليه إلا قليلاً ، على حين بدا أن المدينة بأسرها افتقدته ، وما رغب أحد في أن يتغيّب في أثناء دفن رجل مهم إلى هذه الدرجة .

لم يكن للأم المتواضعة نظرة في ذلك ، وتمنّت في عناء وقلق أن تتخلص من هذه الضجة والشغل ووجوب الكلام في أيام الحداد هذه . إلا أن الشاب د .تريفس نظر بمزيد من الزهو والكبرياء إلى عدد المشيعين الكبير وتلقى الضريبة الشرفية المزجاة لأبيه ولأسرته مثل قائد

حرب ، وبادئ ذي بدء ، خفية من النافذة ، ومن ثم علناً وبجرأة حين خرج من البيت إلى جانب أمه وراء النعش على نحو رسمي ، وكانت عربة نقل الموتى قد زينت بأبهى زينة وكان النعش مغطى بأكاليل . ونظراً للجموع ولعربة النعش السائرة ببطء أخذت الأرملة تبكي بصمت ، ومشى العميد إلى جانبها ، وبدأ الموكب ينتشر على نحو مهيب على حين كانت نصف السوق مليئة بالمنتظرين .

الطريق الأقرب إلى الكنيسة كان يمكن أن تمر عبر زقاق التيجان (كرونين غاسّه) ، على أنه كان غير منحدر ، وبدا أنه لمن الأفضل أيضاً بكثير أن ينحو الموكب خطاً حلزونياً حول مكان نشوئه ، فوق ساحة السوق الطويلة بأجمعها والتي سهّل انحدارها المعتدل شمولية النظرة . وحين مالت عربة نقل الموتى المزينة بالزينة العامرة تحت صوب زقاق الدباغين (غيربر غاسّه) عند زاوية السوق التفت كاتب العدل الشاب السائر وراءها لحظة من الزمن ومتّع ناظريه بمرأى الميدان الكبير الذي أحاط به موكب المشيعين المائج وامتلأ بمهابة سوداء . وتقدم الرجال الموكب وقد اعتمروا كلهم تقريباً قبعات اسطوانية وسرّ بعضهم بلمعانها في ضوء الشمس ، بينما قاوم آخرون أكبر سناً ومن أشكال منسية الضوء المنعكس في فظاظتهم المنطوية على نية حسنة ولم يتركوا إلا خصلات شعرهم المندفعة إلى الأمام تتألق ألقاً فضياً خافتاً .

وباجتياز باب المقبرة عند السور المعشوشب أخذت الأرملة تبكي

مرة أخرى . فقد حدث لها ما يحدث لمعظم الناس وهو أنه عند الدخول إلى جو المدفن وعند هدير نافورة المقبرة المغطاة بالطحالب خطرت في بالها بعض المشيات السابقة للغاية المحزنة ذاتها ، بدءاً من المشي خلف نعش الجدة وحتى نعش طفلها .

إلا أنه فوق كل هذا الاحتفال وعلى منتصف قمة الجبل في العشب كان ذلك الذي ندين له بمعظم معلوماتنا المتعلقة بغيربرزاو ، ألا وهو الشاب هيرمان لاوتين شلاغر . فقد نظر إلى الشيء كله نظرة إمعان وتفكير . ورغم اهتمامه بكل الأحداث الوطنية إلا أنه قلما شارك هو نفسه فيها ، لأنه لم يشعر بالارتياح والانبساط وسط ناس كثيرين ، كما أنه افتقر إلى الثياب المطلوبة لمثل هذه المناسبات والتي ما كان له أن يشتريها إلا بسبب تشييع الجنائز ، وهو إنسان يعيش وحيداً بلا أسرة . على أنه راقب على نحو أدق الشيء الذي كان يجري تحته وربما كان الوحيد الذي عرف كل أهمية هذه الأحداث . إذ أنه أحب مدينته الصغيرة وعرف تمام المعرفة ماذا كانت تعني كل لحية شيباء معمرة وكل سترة خروج متألقة ألقاً أخضر في مثل هذا الجمع . ولهذا شارك في تشييع جنازة تريفس العجوز بطريقته من أعماق قلبه وكان سيقدم ، لو أن المسألة توقفت على ذلك ، أكثر من أي مواطن آخر بأن يرى السيد الفاضل يمشي حياً من جديد في الشوارع . وأسف على هذه المرأة الفاضلة ، وبما أنه عرف أنها أضاعت حياتها فقد أدى واجبه بأن ينقذ

لها التذكار ، ورسم كاتب العدل تريفس في كتاب الجيب الخاص به الذي صال وجال فيه كثيرون من مثل هؤلاء الأشخاص . وبهذه المناسبة ، وبما أنه فرغ من العجوز ، فقد وضع في حسبانه على الفور الشاب الذي لم يقلّ إعجابه به في وجاهته وحزنه الذي لا يستهان به . ورسم بخطوط خفيفة كانت سهلة جداً عليه ، الشكل العريض بدءاً من القلنسوة البراقة وحتى ثنية السراويل السوداء ، ولم ينس التكوّر الخفيف البدين على العنق الغض ولا الجفن الخنزيري السميك ، لا بل إنه قد أجّل هذه الخواص المميزة كثيراً جداً بحيث إنه سرعان ما بدت الشيء الأساسي في الرجل . وبما أن الشكل كله قد اكتسب شيئاً ساراً ، لا بل شيئاً سعيداً سعادة ثابتة رغم الموقف الحزين حزناً جاداً ، فقد وضع في يد الرجل المرسوم على هذا النحو عود صليب ضخماً بدلاً من كتاب التراتيل . وسيحين الوقت فيما بعد لأن تلاحظ في الرسام عن كثب هذا الميل إلى قسوة عرضية .

في أثناء ذلك جرى الاحتفال تحت في الجبانة الظليلة بكل بهاء . فقد تكلم بعد كلمة العميد ، عمدة المدينة ورئيس جمعية الغناء الديمقراطية وتكلم كبير مجلس البلدية ، ومن حقّ له أن يعتبر نفسه من المخولين لم يفته العمل الاحتفالي بأن يتقدم من القبر المفتوح وينظر إلى تحت ويرمي حفنة صغيرة من غصون التنوب ثم يتراجع تعلوه سيماء الحزن لكي ينفض عن سترة الخروج الإبر الخضراء .

وأبدى البعض في هذا العمل طقساً مهماً وتمكناً من أصول اللياقة ، والبعض لم يحالفه الحظ فتلعثم أو حمل معه مرة أخرى الغصون المأخوذة بسرعة . والقس العجوز نظر إلى هذا كله في طيبته نظرة جد ، ووضع اليد على ذراع الأرملة مواسياً وما لبث أن انتهز اللحظة بأن ينبّه إلى الآية الختامية التي طلعت جميلة وقوية من حناجر كثيرة شابة ومسنة وضاعت في هواء أيار الرطيب بخفوت صوب الجبل .

كان هذا في نظر هيرمان لاوتين شلاغر المقيم في عليائه الخضراء مشهداً جميلاً أن يرى الجموع السوداء زرافات زرافات وفي مجموعات مترددة تغادر المقبرة وتغيب فوق البروهيل والجسر صوب المدينة . بل إن بعض المشيعين انتهز المناسبة لأن يزور قبور أفراد عائلته وأن يمكث بعض الوقت في المكان المحزون بين الأسوار المائلة إلى الاخضرار . وانحنت بعض النسوة فوق شموع جديدة أو مهملة ، وتلمّس أطفال على شواهد قبور النقوش القديمة ، وحنت نساء شابات على قبور عزيزة غصن ورد وغصن لبلاب مهمل حتى استقام ودخلن بعدها في حديث مع بستاني المقبرة الذي كان قد غاب في أثناء الاحتفال ، إلا أنه عاد إلى مزاولة عمله بجرافة العشب في الوزرة الخضراء .

كان جميلاً أن ترى أيضاً كيف غرق المدفن القديم في هدوئه الظليل مرة ثانية بعد انفضاض آخر المترددين ، وكيف رتب البستاني

فوق قمة القبر الطرية الصفراء الأكاليل الكثيرة ، وكيف عادت طيور القرقف والشحارير وكيف استعادت الزاوية الخضراء مظهرها القديم النائم نوماً سحرياً . والبروهيل أيضاً ، وشارع بروهيل والجسر السفلي شملها أيضاً هدوؤها من جديد ، وأشجار الكستناء التي كانت على أهبة التفتح كان لها حياة طيورها في الفروع وظلالها السميكة حولها .

كان لاوتين شلاغر سعيداً بعمله اليوم وتشمّس عند منحدره العشبي وتطلع من فوق المدينة المبنية بناءً غير منحدر وذات الجملونات المدببة ومن فوق وادي المروج الضيق ، وقلّب في أثناء ذلك في دفتر الجيب الخاص به الذي اعتاد أن يرسم فيه حياة هذه المدينة بالذات . وأعجب شيء أنّ هذا الشاب كان أحد أبناء غيربرزاو القلائل جداً الذين كان ينظر إليهم أبناء جلدتهم بشك وبخبث إلى حد ما ، ولم يعرفوا كيف يتكلمون معهم على الوجه الصحيح ، مع أنه عرف وأحب مسقط رأسه أحسن وأكثر من أي إنسان آخر . ولم يرق للمدينة أنه صار فناناً ؛ إلا أنّ المرء غفرله ذلك ، ذلك لأنه كان قد اكتسب حديثاً شيئاً من الشهرة بصفة رسام في محلات كبيرة . ولكن بما أنه بدا أنه نجح في فنه فلماذا كان يجلس دائماً هنا في البيت عوض أن يرسم في نابولي أو اسبانيا مناطق أجمل بكثير أو أن يعيش مع أمثاله في مدن الفن ، هذا لم يفهمه المرء ونوّه إلى ذلك بسوء ظن . وفضلاً عن ذلك خلق مزدرين وأعداء لدودين بأنه لم يعد يرسم منذ عدة سنوات أية

لوحات كبيرة جميلة لقلاع وفرسان كما كان قد عرض فيما مضى عدة لوحات هنا ، بل إنه بدلاً من ذلك لم يمارس شيئاً آخر إلا رسم زوايا مسقط رأسه وأشكال مواطنيها على أوراق صغيرة ، إلا أن الأسوأ من ذلك أنه جعل هذه الأشكال مادة للهزل بشيء من المبالغة القاسية وكان قد نشر في أوراق سلسلة كاملة من الرسوم الكاريكاتورية الغريبة لناس محدودي الأفق عرفهم كل واحد في غيربرزاو . الحق أنّ كل من يهمه هذا الأمر كان قد شعر بالمواساة وجبران الخاطر والخلاص أن جاره كان على الدور من بعده مباشرة ؛ إلا أن المرء لم يجد هذا العمل المشين مشرّفاً لا للرسام ولا للمدينة ولم يكن في وسعه أن يفهم هذا النوع الغريب من التعلق وحب الوطن . وكان صعْباً أيضاً التعامل معه . وكثيراً ما قلّ حديثه مع شخص ما طوال أسابيع ودار في الناحية ، ثم كان يظهر فجأة من جديد لدى شرب ربع ليتر في المساء وكان يتظاهر بالود وبدا أنه لا يعرف لما هو قليل حب الناس له .

الحق أنه عرف هذا وعرف تمام المعرفة أنه لم يكن في إمكانه قط إيجاد الراحة والمساواة في الحقوق عند كافة سكان المدينة وأنّ أفراحه وأفكاره لم يفهمها أحد وأن المرء اعتبر برسومه الكاريكاتورية جرائر الطائر الذي يوسخ عشه . ومع هذا كان يعود دائماً المرة تلو المرة إلى غيربرزاو كلّما جرّب حياته في غير هذا المكان . فقد أحب المدينة وأحب الطبيعة ، وأحب هذه البيوت القديمة بجملوناتها الضيقة

والحارات والأزقة المبلطة تبليطاً غليظاً ، وأحب هؤلاء المواطنين وأحب نساءهم وأطفالهم ، وأحب الشيوخ والشبان ، الأغنياء والفقراء . هنا في مسقط الرأس لم يكن هناك حجر ولا وجه ، ولا تحية ولا حركة إلا وفهم كنهها . هنا كان قد تعلم منذ نعومة أظفا ره في سني الصبا المبكرة أن يراقب الناس وينظر باهتمام إلى عجائب الحياة المتنوعة الحلوة . هنا عرف مئات القصص عن كل بيت وعن كل شخص ، هنا كان قد ألف أدق دقائق الحياة كلها وتكشفت له حتى آخر خباياها . وكان قد عاش أيضاً في أماكن أخرى ورأى ناساً ومدناً ، كان في روما وميونيخ وباريس ، وكان قد اعتاد رفقة ناس مسافرين ومدللين ، ولم يكن في الإمكان إيجادهم هنا . وكان قد رسم أيضاً في روما وباريس . وكانت بعضها أوراقاً جيدة ، ولكنه لم يتقصّ في أي مكان كل صغيرة مضحكة بمثل هذه الأمانة والانتباه ومثل هذه السعادة ، ولم تكتسب هذه الأوراق في أي مكان آخر تعبيراً خالصاً مشبعاً إلى هذا الحد ولم تتكلم الخاصة بمثل هذا الصفاء والعمق . ولم يعرف تمام المعرفة كم من ضيق الأفق الغيربرزاوي يكمن فيه ، إلا أنه عرف أن معرفته القاسية الرقيقة الحنون بالحياة المحلية كانت تلك التي فصلته عن أبناء جلدته وجعلته غريباً عنهم . وخلاصة القول : عمله كله هنا كان مراقبة ذاتية وسخرية ذاتية ، وكان إذا رسم السيد المنجد لينكينهايل أو المزين الشاب فاكينهوت رسماً كاريكاتورياً ، فإنه بكل خط كان يقطع لحمه

أكثر بكثير مما يقطع لحم الشخص المرسوم . وبذلك كان الفنان الغريب الأطوار الذي حاز على سمعة أحد السكان المحليين الأقوياء في الأرض والفنانين المحليين البسطاء ، بكل سرية إنساناً فاسداً ، ذلك لأنه كان يسخر من وضع حياتي جميل قنوع أحبه في أعماقه وحسده . وكان قد نفر نفوراً عدائياً من كل عمل فكري لم يقم به إلا مرتكبو الرذيلة نفسها الذين يخرجون المرة تلو المرة عن الأعراف والتقاليد .

هذا الشاب الذي استلقى بالقرب من أوراقه وراقب وادي النهر الجميل البهيج لم يكن يستحق هذه المتعة ، إلا أنه ، وللأسف ، كان الغيربرزاوي الوحيد الذي كان في الحقيقة كفؤاً لهذه المتعة .

وعلى حين أعطى رأيه مرة أخرى في الرسم الكاريكاتوري للشاب تريفس لم يبق خافياً عليه أن هذا الرجل كان غيربرزاوياً قحاً وصحيح الجسم مثله ومنحطاً فاسداً ، وأنّ غاية الطبيعة وإرادتها أن تنجب ويكون لها في هذا المكان كائنات شابهت ابن كاتب العدل الشاب لا الرسام الساخر المتهكم .

وكان إذا رسم كل حجر منصوبة على حافة الطريق في المدينة لم يستطع أن يكتسب قط بكل هذا حق السكن والإقامة الأصلي الذي افتقده في السر والذي كان في حوزة كاتب العدل في كل ساعة من ساعات حياته ومارسه من غير حرج .

ولم يبق خافياً على لاوتين شلاغر بصفته مراقباً سرياً ومؤرخاً

لمدينته الشيء الذي التفت إليه سكان المدينة على كل حال وتكلموا عنه كثيراً ذلك أن الدكتور تريفس الشاب ، متجاوزاً إرث سمعة أبيه ، اهتم بحماسة في أن ينال مجداً في مسقط الرأس . فقد تولى عمل أبيه الكاتب العدل . واللوحة الصغيرة القديمة من النحاس الأصفر التي تحمل اسم الأب أوعز بإزالتها وعلق بدلاً منها لوحة ميناء كبيرة وعليها اسمه ، وعلى حين تخلى عن إضافة لقب الدكتور ، استنتج بعض الزملاء والحساد من ذلك أن اللقب ليس من حق ابن تريفس على الإطلاق ؛ على أنه لم يكن هناك أحد كان سيبحث ذلك ، وسكان المدينة الذين اعتادوا هذا منذ سنين ظلوا يخاطبون الكاتب العدل المتخرج من الجامعة باللقب الجميل .

وسواء أكان دكتوراً أم لا ، فإنه تولى الأمر مثل رجل له خططه ولم يفكر في أن يتخلى عن أصغر الأشياء من ذلك . وقبل كل شيء بذل جهده في أن يؤكد مركزه الاجتماعي الهام ويوطده . لم يكن هذا سهلاً على الإطلاق وتطلب بعض التضحيات ، إذ أنه لا يدخل في إرث أبيه العجوز البيت الجميل والأملاك والدائرة فحسب ، بل السمعة القديمة أيضاً ، سمعة ملك سرّي في الحزب الديمقراطي كان كل واحد على استعداد لئلا يضن بها على الابن أيضاً . على أن هذا مال في أعماقه إلى الموظفين أكثر فأكثر . وكان في وده أن يصير ضابطاً احتياطياً وكان سيسلك سلك القضاء لو لم يصرفه أبوه عن ذلك بلا تردد . وقد أصبح

الآن على مفترق طرق ، ويملؤه الشوق في خفية إلى عالم الألقاب والأوسمة ، إلا أنه تنبه من قبل محيطه وماضيه أيضاً إلى دور بورجوازي ، واختار هو هذا أيضاً ولم يكن له حيلة في أن كل إنسان قد نقل الثمانية والأربعين عملاً لجده ، وما ألقاه أبوه المرحوم من خطابات برلمانية كثيرة بأنها رصيد بديهي . أما هو فقد أبدى في تصرفه احتراماً لا يتزعزع للسلطة والشرف ، وأظهر رشاقة متواضعة ، إنما قاسية في ملبسه ولم يشدّ على كل يد كان أبوه قد شد عليها . سكن عند والدته ، وبذلك تمتع بالنفع والفائدة أن يقف من البداية وقفة رب تدبير منزلي يناسب المقام . كما أنه قام في معظم الأحيان هو وأمه بزيارات مشتركة واستقبلا الزيارات معاً . ومن غير أن يهمل الشغل فقد وفى بكل مطالب فترة الحداد واحتمل كل تضحية تطلبتها العادات .

وبذلك لفت هيرمان تريفس أنظار مواطنيه إلى شخصه وأحاط نفسه بسور واقٍ من سمعة لا غبار عليها ، على حين اقتضى شكله العريض الكبير مثل شكل أبيه الاحترام وأوحى بأنّه على وشك أن يكون ضرورة لا يستغنى عنها .

و نظر بعض أترابه في حسد كيف كان يتقدم يوماً بعد يوم ويمنى بالسعادة ، ورأى المرء : أن هذا كان رجلاً أدت طريقه إلى أمجاد مدنية واجتماعية وعلى عضوية كثير من مجالس إدارات الجمعيات والنوادي واللجان وإلى نقيب الإطفاء ومجلس البلدية وربما أيضاً إلى أعلى .

مراقبون خلوا من كل حسد كانت لهم متعتهم بهذا الصعود العظيم في المستقبل وتمتعوا في رؤيته ببهاء الوطن ، ووجدوا بهذا الظافر المنتصر مثيلاً لهم ، وأحسوه ممثلاً بارعاً لصنفهم ونوعهم ، وفي جمع كبير ممن هو سليم الطوية تحول بتوالي السنين كما كان أبوه ذات يوم ، إلى رمز وإلى تعبير جميل لأبناء غيربرزاو الأقحاح كلهم .

وبما يؤسف له أنه لم تنشأ بينه وبين الفنان لاوتين شلاغر الذي قدره وأعجب به تقريباً ، أية علاقة ودية . فقد كان كلاهما على سن واحدة تقريباً ، وقد عرف كل منهما الآخر من أيام المدرسة ، وكانا قد خاطبا بعضهما بعضاً بالكاف في مناسبات نادرة ، ذلك لأنهما كانا قد التقيا مرة ثانية ، وحيّا كلٌّ منهما الآخر بصفة رفيقي مدرسة . أما الآن ، وبما أن تريفس يريد أن يجعل هذا الإنسان مواطناً وعليه أن يلتقيه كل يوم في الزقاق ، برز نفور عميق منه لم يسبق أن أحس به حيال أي مواطن من أبناء بلده .

كان قد تفادى السلام عليه ، وكلما التقيا في الطريق تخلص منه بتحية مناسبة ، وكان لاوتين شلاغر قد جاراه بذلك ، فكان يرد على التحية بالطريقة نفسها ، لا بل بلمسة من الاحترام والتقدير ، إلا أنه لم يستطع أن يوقف نظرته الباردة الباحثة ، نظرة الرسام . وهذه النظرة بالذات كان يكرهها كاتب العدل من أعماق قلبه . فقد وجدها ساخرة أو فاحصة للغاية ومتعالية خفية ، مع أنها لم تكن تعني ذلك . وانضم

بصراحة ومن غير تحفظ إلى أولئك الذين وصفوا الفنان بأنه إنسان ، وليكن موهوباً ، إلا أنه إنسان مفقود ولا يمكن أن يولى أية أهمية .

وحدث في يوم شتائي قبيل عيد ميلاد السيد المسيح أن دخل د . تريفس في الوقت المعهود الصالون الصغير ، صالون الحلاق أولشليغر واستقر في كرسيه ، ولما أنه كان يوم السبت فقد طلب الجريدة الهزلية المحبوبة < هانز زاكس > ، التي تصل دائماً في مثل هذا اليوم من العاصمة والتي لم يصحّ الاشتراك فيها عند العائلات المحترمة ، إلا أن السادة (الأصغر سناً) اعتادوا أن يجدوها ويستعرضوا ما فيها في المطعم أو عند الحلاق . والحلاق الذي كان قد ترك لمساعده مسافراً بدأ لتوه بخدمته حباً بالزبون المحترم انتزع مبتسماً ظرف الورق الرمادي من طرد بريدي موضوع في مكانه وأخرج الجريدة الهزلية وناول الدكتور إياها . " أنت أول من يقرؤها أيها السيد الدكتور ، فلم تصل إلا قبل عشر دقائق ."

وتريفس الذي كان ربع الساعة هذا عند الحلاق فترة استراحة محببة دائماً إليه ، وضع سيجارته على حافة طاولة المرمر ، بينما كان أولشليغر يربط له المنشفة حول الرقبة ، قلب بارتياح وانشراح الجريدة الجدية < هانز زاكس > ، وعمل الحلاق في خفة وشطارة بفرشاة صابون وطاسة ، ودائماً في تؤدة واهتمام كي لا يزعج الضيف ، وفحص هذا بابتهاج الغلاف الذي مثل على نحو كاريكاتوري سياسياً معروفاً

على شكل امرأة نفساء . ثم جاء مشهد محكمة أظهر الجريدة الهزلية تحت التحقيق ، وفيه كان في الإمكان رؤية شخص هانز زاكس محكوماً عليه وقد اتجه بصورة يرثى لها بعد نطق الحكم صوب الجلاد الذي كان ينتظره مبتسماً بشماتة . ومن جديد جاءت ورقة سياسية ، وجاءت صفحة كتب فيها < رشاقة في ركن الغراب > وما إن ألقى تريفس نظرة على الورقة حتى لفها ودسها في جيبه . والحلاق الذي ذعر من هذه الحركة ، جفل متراجعاً ومعه موسى الحلاقة وسمح لنفسه بنظرة متسائلة .

أما السيد تريفس فلم يتفوه . اللهم إلا عند الانصراف فإنه طلب السماح بأخذ الصحيفة معه التي كان على المعلم أن يعطيه إياها شاء أم أبى . أما الرسمة التي أثارت بدءاً من هذه اللحظة اهتمام كاتب العدل والحلاق والمدينة فقد صورت الدكتور تريفس وهو يقف في السترة السوداء على نحو زخرفي وحيداً في مساحة بيضاء وبيده اليسرى زهرة عود صليب كبيرة ، وباليد اليمنى ممسكاً بالقبعة الاسطوانية . ولم تكن هذه الرسمة مهمة إلا بصفتها نكتة ، فلم تبين إلا بتلميح بسيط فقط في بعض الثنيات المضحكة تناقضاً ضمنياً بين اللباس المثالي جداً وبين البنية وحركات حاملها ، إلا أن هذا كان جميلاً ومضحكاً باعتباره نموذجاً لطبيعة موفوري حال سمان ، وقد تم تصويره بحب أكثر منه بخبث ، وهذه الصفحة كان قد رسمها هيرمان لاوتين شلاغر .

كـان للمـدينة الآن الفـرصـة من جـديد لأن تحنق على الفنان الضاحك الساخر وأن تفرح في سرها بهذه الضربة التي أصابت شخصاً مرموقاً ومعروفاً في كل مكان ، وتداولت الأيدي عدد الجريدة < هانز زاكس> في كل مكان وحيث لم يكن الشخص المذكور قريباً . وهذا بالذات لم يتناهَ إلى سمعه أي شيء ولم يستطع أن يتأكد بكل المساعي أي رأي كان للمواطنين في الأمر المنكر . إذ أنه جرؤ على أن يلمح تلميحاً خفيفاً على ذلك ، فإما أنّ المرء لم يرغب في أن يعرف أي شيء أو أنّ المرء ابتسم ابتسامة خفيفة وتصرف كما لو أن الشيء لا يستحق بأن يكون موضوعاً للحديث .

ومع ذلك سافر تريفس ذات يوم إلى العاصمة ، مصطحباً الرسمة المقيتة ، وقابل محامياً معتبراً استقبله استقبال الزملاء وأبدى له رغبته في أن يقاضي الرسام على رسمته المخلة بالشرف . ابتسم المحامي ابتسامة ناعمة حين نظر إلى الصحيفة ، وقال :" أجل رأيت أنا هذا ، وبالمناسبة فهو رسام بارع ، وحضرتك هل ترى أنه رسمك شخصياً رسماً كاريكاتورياً بنّية القذف ؟ هناك بعض سمات التشابه بالتأكيد . لكن يمكن أن يكون هذا شرفاً لكم أيضاً . فالمستشار تمّ رسمه عشرين مرة رسماً كاريكاتورياً في جريدة < هانز زاكس > ولم يسبق أن رفع قضية ."

وختم المحامي بالقول بأنه ينصح بالعدول عن الدعوى ، وتريفس

بصفته رجلاً عاقلاً رأى أنه قد لا يحسّن الموضوع بمحاكمة علنية . وبذلك عدل عن ذلك ، وكتم في نفسه حقداً عميقاً على الرسام المهين الذي لم يعد يردّ من الآن وصاعداً على تحيته . وكم مرة رفع الرسام قبعته للدكتور عند الالتقاء به ، تارة متهيباً وتارة ساخراً ، ثم كفّ من بعد ذلك عن أن يكون بينه وبين الرجل أية علاقة ، وتركه يمضي في حال سبيله .

كان الوقت قد أصبح منتصف الصيف ، والرطوبة التي أطبقت على وادي النهر الضيق العميق جعلت الفنان الحساس مريضاً جداً بحيث إنه لازم البيت لأيام وقلما خرج لتناول وجبات الطعام . وكم عانى من مثل هذا الاكتئاب الذي كان يدفعه أحيا ناً إلى شرب الخمر في المطاعم وإلى حياة شرب غير لائقة وإلى نزهات في الجبل من غير هدف ، اعتاد أن يعود منها مبهدلاً ومهلهلاً ، وهذه الأعمال الخرقاء ساهمت كثيراً في سمعته السيئة .

بعد عدة ليالي سهاد وأرق وأيام مرض فيها مرضاً بائساً استجمع لاوتين شلاغر قواه وغادر شقته في الضاحية ذات الموقع العالي . لبس بدلته الصيفية الخفيفة المعهودة وكان على ذراعه ياقة جوخ قديمة ، وإلى هذا كان على الظهر علبة كبيرة من الصفيح لجمع النباتات ، وفي اليد عصا عتيقة الطرز كان قد ورثها من أبيه وحفرت من فوق إلى تحت من خشب أصفر قوي ، ومثلت لقلقاً رفيعاً يقف على قائمة واحدة ، وحنى

رأسه نحو الأسفل ووضع منقاره الدقيق متأملاً على الصدر .

بالعدة نفسها كان الغريب الأطوار قد أمضى منذ سني شبابه الوحيدة غير المحمية كثيراً من الأوقات ، أجملها وأسوئها أيضاً . العصا وعلبة الصفيح ، المعطف وقبعة التجوال كانت الصديق له وكانت مفعمة بالذكريات . وببطء وتثاقل صعد الجبل ماراً بآخر بيوت المدينة إلى العراء حيث اختفى في الغابة المسائية .

لم يتقصّ الدروب ، بل مشى عبر الغابة والشعاب التي عرفها منذ نعومة أظفاره ، وفي صعود الجبل أحس بذكريات المئات من مثل ليالي الغابة هذه تبرز مواسية مع رائحة التنوب والريح المسائية . ومن آخر قمة نظر ، وهو يتنفس الصعداء ، وراءه إلى المدينة ورأى كيف كانت صغيرة ومضغوطة في واديها الضيق ، وعرف كما عرف كل يوم : فسواء أكان هروبه سيقوده إلى بلدان نائية أوحتى إلى أقرب هضبة وسواء استغرق أياماً أوأسابيع ، فإنه سيعود مرة أخرى إلى وطنه ويعيش في غيربرزاو ويضع كل طاقة حياته الفقيرة البائسة في رسم هذه المدينة العجيبة ومواطنيها . إلا أنه لم يأخذ معه في الترحال أية أدوات رسم ولا حتى دفتر الرسم .

وخلال أسبوعين سهرهما في الخارج حدثت أمور شتى في غيربرزاو كانت ستهمه في أوقات أخرى . ومن بينها احتفال الأرملة كيمرلين في زقاق ديا كونين بعيدها الرباعي المعروف، من زمن . وهذه

المرأة عاشت منذ موت زوجها صاحبة لبيت صغير في ظروف كافية ، لا بل وافية إلا أنها لم تتمتع بها بدافع الحرص وفضيلة العبيد التي تربت عليها ؛ بل إنها أجّرت هذا البيت باستثناء غرفتين وعاشت مثل امرأة فقيرة أو خادمة ، تشتغل بالغسيل وأعمال أخرى وضيعة وتسير في ثياب عتيقة خفيفة . إلا أنها كانت من نوع السكيرات ، وأصيبت عدة مرات في السنة بنوبتها وقد تذكرت في طيش حدث فجأة ظروفها الممتعة وأخرجت ثيابها الجميلة التي تعود إلى أجمل أيامها وتحولت إلى نوع من السيدات . بقيت في الصباح مستلقية طويلاً على نحو ارستقراطي ولبست بعدها الثياب الناعمة وسرحت شعرها في كبرياء ، وبعد ذلك هيأت وجبة غداء طيبة ثم استلقت من بعد ذلك طلباً للراحة على أريكة ساعة أو ساعتين ، ثم أخذت طريقها إلى القبو وطلعت بزجاجة أوزجاجتين من الخمر ووضعت في وعاء الحساء الفاخر نبيذاً حلّته كثيراً واعتنت به بأن تذوقت طعمه مرات ومرات إلى أن وصل إلى أطيب مذاق : وبهذا المزيج من أنواع النبيذ جلست في مكان مناسب إلى النافذة في الكرسي ذي المسند واحتست ببطء المخزون وإلى ذلك نظرت بكبرياء إلى الشارع حيث تجمّع الأطفال مراراً وتكراراً لكي تراقبهم في عملهم المنفرد ، مثلما جلست هي في مكانها وأفرغت بين الحين والآخر كأسا وتورّد وجهها وجمد شيئاً فشيئاً مع المساء الذي حلّ . وكان إذا ما فرغ الوعاء انتهى العمل اليومي وكانت

الأرملة تذهب إلى سريرها من غير نور لكي تبدأ اليوم التالي على النحو نفسه تماماً وتنهيه إلى أن تكتفي وتعود مع التنهدات إلى الحياة البائسة المعهودة . كان لاوتين شلاغر قد رسمها ذات مرة وقد جمدت في جلستها على نحو مخيف عند نافذتها ولبست الثياب الجميلة وسرحت شعرها تسريحة عالية وانشغلت وحدها بشرابها العظيم . كان له ميل إلى هذه المرأة الغريبة التي ظن أنه يفهم آلامها وأخطاءها الخفية حق الفهم . وكان قد نوى غير مرة أن يسكن عندها ذات مرة ويتعرف عليها على نحو أفضل ، إلا أن هذا لم يتم قط ، إذ أن الفنان كان قد خطر بباله منذ سنوات أن يترك مسكنه حتى الآن ، وقد أنذر غير مرة بأن يخلي الشقة ، إلا أنه ظل في النهاية حيث كان منذ سنين .

وفي أثناء غياب لاوتين شلاغر تمّ انتخاب الدكتور تريفس في مجلس البلدية . ولم يلق كبير عناء في أن يعلم هذا ؛ إلا أن أمراً آخر شغله حالياً إلى حد كبير جداً .

ودام في غيربرزاو ، إلى جانب أصداء أخرى وأزمان منصرمة ، بقايا عدة لنقابة مغرقة في القدم . والواقع أن أكبر عدد للنقابات القديمة كان قد مات أو تحول إلى جمعيات عادية . إلا أن نقابتين حقيقيتين كانتا لا تزالان موجودتين وكانتا إرثين مباشرين لمؤسسات من العهد الوسيط . إحداهما كانت نقابة الصباغين التي بعثت الكاتب العدل على التفكير الكثير وعلى التمني الكثير . وهذه النقابة كانت قبل

مئات السنين نقابة بطريركية وارستقراطية جداً ، ولكن على مدى الأيام انقرضت تقريباً بحيث إنها لم تعد تتكون في الوقت الحاضر إلا من ثلاثة أسياد متقدمين في السن إلى حد ما ، كانوا ثلاثتهم بالمصادفة عازبين . وكان هؤلاء الثلاثة يعقدون طبقاً لعادة قديمة غير مرة في السنة اجتماعات وكانوا يقيمون مأدبة نقابية كل سنة وحفلة كرنفالية وكانوا يحتفظون في منزلهم الذي كان بالمناسبة مؤجّراً بغرفة نقابة خاصة حيث علق المرء على لوحة قديمةصور سلالات مفقودة وعلق رموزها وتذكاراتها وحيث جلس العجّز الثلاثة في أثناء لقاءاتهم النادرة إلى طاولة ضخمة من البلوط أتاحت مكاناً لثلاثين شخصاً .

إن انقراض نقابة الصباغين كان موضع نقاش كثير في غيربرزاو ، إذ أنّ هذه الجمعية تملك فضلاً عن البيت ثروة ضخمة أنفق بعض فوائدها السنوية على صيانة المنزل وحجرة النقابة وبعضها على الحفلة والمأدبة السنوية الفاخرة ، وأنفق بعضها الآخر على التبرعات للفقراء والإعانات ؛ ولكن عند توقف النقابة لاحقاً كان من الطبيعي أن يؤول رأس المال كله مع المنزل إلى المدينة .

هذه الثروة المخزونة خزناً لا نفع فيه والتي صرفت فوائدها على نحو لا يلائم العصر إلا قليلاً جداً واسند جزء من إدارتها إلى الكاتب العدل تريفس كانت قد ملأت عينه قبل ذلك بكثير . فمنذ زمن طويل كان قد درس قوانين نقابة الصباغين ونظم قائمة باسماء الأسر القليلة

التي كان أفرادها هناك متفتحين . وإذا ما التزم المرء التزاماً تاماً بنص الوثائق فلم يكن هناك حالياً في المدينة فضلاً عن الأعضاء الثلاثة إلا رجل واحد كان له حق الانضمام . وكان هذا فيرنر صاحب المصنع الغني الذي كان قد تخلى بدافع الكبرياء عن حقه لكي لا يتهم بالمنفعة ، وبدافع النفور من الأعضاء الحاليين .

وخيّل للكاتب العدل على نحو غريب ومزعج أنّ ثروة النقابة الكبيرة المغرقة في القدم لا يستفاد منها وأنها بائرة على نحو سخيف وأنّ الفوائد ينفقها سنوياً ثلاثة عازبين مزاجيين . وكان قد خطط منذ زمن بأن يمهد لنفسه الانضمام إلى النقابة وينظم من بعد ذلك شؤونها . وبصفته مستشاراً في إدارة الثروة عرف النقابيين الثلاثة وأتيحت له الفرصة أن يراقب أنّ زعيمهم كان الأصغر سناً ، صاحب المعاش يوليوس درايس . وخلافاً لعفة أسرته العريقة واستقامتها فإن هذا لم يكن قد تزوج وكان قد تقاعد في وقت مبكر جداً بصفة شخص غير رسمي لا صنعة له ، لا بل إنه وللأسف أظهر أيضاً منذ عهد الصبا ميلاً إلى نعيم الحياة والراحة التي رفض كل إنسان في غيربرزاو أن يعدّها موهبة ، ولهذا لم يغفر له المرء هذا إلا لأنه كان مزّاحاً وكان يتمتع بالشيء الذي سماه أبناء غيربرزاو فكاهة ذهبية .

ويوليوس درايس هذا حاول د . تريفس أن يتقرب منه في كل مناسبة ويصادقه . لم يكن لدى درايس أي اعتراض على ذلك ورحّب

بتصرفات الرجل المحترم الودية ، على أنه ذهب بعد فترة وجيزة إلى أنه لم يعد يحق له أن يعزو هذا الاهتمام إلى جاذبية شخصه ، بل رأى وراء ذلك الانضمام إلى نقابة الصباغين والمشاركة في حيازتها الضخمة مبتغى مساعي تريفس . ومن لحظة هذا الاكتشاف وجد درايس مسرة في أن يعامل الكاتب العدل الذي تكشفت نواياه الخفية أكثر وأكثر معاملة فيها لطف مترفع استشار أحياناً الدكتور كل الاستشارة ، إلا أنه تحمّله صابراً . وكثيراً ما رأى المرء كلا السيدين يجلسان معاً في الغرفة الجانبية بمطعم العقاب يشربان زجاجة نبيذ أو فنجان قهوة ويلعبان الورق ، ورأى الدكتور يحاول التقرب من درايس باهتمام وتملّق ، والعازب الفرح المبسوط في جهل أتقن تمثيله .

إنّ تمثيلية هذه الصداقة الغريبة بين الكاتب العدل المتكبر الدقيق وبين النقابي المعروف بأنه كثير التنكيت استمرت طويلاً بما يكفي لأن يستمتع بذلك هيرمان لاوتين شلاغر أيضاً .

ذات يوم وبما أنّ منتصف الصيف كان قد برد عاد الرسام إلى الوطن بوجه لوّحته الشمس وثياب معفرة بالتراب . دخل زقاق الملح هانىء البال وطرق ساحة السوق في الوطن وقصد منزله المهمل المترب أيضاً وأفرغ قبل كل شيء علبة العينات النباتية الصفيحية الكبيرة . كان تجويف هذه العلبة مقسوماً إلى نصفين . كان قد وضع في أحدالنصفين قميص النوم والاسفنجة والصابونة وفرشاة أسنان الجوال ،

وكان الآخر ممتلئاً بفيض غامض ووفرة مبهمة من زجاجات صغيرة وسدادات وعلب ورقية وطرود صغيرة من القطن الطبي وأدوات أخرى عجيبة ، وبين هذه لفت الانتباه بعض أكاليل قطع التفاح المجفف المنخرطة في سلك . هذه الأشياء كلها وضعها الرسام في استخفاف جانباً ، ومن ثم سحب من جيوب جاكتته العلوية عدة علب تناولها بعناية على غرار ما يفعله جواهري وفتحها بالتسلسل . ثم ظهر في العلب ، وعلى رؤوس إبر دقيقة ، كل صيد التجوال الصيفي ، بضع عشرات من الفراشات المصطادة حديثاً والجعلان وأخرج لاوتين شلاغر الواحد بعد الآخر مع إبرته بتأنٍ وحذر ودوّره أمام ناظريه مبدياً رأيه ووضعه جانباً لمعالجة أخرى . وفي أثناء ذلك بان في نظرته ، نظرة الرسام الحادة ، سرور صبياني وطفولة سعيدة غاية السعادة ما كان لأحد ان يتوقعها من الانسان الوحيد والخبيث خبثاً متكرراً ، وارتسم بريقٌ خافت من الطيبة والامتنان مثل ضوء الفجر على وجهه الهزيل الساخر .

وكما يلزم الشيء كل فنان حقيقي ، أياً كان نوعه ، فإنّ لاوتين شلاغر أيضاً قد احتفظ لنفسه عبر كل أدغال حياته المترجرجة غير الراضية بطريق استطاع أن يعود عليها للحظات في كل وقت إلى عالم أزمان طفولته حيث مكنون ضياء الصباح ومنبع كل القوى له ولكل إنسان ولم يدخله قط دونما خشوع وتأمل . كان هذا في نظره بريق

الألوان الساحر لاجنحة فراشات جديدة وظهور جعلان وهاجة وهجاً ذهبياً ، وهذا البريق فتح له بمفاتيح الذكريات بوابة الجنة وأعاد مشهده إلى عينيه لساعات حيوية عهود الصبا واستعدادها المشكور للتلقي .

حمل في حذر كنزه إلى الغرفة المجاورة حيث كانت مجموعة حشرات محفوظة كلها في خزانتين جداريتين وحيث كان مكتبه مغطى بألواح شد وورق مقوى للدبابيس ووسادات أطفال وأشرطة ورقية وملاقط ومقصات وزجاجات بنزين صغيرة وأصغر كماشات وأدوات أخرى خاصة بجامع حشرات مجهز خير تجهيز . وهبّ على فوره ليرتب الجعلان المرفوعة على الدبابيس في علب مجموعته ، ولكن أيضاً لكي يمدّ الفراشات بعناية صابرة على ألواح شدّ . هنا نظرت إليه الاجنحة الرائعة وهي منشورة مبسوطة ، بنية ورمادية موبّرة بألوان تمّ رشها بالذرور رشاً شفافاً ، بيضاء كالفضة بعروق بللورية وملونة بألوان بهيجة وذات ميناء لامعة لمعاناً معدنياً . في نظره كانت أجنحة الفراشات هذه أجمل من كل شيء يمكن أن تراه عين إنسان ، مثلما يفضل ناس آخرون سريعو التأثر الورد مثلاً أو الطحالب أو ألوان سطح البحر على أية متعة أخرى للعين ، وعند رؤيتها استعاد للحظات الشيء الذي افتقده منذ سنوات ، ألا وهو اعجاب الارتياح الطفولي بأشياء الطبيعة والاحساس بالانتماء والاقتراب من الخليقة ، وهذا الاحساس الذي لا يمكن إيجاده إلا في الحب والفهم الدقيق لأشياء طبيعية .

على أنه في أثناء ذلك ولما حلّ المساء وضع غنيمته في بعض علب الصفيح بين أوراق مبللة لكي يحفظها مرنة مطواعة ، ومن ثم أحضر زجاجة نبيذ من القبو وخبزاً وجبنة من المتجر المجاور وأكل وهو جالس على بسطة الشباك ، ناظراً إلى الزقاق وقت المساء . وبعد ذلك أشعل مصباح المكتب الصغير وتقصى ، وهو منحنٍ فوق دفتر رسوم تخطيطية ، خطط عمل مقبلة مثلما تكون مثل هذه الساعات المناسبة في كثير من المرات أفضل جالب للأفكار بعد العودة من تجوال محرر .

في دفتر رسوماته التخطيطية كان شكل الدكتور تريفس موجوداً أربع أوخمس مرات ، فقد كان بالنسبة إليه أمراً محتماً ، وأحس برضى وارتياح أنه وجد فيه النموذج الخالص لأحد أبناء غيربرزاو الضيق الأفق . وعلى حين تحركت أفكاره برقة وحنو حول الأشكال المحلية ، من غير أن تتعلق بأية صورة إفرادية واتخذت وجهتها عبر العمل المسائي المسالم وادي ذكريات الشباب ، برزت أمامه فجأة صورة الشاب تريفس في وضوح مفاجيء كما كان تلميذاً ، لا بل كان في مقدوره أن يتذكره أيضا من الفترة التي كان قد لبس فيها الكاتب العدل الحالي السراويل الأولى .

وكثيراً ما كان الرسام قد عانى إلى حد اليأس من أنّ تعلّقاً مريراً اضطره المرة تلو المرة إلى أن يصوّر عالم مسقط رأسه المحدود الأفق في أشكال منفردة من دون أن يتأتى له في أي وقت من الأوقات أن ينتصر

على هذا العالم إلى الأبد في أي عمل ختامي أو أن يتخلص منه ، ومرات كثيرة على مدى سنين كانت قد شغلته خطط تهدف إلى أن تحرره من هذه الضرورة في إنجاز متصاعد . وها قد مثلت مثل هذه اللحظة أمام مخيلته تلقائياً وقد اغتذت وتحددت من مئات مصادر الملاحظة والتذكر وتحددت رجوعاً إلى عهد الطفولة ، مغرية ومعقدة ، وأمسك بها على الفور بكل روحه .

إنّ المهندس المعماري الذي وجد بعد محاولة مضنية في اللحظة المناسبة المسقط الأفقي للبيت الذي يريد بناءه والموسيقي الذي يمثل أمامه فجأة شكل سيمفونية من بين عشرين ورقة رسوم مشوشة مثولاً جميلاً وحيوياً ، يحس في الحال بكل قوى طبيعته تحضّ على هذه المهمة ، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ويرى نفسه وقد تملّكته حمى مؤلمة ألماً لذيذاً لا يمكن تهدئتها إلا بإتمام العمل الذي تمت رؤيته في الأعماق ، وهذا التأثر والتحرّق المؤلم هما من النوع نفسه ومن المنبع نفسه مثل حب رجل شاب لامرأة . وعلى نحو متزايد مفرط في الوضوح كانت هناك قرارات ماثلة مثل أحلام تجد فيها رغبات غير محققة خلاصها في أعماق اللاشعور . وهكذا كانت حال الرسام حين مثلت أمامه في ضوء المصباح خطته تلقائياً وبالحدس . فقد أراد أن يروي في سلسلة من رسوم قصة مواطن من غيربرزاو ، وهذا المواطن كان يجب أن يكون الكاتب العدل تريفس .

كان على المرء أن يراه وقد قدموه لأبيه مولوداً جديداً ويعمده قسيس البلدة ، وقد تزين بالسراويل الأولى وهو ابن ثلاث سنين وأدخلوه المدرسة وهو ابن ست سنين . وكان لا بدّ من تصويره من أول سرقة تفاحة حتى أول علاقة غرامية ، من التعميد إلى التثبيت والزواج ، وكان يجب تصويره تلميذاً وطالب ثانوية لم ينضج بعد ، وطالباً جامعياً ومتقدماً إلى الامتحان وعريساً ومستشار بلدية وموظفاً وخطيباً ومحتفى به ورئيس ناد وأخيراً محافظاً ، ودائماً تريفس نفسه ، نموذج المواطن الطموح الذي يكرس نفسه بطاقة كبيرة وكبرياء عالية لأهداف صغيرة ويحققها كلها والذي لديه ما يشغله دائماً ولا يفرغ منه أبداً ولا يكتفي منه أبداً ، ومع هذا يبقى من المهد إلى اللحد الشخص نفسه الذي يحس كل إنسان في أعماقه بأنه لا يعوض وأنه يترك ناشئاً بديلاً مريحاً يظهر فيه نموذج الأب المربّى والمولّد منذ العصور الأولى من جذر أنفه حتى القدم ومن اللهجة حتى طريقة التفكير في حالة حسنة ومكتمل البناء على نحو مهم . حين قصد السيد هيرمان لاوتين شلاغر في وقت متأخر نوعاً ما مطعم العقاب خالي البال ، وقد حركته الفكرة العظيمة ونفسه لا تصبو إلى نوم ، وجلس ليشرب ربع ليتر نبيذ ، رأى هناك الدكتور تريفس عند صديقه الجديد يوليوس درايس وسرّ به لكأنما كان ملكاً له ولا يدور في العالم إلا من أجل تسليته . كان تريفس قد أدار ظهره عند دخوله متبرماً . وبمزيد من

الابتهاج حياه السيد درايس ، لا بل طلب من القادم الجديد على نحو بالغ المودة أن يجلس إلى طاولتــه ، لكأنه لم يلحظ شــيــئــاً من نفــور تريفس .

أحسّ الرسـام لحظةً من الزمن باللذة أن يقبل الدعوة وأن يحـرج صديق الصبا المستاء . إلا أنه كان في مزاج سمح متلطف جداً بحيث يفعل ذلك .

قال شاكراً :" هناك ما يدعو السيدين إلى الحديث معاً ، وأنا على أية حال لن أبقى طويلاً . نخبك يا سيد درايس!"

" نخـبك يا سـيـد لاوتن شـلاغـر " ، هتف درايس إلى الجـهـة الأخرى . " إنّ رسوماتك الأخيرة سرتنا جميعاً سروراً كبيراً ، أليس كذلك ، أيها السيد الدكتور ؟"

لم يحـر تريفس جـواباً . رشف نبـيـذه منزعـجـاً وأحس أول مـرة بإحـسـاس داخلي أنّ هذا السـمج الثـقـيل الظل يوليـوس درايس حليف لهـذا الرسـام المقـيت وأنهـمـا كليـهـمـا ، من دون أن يعـرف أو يرغب ، عدوّاه .

الحق أن درايس والرسام كانا يلتقيان كثيراً في الوقت الحاضر ، وما كان قد تحدث به الكاتب العدل مساء هذا اليوم كان يصل في الغد إلى مسامع لاوتين شلاغر .

حين انقضى الصيف أخذ صبر الدكـتور تريفس ينفد على ثمار

صحبته للسيد درايس . فقد دعا الصديق إلى نزهة يوم الأحد وفاتحه برغباته الخفية وهما يشربان زجاجة خمر أفينتالية في حانة التاج الذهبي بكروكلينغين .

قال ملحّاً : " انظر ، إنه لمعيب وإنه لأمر لا يغتفر أن نترك جمعية موقرة منذ القدم مثل نقابتكم ، نقابة الصباغين ، تموت هكذا ببساطة ، لا لشيء إلا لأنه لم يعد هناك أية سلالة من العائلات التي هي أهل للنقابات . وعليكم أن تقبلوا هذا أو ذاك الرجل الكفء الذي سيبث الحياة والحركة في النقابة ويقوم بالأعمال وينشّط مجلس الأنس . وأنا ، على سبيل المثال ، عهد إليّ ، كما تعرف جانب من إدارة ثروة نقابتكم ومطلّع على شؤونكم . وبصفتي عضواً في النقابة فإنني لن أتخلى عن الأتعاب التي سأطالب بها لقاء العمل الإداري البسيط فحسب ، بل إني لن أتقن أيضاً تحسين سير أعمالكم القديم الطرز بعض الشيء ، بل وسيكون في مقدوري أيضاً أن أرفع ريعية رأسمالكم جداً . وبصورة عامة ، وبما أنني استمتعت في الفترة الأخيرة بأن أتعرف إليكم عن كثب وأن أصاحبكم هذه المصاحبة الودية فسيكون من دواعي سروري أن أنتمي إلى نقابتكم ، وهل لي أن آمل أن يلقى طلب انضمامي تأييدكم ؟"

أجاب درايس مفكراً : " بكل تأكيد ، لكنكم ستعرفون ما هي شروط الانضمام . وحسب معرفتي فإنكم لستم على صلة قربى كافية

بأية أسرة من الأسر التي لها حق نقابي ."

" أعرف هذا " ، اعترف تريفس ببساطة . " ولكن أمي تنتمي على أية حال إلى روتفوس وتربطها بنسبكم أنتم آل درايس رابطة عمومة ؛ وفضلاً عن ذلك أعرف أنه قد منحت على مدى القرون عضوية النقابة مرتين لناس ليس لهم حق شرعي . لا بل إنها منحت ذات مرة لشخص من خارج المدينة كان قد اكتسب الحق المدني بالرشوة . ولا يمكنكم بجد أن تتركوا نقابتكم كلها تموت بسبب مصادفة ."

" لم يخطر هذا ببالنا بعد . وقبل كل شيء نحن ثلاثة أعضاء أحياء وبموتهم ليس الأمر جد مستعجل إلى هذا الحد . وفي نهاية المطاف سيكون توقف النقابة كارثة كبيرة نوعاً ما . ومنذ زمن طويل لم يعد لها معنى ، وبانحلالها ستنتقل ثروتها إلى المدينة التي قد تحتاج إليها . فنحن ندفع ضرائب بما فيه الكفاية ، وفي هذه الحال لن يضر تحسين بسيط بشيء ."

لم يستطع تريفس أن ينكر هذا باعتباره عضواً في مجلس البلدية . واكتفى بأن كرر أنه سيكون خسارة إذا ما اضطر المرء إلى أن يرى مؤسسة عريقة وجميلة إلى هذا الحد تنتهي . ورجا بأن ينقل إلى الآخرين طلبه بالانضمام .

كان درايس قد انتظر هذا طويلاً . ووعد بجواب سريع وسرّه أن

يجـد هذا الرجل الضـيق الأفق في قـبـضـتـه وأن يلقنه درسـاً . إذ أنّ الكاتب العدل بدا له رجلاً ضيق الأفق ، مع أنّ درايس نفسـه لم يكن بأصغر . وهو بصفته عازباً ميالاً للراحة فقد كان ينفر من كل الوصوليين المتسلقين ومن كان يمارس نشاطاً غير مشروع . إلا أنه ما من شيء كان إلا خموله وسروره بالتنكيت اللذين جعلاه يحتقر مواطنيه الأكثر مهارة بأنهم ناس ضيقو الأفق . وفي سنوات انضـمامـه إلى النقابة كان قد سـيطر هناك على المناقـشـة وبرز بصـورة خـاصـة منظمـاً لـلاحـتـفـال الكرنفـالي السنوي ، وبما أنه لـم يشـغله أي عـمل أو هم فـإنه كـان قـد امتهن التنكيت شيئاً فشيئاً .

ولفـتـرة طويلة لم يحـدث في النقـابة أي شيء مـسلٍّ التـسليـة المناسـبة ، وبسـرور رحّب درايس بهـذا البـاعث على مـقلب سـخيف . شأنه شأن كل التنابلة والناس غير الجـادين لم يكن أحبّ إليـه من أن يرى أحياناً شخصاً آخر وقفاً عليه وأن يسيء استعمال سلطته العرضية المؤقتة . ولهـذا دعـا على الفور إلى اجتـمـاع نقابي نظمه بعد موافقة الأعضاء اللامبالين إلى عشاء احتفالي جميل . وجلس الثلاثة العازبون الذين لا ينفـعـون في شـيء ، مـعـاً إلى طاولة النقـابة الكبـيـرة بعشـرة أضـعـاف ، وقـد قـام على خـدمـتـهم نادل ، وتحت الاشـراف المتـواضع لصـاحب المطعم ، وأكلوا مـا بدا لـهم طيبـاً وشـربوا أيضـاً نبـيـذاً أحـمـر وكـانت أمـامـهم كؤوس آبائهم الفضـيـة وخـيل إليـهم أنهم مـضـحكون

ومـهـمـون ، وفي خطبـة مـضـحكة حكى درايس عن طلب د . تريفس الذي نشـأ حـوله قليل من الاسـتـغـراب ، ذلك لأنه لم يكن نادراً أن وصلت إليهم مثل هذه الطلبات ، وبدلاً من رفض مقدم الطلب ببساطة وموضوعية قرر درايس أن يسخر منه قليلاً ، وأسدى إليه الرسام لاوتين شـلاغـر نصائح ممتازة . وبذلك وبعد عـدة أيام استلم الكاتب العـدل رسالة رسمية من نقابة الصباغين أشير فيها إليه بأن يعيد طلبه كتابياً بتعليل مفصل ، مرفقاً بشجرة للنسب واضحة التقسيم . وبالمناسبة كان الطلب قد صيغ صياغة مهذبة جداً بحيث إن الكاتب العدل حمله محمل الجد رغم أن هناك شيئاً من الإحساس بالعكس ، وأمضى ساعات مسائية نشطة كثيرة في وضع صورة جميلة لشجرة نسبه .

وأوعز بتقديم شجرة النسب هذه مع رسالة طويلة إلى رئيس النقابة المبجل ، ثم انتظر جواباً من غير طائل لوقت لا بأس به ، وفي أثناء ذلك انتهز سادة النقابة الفرصة لعدة اجتماعات وفطور وحفلات شرب .

ولكن تريفس استلم في النهاية رسالة منمّقة ومكتوبة بخط جميل وعليها خاتم النقابة الجميل . في لهفة أغلق على نفسه غرفة مكتبه وفض الرسالة وقرأ ، ولم يدر هو للحظة من الزمن ما إذا كانت المسألة مسألة جد أم مزاح . إلا أنه اتضح له من بعد ذلك أنهم

استحمقوه ، ولم يعد هناك في غيربرزاو خصم للنقابة أعنف منه ، وكان نص الرسالة :

" السيد الدكتور المحترم !

استلمت نقابة الصباغين الرفيعة طلبكم ونشعر بأن هذا يشرفنا ، وببالغ السرور سنكون مستعدين لأن نلبي طلبكم لو لم تصعّب علينا هذا قرارات اتخذت سابقاً .

إن نقابتنا ، نقابة الصباغين الرفيعة ، تتألف حالياً كما هو معروف لديكم ، من ثلاثة أعضاء فقط أحجموا ثلاثتهم عن الزواج ، بحيث إن النقابة ستموت بعد سابق موتهم وسيؤول ملكها بعد وفاتهم إلى المدينة غيربرزاو . هذا هو رأينا وتلك هي مشيئتنا . وفيما يتعلق باستفساركم الكريم ، فإننا مستعدون ، بكل سرور ، أيها السيد المحترم ، لأن نقبلكم في نقابتنا إذا ما تأكدنا أن مقاصدنا السابقة لن تتضرر بذلك .

ولهذا يشرفنا أن نعلمكم أن لا شيء يقف في طريق انضمامكم على أن تتعهدوا خطياً وبقسم لدى حصول دخول ألا تتزوجوا أبداً . فإذا لم يلق هذا الشرط الوحيد ترحيبكم وتأييدكم فلا بد لنا أن نتخلى آسفين عن الشرف الذي قد يعنيه لنا انضمامكم ."

و منذ أن ظهر في مجلة < هانز زاكس > الكاريكاتور المرسوم من قبل لاوتين شلاغر لم يعد يلقى تريفس مثل هذه المضايقة ، فتحية

السيـد درايس الذي التقاه في يوم آخر ورفع القبـعة بأرق الابتسـامات وألطفها ، لـم يكن أحب إليه من أن يردها بلطمة .

هنا ينتهي المخطوط

(١٩١٧)



عمل غير مكتمل من أيام الصبا

من التلال هبط المساء الصيفي بستور ذهبية . كان اليوم حاراً وساطعاً ، وفي هذا الوقت لفحت الريح الليلية الحقيقية النهرالذي بدأ الظلام يخيم عليه بهبات باردة من الجبال ، محملة بعطر زهر الزيزفون الثقيل ثقل العسل .

وعلى حين خمدت أصوات سير السيارات وضجيج العمل في المدينة المسائية أكثر وأكثر تناهى غناء التيار السريع المنتظم على نحو مسموع أكثر . ومن قارب منساق مع التيار بسرعة تردد صوت بنت فلاحة تغني ، وأصاخ السمع متنزهون وضحكوا صوب الناحية الأخرى . وفي بيوت جهة الضفة غير المنحدرة التي شمخت سوداء مظللة في السماء الصافية صفاء الحليب أخذت نوافذ حمراء منفردة تتوهج هنا هناك وشكلت صور نجوم وأشكالاً عرضية حرك صورتها المنعكسة نهر الراين بارتفاع موج غير منتظم وجعلها ترقص .

في غرفتي تحت السطح الواقعة عالياً فوق النهر كان الجو لا يزال حاراً . ولزمت النافذة المفتوحة وراقبت الماء الذي انساب صوب الليل

والبعد لا يمنعه مانع أيضاً وعلى نحو منتظم ورتيب أيضاً وغير مبالٍ مثلما انسابت مني الأيام القاحلة ، كان يمكن أن ينبغي أن يكون كل واحد منها ممتعاً وغالياً على نحو لا يمكن فقدانه وضاع أحدها مثل الآخر من غير قيمة ومن غير تذكار .

هكذا جرت الأمور منذ أسابيع ، ولم أعرف كيف ومتى تصبح على نحو آخر . كنت في الثالثة والعشرين وكنت أمضي يومي في مكتب تافه ، كسبت فيه مالاً من عمل تافه ، إلى حد أنني استطعت أن أستأجرحجرة صغيرة تحت السقف وأن أشتري من المأكل والملبس الأكثر ضرورة . فالأمسيات والليالي وساعات الصباح المبكرة ، ولكن أيام الآحاد أيضاً كنت أمضيها بالجلوس في حجرتي الصغيرة وكنت أقرأ في بعض الكتب التي كانت بحوزتي ، وأرسم أحياناً وأمعن التفكير في اكتشاف كنت أعتقد أنني أنجزته وكنت قد أخفقت في إنجازه خمس وست مرات وعشرين مرة . وفي الفترة الأخيرة كنت قد تركت العمل بذلك وجلست حيث أنا واستغربت إلى أين راح النشاط وحب العمل الجارف والإيمان المريح بي أنا . وبين الفينة والفينة كنت أقوم بمحاولة صغيرة أيضاً ، وكنت أسقط وجبة أكل وأشتري بالقروش الموفرة أدوات رسم وورقاً وزيتاً للمصباح ، إلا أنني لم أقم بهذا إلا بدافع الحاجة وبالرغبة غير المصدقة ، لكي أتمكن من قضاء ساعات وأمسيات مثل سابق الأزمان في حماسة الأمل والعمل الرائعة . ومنذ أن أقبل

الزمن الحار وتوهجت غرفتي حتى الليل في حرارة السقف المضنية لم أراقب خارج مكتبي الساعات إلا بصفة مراقب عاطل عن العمل ، ولم أعترض أن أراها تمضي من أمامي مثل زهور ذابلة . وفي بعض الأحيان كنت أجلس برهة على مقاعد مكان عام حيث تفوح رائحة أشجار ومروج ، وأحياناً كانت يتملكني في صباح الأحد شوق عارم مفاجئ إلى الحقول والغابة والجبال وهواء الريف إذ أنني كنت قد نشأت في الريف . على أنه ما من مرة تقريباً استجبت لهذا الحنين إذ أنني كنت قد افتقدت بالحياة البائسة وقلة المال الدائمة كل حيوية وإقدام . وكنت إذا ما تذكرت الوطن وعهود الطفولة والحياة الريفية ذات مرة كثيراً جداً ، كنت أكتب رسالة إلى أمي أحكي فيها لها أن صحتي جيدة ، وأن في المدينة الحالية حياة رائعة وكان يحدث هذا مرة كل خمسة أوستة أسابيع ، وبعدها كنت أفكر لماذا أكذب على الإنسان الوحيد الذي كان حبيباً إلى قلبي وكان متعلقاً بي .

وفي ذلك المساء الصيفي الجميل كنت متردداً فيما إذا كنت سألبي دعوة المدير جيلبكه إلى حفلة عائلية في الحديقة أم لا . لم يكن مستحباً لي أن أكون وسط ناس وأضطر إلى الكلام والإصغاء ورد الجواب ؛ وكنت إلى ذلك في غاية التعب وغير مكترث ، كما أني كنت مضطراً إلى أن أكذب هناك وأتصرف كما لو أني في حال جيدة وأن أموري استقامت . على أنه كان تصوراً حلواً ومريحاً أنه سيكون

هناك شيء للأكل ومشروب لذيذ ، وأنه سيكون في الحديقة الرطيبة زهور وشجيرات تعبق ودروب هادئة عبر شجيرات زينة وتحت كل الأشجار . كان المدير جيلبكه ، بغض النظر عن بعض زملائي الموظفين المساكين في المحل ، الشخص الوحيد الذي كنت أعرفه في المدينة . وربما كان أبي قد قدم له ذات مرة أو لأبيه أيضاً معروفاً في سابق الأزمان . وتلبية لنصيحة أمي كنت قد قمت بزيارة له قبل سنتين ، وكان السيد اللطيف يدعوني دائماً إلى البيت من دون أن يعرضني لأوضاع اجتماعية كانت قد عجزت تربيتي وثيابي عن مواجهتها .

إن فكرة جلوس بارد مهوّى في حديقة المدير جعلت غرفتي العتيقة رطبة بغيضة كلياً على نفسي ، بحيث إنني قررت الذهاب إلى هناك ؛ لبست أحسن سترة ونظفت ياقة قميص بممحاة ونظفت السراويل والحذاء بفرشاة وأغلقت الباب ورائي بحكم عادتي مع أنه ما من لص كان يمكن أن يأخذ شيئاً من عندي . هبطت ، وأنا متعب بعض الشيء مثلما كنت آنذاك دائماً ، إلى الزقاق الضيق الذي أدغشت الدنيا فيه ، من فوق الجسر الحي عبر شوارع هادئة في الحي الأكثر ارستقراطية إلى بيت المدير الذي كان يقع تقريباً خارج المدينة في فخامة شبه ريفية متواضعة تواضعاً عتيق الطراز . وتطلعت ، كما أفعل أحياناً ،على البيت المبني بناء وطيئاً وعريضاً وإلى البوابة التي غطتها ورود متسلقة وإلى النوافذ السميكة ذات الحواف العريضة بشوق

خائف ، وكبست الجرس بخفة ومررت بالخادمة في الدهليز شبه المظلم بارتباك حاد كان ينتابني قبل كل لقاء مع ناس غرباء ، وحتى آخر لحظة كان لي أمل غير كامل أن أجد السيد جيلبكه وحيداً مع زوجته أو ربما مع الأطفال ؛ إلا أنه تناهت إليّ من الحديقة أصوات غريبة ، واجتزت متردداً الصالة الصغيرة صوب دروب الحديقة التي لم تكن مضاءة إلا بقليل من المصابيح الورقية إنارةً غير مضمونة .

استقبلتني ربة البيت ، وصافحتني وقادتني على طول شجيرات عالية إلى حوض زهور دائري حيث جلس الجماعة في ضوء المصباح إلى مائدتين اثنتين . حياني المدير بطريقته المرحة مرح الانبساط ، وأومأ له بالرأس عدد من أصدقاء العائلة ، ونهض بعض الضيوف ، وسمعت أسماء تذكر وتمتمت بتحية وانحنيت أمام بعض السيدات اللواتي تألقن في ثياب فاتحة اللون في ضوء المصابيح ونظرن إليّ لحظة من الزمن ، ثم قدم إلي كرسي ، ووجددت نفسي أجلس تحت عند جانب ضيق لإحدى الطاولات بين آنسة جاوزت مرحلة الشباب وفتاة شابة نحيفة . كانت السيدات يقشرن البرتقال ، أما أنا فقد وضع لي سندويشة زبدة ولحم فخذ الخنزير وكأس نبيذ . ونظرت إلي التي جاوزت مرحلة الشباب بعض الوقت وسألتني بعدها عما إذا كنت فيلولوجياً وعما إذا لم تكن قابلتني هنا أو هناك . نفيت وقلت إنني تاجر ، أو في الحقيقة تقنيّ وأخذت أفهّمها أي نوع من البشر أنا ؟

ولكن بما أنهــا أدارت نظرها إلى مكان مــا ولـم تصغ لـذت بالصــمت وأخذت آكل من الأطعمة الطيبـة . وبهذا ، وبما أنه لم يزعجني أحد ، أمضيت ربع ساعة في الأقل ، إذ أنه كان في نظري استثناء احتفالياً أن يكون لدي في المسـاء أكـل رائع وكـاف إلى هذا الحد . ومن ثم شـربت ببطء كـأسـاً من النبيـذ الأبيض الجيـد وجلست عـاطلاً عن العـمل ومنتظراً ما سيحدث .

عندئذٍ التـفـتت السـيـدة الشـابة التي كـانت على يميني والتي لـم أتكلم معها بعد ولا كلمة واحدة صوبي فجأة وقدمت لي بيدٍ نحيلة مطواعة نصف برتقالة مقشرة . وعلى حين شكرتها وتناولت الثمرة أحسست على غير عادتي بالفرح والانبساط ، خطر ببالي أن إنساناً غريباً قد لا يقترب من إنسان آخر على نحو ألطف مما جرى في تقديم جميل وبسيط مثل هذا الجمال وهذه البساطة .

الآن فقط نظرت إلى الجالسة إلى جانبي باهتمام ، والتي رأيتها كان فتاة حلوة رقيقة ، بمثل طولي أو أطول مني ذات هيئة واهنة إلى حد مـا ووجـه جـمـيـل مـسـتطيل . هكذا بدت لي على الأقل في تلك اللحظة ، إذ أنني استطعت فيما بعد أن ألحظ أنها كانت رقيقة ونحيلة جداً في أعضائها . إلا أنها كانت قوية نشيطة ورشيقة وواثقة من نفسها . وحالما نهضت وتجولت انمحى تصوري لرقة تحتاج إلى حماية ، إذ أن الفتاة كانت في مشيتها وحركاتها هادئة متكبرة ومستقلة بذاتها .

أكلت نصف التفاحة بتأنٍ وبذلت جهداً أن أقول للفتاة عبارة مهذبة وأظهر نفسي إنساناً محترماً احتراماً لا بأس فيه . إذ أن الشك كان قد ساورني فجأة أنها راقبتني من قبل وأنا أتناول وجبتي الصامتة وأنها رأت فيّ الآن إما إنساناً فظاً جلفاً ينسى جواره عند الأكل ، وإما عدتني شخصاً يعاني من الجوع ، وهذا سيكون بالنسبة لي أكثر إزعاجاً ، ذلك لأن هذا شابه الحقيقة في يأس . إلا أن موهبتها الجميلة فقدت من بعد ذلك المعنى البسيط وتحولت إلى عبث وربما إلى سخرية . على أن شكلي بدا غير مسوغ . وعلى الأقل تكلمت هذه الآنسة وتحركت في هدوء غير متكلف وتجاوبت معي في أحاديثي بمشاركة مهذبة ولم تتصرف تصرّف مَن تعتبرني أكولاً همجياً .

ومع ذلك لم يسهل عليّ الحديث معها . كنت قد سبقت آنذاك في بعض تجارب الحياة معظم أترابي الشباب بمراحل ، كما أني لم أكن بأقل منهم ثقافة خارجية ومراناً اجتماعياً . وإنّ حديثاً مهذباً مع سيدة شابة ذات أدب وحسن سلوك كان في نظري مغامرة جريئة على أية حال . كما أني لاحظت بعد فترة من الوقت أن هذه الفتاة الجميلة كانت قد انتبهت إلى أنني دون غيري قوة ومقدرة وأنها تلاطفني وتعاملني بحذر ، أثارني هذا ، إلا أنه لم يهوّن عليّ ارتباكي الثقيل ، بل إنه أربكني ليس إلا ، بحيث إنني ما لبثت أن أصبحت في حالة مزعجة من عناد يائس رغم البداية النشطة السارة . وحين أبدت

السيدة بعد برهة من الزمن اهتماماً بأحاديث المائدة الأخرى ، لم أحاول أن استبقيها عندي ، بل بقيت جالساً في عناد وخمول على حين تحادثت تلك مع الآخرين في حيوية ومرح . وقُدّم لي صندوق لفائف غليظة ، أخذت ساقاً ودخنت في المساء المائل للزرقة بكآبة وصمت . ثم نهض عدة ضيوف وأخذوا يتنزهون في دروب الحديقة متحدثين ، نهضت أنا بهدوء وتنحيت جانباً ووقفت ومعي اللفافة الغليظة وراء شجرة حيث لم يزعجني أحد وحيث استطعت أن أراقب اللهو والتسلية عن بعد .

وبحسب طبيعتي المفرطة في الدقة والتي لم أستطع للأسف أن أغيرها قط فقد تضايقت ولمت نفسي على سلوكي العنيد عناد الأغبياء من غير أن أتمكن من التغلب على نفسي . وبما أنه ما من إنسان اهتمّ بي وأنا لم يقرّ لي قرار على عودة لا تؤذي أحداً ، لازمت مخبئي الذي لا موجب له نصف ساعة من الزمن ولم أبرز متردداً إلا حين سمعت رب البيت يناديني ، سحبني المدير إلى طاولته وأجبته على أسئلته اللطيفة عن حياتي وصحتي أجوبة ملتوية ، وشيئاً فشيئاً وجدت طريقي ثانية إلى مجلس الأنس العام . وطبيعي أنني لم أنجُ من عقوبة خفيفة على تهرّبي المتسرع . فالفتاة النحيلة جلست الآن قبالتي وكلما اشتد إعجابي بها بالنظر الأطول إليها ازداد ندمي على هروبي وحاولت مجدداً الاتصال بها . أما هي فكانت الآن مترفعة أبية وتجاهلت

محاولاتي الضعيفة لحديث جديد . مرةً وقعت عيناها علي ، وظننت أن نظرتها كانت نظرة ازدراء أو نظرة تأفف ، إلا أنها كانت باردة وغير مكترثة .

وانتابتني من جديد الحالة التعيسة اليومية الكريهة القاتمة ، حالة الضآلة والنزوع إلى الشك والفراغ ، رأيت دروب الحديقة المتلألئة لألاء خفيفا وأوراقها الكثيرة الجميلة السوداء ، ورأيت الموائد المغطاة بالبياض ورأيت مصابيح وأطباق فاكهة وزهور وإجاص وتفاح وبرتقال والسادة المهندمي الثياب والسيدات والفتيات في بلوزات جميلة فاتحة الألوان ، ورأيت أيدي سيدات بيضاء تلعب بالزهور وشممت رائحة الفاكهة الطيبة ودخان السيجارات الأزرق وسمعت ناساً مؤدبين محترمين يتحدثون في انبساط وحيوية ، هذا كله بدا لي غريباً غرابة لا حد لها ، ولا يخصني وصعب عليّ نواله ، لا بل كان محظراً علي . كنت دخيلاً ، ضيفاً تم احتماله عن أدب وربما عن شفقة ، ضيفاً من عالم فقير أوضع . كنت عاملاً صغيراً فقيراً مجهولاً حلم زمناً طويلاً أحلاماً عن الصعود إلى كيان أحسن وأكثر حرية ، أما الآن فقد عاد إلى القسوة الشديدة لطبيعته اليائسة .

وهكذا انتهى المساء الصيفي الجميل بالنسبة إلي ومجلس الأنس البهيج في عدم ارتياح مقبض ذهبت فيه معانداً أيضاً إلى أبعد الحدود في تعذيب نفسي سخيف ، عوض عن أن انبسط على نحو متواضع

على الأقل بالمحيط المريح . في الحادية عشرة وحين تحرك الأوائل ودعتهم أنا أيضاً على جناح السرعة وسرت في أقصر الطرق إلى البيت لكي آوي إلى السرير . إذ أنه منذ وقت ما كان قد سيطر عليّ خمول دائم ورغبة في النوم وكان عليّ أن أغالب ذلك في أثناء ساعات العمل وخضعت لها مسلوب الإرادة كل اللحظات في أوقات فراغي .

مرت عدة أيام في التراخي المعهود . كنت قد افتقدت الشعور بالعيش في حالة استثنائية محزنة ؛ عشت بلا اكتراث في غفلة خاضعة خضوع الشارد الذهن ورأيت غير آسف ساعات وأياماً تنزلق ورائي وكل لحظة فيها كانت تعني جزءاً لا يعوّض من الصبا والعمر . كنت أتحرك مثل آلة ساعة ، كنت أ نهض مبكراً وأقطع الطريق إلى المتجر وكنت أقوم بعملي الآلي بعض الشيء وأشتري لنفسي خبزاً وبيضة للأكل وأتوجه إلى العمل من جديد وبعد ذلك كنت أضطجع في المساء في غرفتي تحت السطح في النافذة حيث كنت أغفو مراراً وتكراراً . لم أعد أفكر بالمساء في الحديقة عند المدير . وولّت عني ايام من دون أن تخلّف ذكريات ، وكنت إذا ما تذكرت أزماناً أخرى ، مثلاً ليلاً في الحلم ، كانت ذكريات طفولة نائية بدت لي مثل أصداء وجود في حياة سابقة ، وجود منسي بات رائعاً .

في ذلك الوقت حدث في ساعة حارة من ساعات الظهر أنّ القدر تذكرني مرة أخرى . فقد صلصل عبر الأزقة شخص إيطالي بلباس

أبيض ومعه جرس يد مدوّ وعربة صغيرة وعرض مثلوجات للبيع . كنت خارجاً لتوي من المكتب وانسقت أول مرة منذ أشهر وراء رغبة مفاجئة ، ناسيا نظامي المقتصد اقتصاداً مزعجاً ، تناولت قطعة نقدية من كيس نقودي وتركت الإيطالي يملأ لي صحناً ورقياً صغيراً بمثلوجات فاكهة ضاربة إلى الحمرة التهمتها بنهم في دهليز البيت . فالمرطبات الباردة برودة توقظ من السبات بدت لي لذيذة ، وفي وسعي أن أتذكر أنني لحست الصحن الصغير المبلل . وبعد ذلك أكلت خبزتي المعهودة في البيت وغفوت قليلاً نصف إغفاءة وعدت أدراجي إلى المكتب .

هناك ساءت حالتي ، وسرعان ما اعتورتني آلام جسدية مبرحة ، أمسكت بحافة المنصة وعانيت عدة ساعات من آلام دفينة ، وبعد انتهاء الدوام هرعت إلى طبيب . وبما أنني كنت مسجّلاً في التأمين الصحي فقد أحلت من جديد إلى طبيب آخر ؛ إلا أنّ هذا كان في العطلة الصيفية ، وكان عليّ أن أقطع الطريق مرة أخرى إلى من ينوب عنه . ووجدت هذا في العيادة ، كان سيداً شاباً لطيفاً عاملني تقريباً معاملة الند للند . وحين وصفت له بناء على أسئلته الموضوعية ظروفي وطريقة عيشي اليومية وصفاً دقيقاً نصحني أن أذهب إلى مستشفى حيث يعنى بي على نحو أفضل مما هو في شقتي الرديئة . وبما أنني لم أستطع أن أكتم آلامي كلّ الكتمان ، قال مبتسماً : " أنت لم تمرض

كـثـيـراً ؟" الحق أنني لـم أمـرض منذ العـاشـرة أو الحـادية عـشـرة من عـمـري . على أنّ الطبـيب قـال على مـضض تقـريبـاً :" بالطريقـة التي تعيش فيها ستقتل نفسك . لو لم تكن شديد الجلد لكنت مرضت منذ زمن على هذه التـغـذية . الآن تعلمت درسـاً ." ولئن قلت لنفسي إنه بساعـتـه الذهبـيـة ونظارته يحـسن الكلام ، إلا أنني رأيت أنّ لوضـعي المشين أسبابه الواقعية في الأيام الأخيرة وأحسست في أثناء ذلك بنوع من تخـفـيف العبء الأخـلاقي . على أنّ الآلام الشـديدة لم تتـرك لي مـجـالاً للتـفـكيـر والتنفس . أخـذت القـصـاصـة التي أعطاني إياها الطبيب ، شكرته وانصرفت لكي أبلّغ المستشفى بمرضي بعد أداء أكثر الرسائل ضـرورة ، وهناك شـددت الجرس بآخر ما لـديّ من قوة وكان لا بدّ من أن أقعد على السلم لكي لا تخور قواي .

تمّ استـقبـالي بشيء من الفظاظة ؛ ولكن بما أنّ المرء لاحظ وضـعي البائس جيء بي إلى حمام فاتر ومن ثم إلى السرير بحيث تلاشى كل شعور في دغش آلام باكٍ مستعطف استعطافاً خافتاً . وأحسست طوال ثلاثة أيام أنني يجب أن أموت في هذا الوقت وعجبت كل العجب أنّ الأمر يحـدث على نحو شاق وبطيء ومؤلم إلى هذا الحـد . إذ أنّ كل ساعة صارت في نظري طويلة طولاً لا متناهياً ، وحين انقضت الأيام الثلاثة خيّل إليّ كـما لو أنني لزمت مكاني هنا أسابيع عدة . وأخيراً ذاقت عيناي طعم النوم لبضع ساعات ، وعند الاستيقاظ استعدت

الاحساس بالزمن والشعور بوضعي . على أنني لاحظت في الوقت نفسه كم كنت ضعيفاً ، إذ أنّ كل حركة أتعبتني ، حتى فتح العينين وإغلاقهما بدا لي أشبه بعمل صغير . حين جاءت الممرضة وتطلعت عليّ خاطبتها وظننت أني أتكلم بصوت عال كالعادة ، على حين كان عليها أن تنحني وصعب عليها أن تفهمني . عندها أدركت أنه لا داعي للاستعجال في النهوض ثانية . واستسلمت من دون ألم لوقت غير محدد إلى الحالة الطفولية ، حالة التوقف على رعاية غريبة . واستغرق هذا أيضاً زمناً أطول إلى أن أخذت قواي تنبعث من جديد ، إذ أنّ أصغر فم مليء بالطعام كان يسبب لي دائماً آلاماً وأوجاعاً ، حتى ولو كان هذا ملعقة حساء للمرضى ، ليس إلا .

ما راعني في تلك الفترة الغريبة هو أنني لم أكن حزيناً ولا مغتاظاً . ففي الأشهر الأخيرة اتضح لي السخف العميق الغامض لعيشي المتواضع اليائس أكثر وأكثر . وذعرت مما أوشك أن يحلّ بي ، وسررت في أعماقي للشعور المستعاد . كان كما لو أني رحت في سبات زمناً طويلاً ، والآن ، وقد اسيقظت أخيراً ، أطلقت لبصري وأفكاري العنان لتسرح من جديد بمتعة جديدة في المراعي . وحدث في أثناء ذلك أنه من بين كل الانطباعات المبهمة والتجارب الغامضة المعالم والعائدة لهذا الزمن الذي بات في سدفة كالحة قد برزت بعض الانطباعات والتجارب التي ظننت أنني نسيتها . ومن بين هذه الصور

التي تسليت بها الآن في وحدتي في صالة المرضى الغريبة كانت في المقدمة صورة تلك الفتاة النحيلة التي كانت قد جلست إلى جانبي في حديقة المدير جيلبكه والتي كانت قد قدمت لي البرتقالة . لم أعرف اسمها ، إلا أنني استطعت أن أتصور في أوقات مناسبة شكلها كله ووجهها اللطيف بوضوح مألوف على نحو لا يستطيعه المرء إلا لدى معارف قدامى ، فضلاً عن طبيعة حركاتها ولغتها وصوتها ، ونشأت عن هذا كله صورة أحسست أمام جمالها الرقيق بالدفء والاطمئنان مثل طفل في كنف أمه . وبدا لي كما لو أني رأيتها وعرفتها في أزمان ماضية ، وبرز معها خيالها الظريف ، غير مكترث بالتناقضات ، أشبه بمرافق لا تطاله قوانين الزمن تارة في ذكرياتي كلها ، وحتى في ذكريات الطفولة . نظرت إلى هذا الشكل اللطيف الرشيق الذي كان قد بات قريباً مني فجأة وغالياً عليّ ، المرة تلو المرة بسرور متجدد وارتضيت حضوره الهادىء في عالم أفكاري ببداهة هادئة مريحة لكنها شاقة غير مجدية ، مثلما اعتاد الإنسان أن يرضى في الربيع بنوار الكرز وفي الصيف برائحة الحشائش اليابسة ، من غير ما دهشة أو هيجان ولكن بسرور عميق .

على أنّ هذه الصلة الساذجة المتواضعة برؤياي الجميلة لم تدم إلا بقدر ما ظللت طريح الفراش في إعياء تام ومنفصلاً عن الحياة . وأول ما استعدت بعض قواي وتحملت القليل من الطعام وصار في مقدوري أن

أستدير في السرير عند الضرورة من غير وهن ، ارتدت صورة الفتاة عني في حياء ، إن صح التعبير ، مبتعدة أكثر ، وحلّ محلّ المحبة الخالصة الباردة اشتهاء متلهف . الآن احسست على حين غفلة على نحو يزداد تكراراً برغبة شديدة في أن أتلفّظ باسم الرفيعة القوام وأن أهمس به برقة وأن أغني بصوت خفيض ، وأصبح عذاباً حقيقياً لي أنني لم أعرف هذا الاسم . في أحلامي ، أحلام اليقظة ، كنت قد لعبت معها كما ألعب مع أخت صغيرة عزيزة ، أما الآن فقد عزّ على قلبي فجأة أنها لم تعرف عني أي شيء وأنني كنت بالنسبة إليها إنساناً غريباً قد لا تقبل تحيته ولن تردها ، لا بل ربما كانت تحمل عني ذكرى غير حميدة وغير ودية . وهكذا لازمت الفراش يوماً بعد يوم وفكري مشغول بها ولم أعرف عنها أي شيء إلا كما بدت وبعض العبارات التي كنت قد سمعتها منها في ذلك المساء .

بعض الحوادث الصغيرة قطعت في أثناء ذلك لفترة وجيزة هذا الاتصال الفكري مع المجهولة وياللعجب من طرف واحد . في أول الأمر جاءتني رسالة من أمي قرأتها بمشاعر خاصة لأنها لم تعرف أيّ شيء عن مرضي . بل إنها ردت بسلامة نية على أحاديثي وأخباري الأخيرة التبجحية الكاذبة بحيث إني رأيت نفسي بالذات وعملي السابق المزعج البغيض كما في مرآة . كم كنت بعيداً عنها الآن ، لأنني كنت قد مررت في أثناء ذلك بالموت ومنيت بشفاء روحي في مرضي

الجسدي! دسست الرسالة تحت الوسادة في خزي وقررت أن أتدارك في أول مناسبة أباطيلي وأكاذيبي السابقة أو أن أعترف بها على الأقل .

بعد ذلك جاءني خبر من رب العمل حُجب عني اسبوعاً . كان قد أرسل إليّ المتأخر من الأجر الذي كنت سأطالب به أيضاً ، وفي الوت نفسه كان قد سرّحني من وظيفتي الصغيرة . هذا النبأ لم يفقدني هدوئي ، ولو أنّ الطريقة التي سأكسب بها عيشي في المستقبل كانت لا تزال خافية عني ، فالاحساس بأنني انتزعت عنوة من مرحلة حياتية بائسة ميتة كان في أعماقي قوياً وساراً جداً بحيث إنّ الهم الجسدي لم يكن له أيّ سيطرة عليّ .

وحدث أيضاً أنّ سيدة كانت تلبس قبعة وتحمل مظلة شمسية دخلت ذات يوم صالة المرضى في وقت الزيارة وعرفت فيها زوجة المدير جيلبكه . كانت تحمل زهوراً في اليد ورحبت بها الممرضة . وبما أنني خجلت ولم أرغب في أن أُعرَف - إذ أنني افترضت أنها تعود شخصاً آخر - فقد دسست رأسي تحت بياضات السرير وظللت متوارياً . لكنها خطت مباشرة صوب سريري وبقيت واقفة هناك . حين سمعتها تسأل الممرضة :"أهو نائم ؟" استدرت ومددت لها يدي . رأيت أنها ذهلت من مظهري ، وحين سألتني بشفقة وعطف ولامتني أنني لم أخبرها أي شيء عن ظروفي السيئة ، عندها أثلج صدري على نحو غريب أنّ إنساناً سأل عني وأبدى اهتماماً بصحتي . والآن أهدتني عدة وردات

جميلات وكان هذا بطبيعة الحال صنيعاً ذا حدين ، إذ أنه برائحة هذه الزهور داهمتني فجأة ذكرى الأشياء الجميلة كلها هناك في الخارج . ومن هذه اللحظة عدت إلى التفكير بالدنيا في شوق وانتظرت ساعة تحريري مثل سجين .

وفي الوقت نفسه وبتنبّه اهتمامي بالغير بدأت أحسّ أيضاً بارتباط بأخوتي في المعاناة وأخذت أنظر فيما حولي أكثر وأكثر إلى رفاقي في القاعة ومن يجاور سريري . أحدهم ، جاري إلى اليسار ، ظلّ في ذاكرتي ويستحق ألا أنساه . وأغلب الظن أنه مقبور منذ زمن طويل في المستشفى وأنّ اسمه الذي - له وقع هزلي لم يعد موجوداً إلا على بطاقات مرضى ضائعة مصفرّة من أيام زمان . كان يدعى أويستاخيوس تسيتسبين وكان خياطاً متجولاً ، أو بالأحرى كان هو هكذا ، إذ أنّ رحلاته كانت محددة الهدف وصعب عليه أن يغادر ذلك السرير وتلك القاعة إلا ميتاً . لقد عرف ما كانت عليه أموره ، ولم يحزن لذلك ، الأمر الذي لم تكن طبيعته مهيأة له . لم أعد أدري ولم أعرف قط مما كان يعاني لأنه لم يتكلم عن مرضه قط . الأرجح أنه جاوز الأربعين بقليل ، على أنّ الصديق هاين كان قد رسمه ، وبدا رأسه الهزيل أشبه بجمجمة شخص ميت . أما روحه فلم تكن متهيبة وبقيت مستقرة في طبيعة طفولة مرحة ، وكثيراً ما بدا لي أنّ هذا الإنسان لم يصادفه إلا ما هو سار مفرح أو أنه لا يفهم أية أشياء أخرى إلا الأشياء المفرحة البهيجة .

قال ذات مرة بحذق ومهارة :" ما كان هذا ليحدث لي أبداً ، والآن أموت أيضاً موتاً بطيئاً بعض الشيء ."

وطنه ، على ما أعتقد ، كان سيلسزيا ؛ على أن كل لهجات الأقاليم الألمانية كانت قد أثرت فيه قليلاً إبان تجوال دام عشرين سنة ، كما يمكن ملاحظة هذا أحياناً على نحو أكثر ندرة لدى تجار مصائد فئران وسمكريين وأصحاب حرف حقيقيين . وكم من مرة أخذ يضحك في سريره بينه وبين نفسه ضحكاً هادئاً ؛ وكان إذا ما سأله المرء لماذا يضحك ، يقول :" لقد خطرببالي شيء ما " ، وكان يحكي عن معلم حرفة غريب في مدينة لاندزهوت كان قد عمل عنده ، أو عن مغامرة عامل متجول في الهارتس أوعن ببغاء أرملة في بروخزال كان قد سكن عندها فيما مضى فترة من الزمن ، إذ أنها كانت مغرمة به . وهذا الببغاء أفرحه بوجه خاص وكثيراً ما خطر بباله ، وكان إذا ما تحدث عنه وقلّد صوت الطائر الغليظ الأنفي بصورة خاصة ، كان مسرة وترفيهاً أن ترى معه ابتهاجه البريء . آنذاك ضحكت كثيراً منه ومعه ، أما فيما بعد فكان عليّ ، في أوقات المعاناة ، أن أتذكره كثيراً بإعجاب ، لا بل باحترام وتقدير كيف تحمل مصيره بارتياح وصبر وكيف حدثنا ، وهو الذي كان على شفا حفرة من الموت ، وواسانا نحن النقّه بمزاجه الطيب .

كان هو أيضاً السبب في أنني فكرت بين وقت وآخر بالموت ،

الأمر الذي لم أقم به قط من قبل . كما أنّ تأملاتي أيضاً انصبت على الموت أقلّ مما انصبت على لغز الحياة الجميل . وأدركت أول مرة مبلغ الغرابة في أن يسبح أمثالنا على السطح الواضح ، سطح الوجود الجسدي والفكري ، وأن يبرزوا من عتمة أجيال كانت موجودة وأن يكون مقدّراً عليهم أن يعودوا سريعاً إلى العتمة نفسها مرة ثانية . في أثناء ذلك ضايقني قليلاً ما إذا كان عليّ أن أطلق على هذه العتمة اسم العدم أم الخلود ؛ شغلني بما فيه الكفاية واقع الأمر المجرد أن يكون المرء على قيد الحياة ، إذ أنني كنت قد توقفت عن أن أعدّ الشيء نفسه بديهياً ، لا بل إني رأيت في ذلك مصادفة طيبة تستوجب الشكر . وناسب هذا أيضاً حالة ناقه وعاشق ، وأحسست بأني مكلّف وقادر على أن أستغلّ موهبتي من الآن وصاعداً وأن ألقي بالاً إلى قيمة الساعات باهتمام أكبر مما كان عليه حتى الآن . وبدا لي مستحسناً ورشيداً ألا تمنعني فكرة الموت عن متعة اللحظة الآنية إلا مثل ما امتنع تسيتسيبين ، مساعد الخياط اللاهي الضاحك ، وعقدت العزم على أن انطق باسمه في اللحظات المغيظة المقبلة تذكيراً بأوامر أبسط فنون الحياة . على أنني لم أستطع أن أغيّر في الوقت نفسه رغم القرارات كلها ، وبقيت على ما أنا عليه ، وكان شأن مقاصدي ونياتي الجميلة مثلما اعتادت النيات الطيبة كلها أن تكون .

على كل حال هوّنت عليّ مثل هذه الألعاب الفكرية والنوايا

بصورة دائمة ساعات اضطراب وفروغ صبر كان لديّ الآن الكثير منها . فلو أنّ ظروفاً مألوفة انتظرتني بعد الشفاء لعزّ عليّ أن ينفد صبري . ولكنني واجهت في الواقع حياة جديدة ، كان عليّ أن أبحث من جديد عن العمل والخبز ، وفضلاً عن ذلك كنت مغرماً . ولاحظت مدهوشاً كم تغيّرت في الفترة القصيرة منذ مرضي . كنت قد تصورت فيما مضى أن أكون حرّ الفكر ومستقلاً ، ذلك لأني كنت قد توصلت بالقراءة انطلاقاً من منبت ريفي وتقليد متدين ورع إلى كفر وسيطرة واعية للعقل وكنت قد توصلت إلى الشك في ذلك . وأحسست الآن أنّ هذه الفلسفة الواعية لذاتها رغم كل تواضع أصبحت أيضاً عديمة القيمة في نظري ، ولم يحل محلها اعتقاد جديد ، بل إحساس متحرر بقصور كل اعتراف وحب استطلاع حيوي متعطش تعطشاً عميقاً للشيء الذي يمكن أن يحدث معي والذي سأصبح عليه .

بما أنيّ في سريري لم أستطع أن أشغّل هذه الآراء الجديدة تركت المشاعر والأفكار تأخذ مجراها وتطارد بعضها بعضاً ، وأخيراً كتبت بقلم الرصاص وبيد مضطربة رسالة مطوّلة جداً إلى أمي الطيبة اعتقدت أني عبرت فيها عن كل ما كان يعتمل حالياً في أعماقي . وحين تصفحت في اليوم التالي الكتابة الكثيرة غير الموفقة مرة ثانية وأردت إعطاءها للممرضة لكي ترسلها تراءت لي فجأة صورة أمي واضحة . رأيتها امرأة نحيلة ذات شعر لم يخطه الشيب بعد ، تقوم بعملها في بيتنا وتقطع

العشب وتحمل الماء من البئر في برميل ثقيل ، ورأيتها تقعد في الحجرة وتفتح رسالتي بإبرة التريكو وتقربها من عينيها الزرقاوين القاسيتين . عندئذٍ بدت لي عباراتي المبتكرة ببراعة وغير الواضحة سخيفةً وغير ذي نفع ، فمزقت الرسالة إرباً إرباً .

سُمح لي الآن بأن أنهض وأن أمضي بضع ساعات في حديقة المستشفى ، وعند مرأى السطوح السامقة فوق السور ومشهد السماء والطيور المرفرفة والسحب السابحة في السماء تصاعد التوقع وفروغ الصبر إلى حد العذاب . وراء السور كانت المدينة والحرية ، وهناك كانت الأزقة التي فكرت بأن أكافح فيها بسرور جديد من أجل حياتي وفي مكان ما فيها ربما سكنت الفتاة النحيلة العزيزة في بيت مجهول .

في تلك الأثناء زودني الطبيب والممرضة بتنبيهات وقواعد للحياة . ولم يكتموا عني أنّ باطني شفي إلى حين ، إلا أنني فقدت صحتي السابقة الخالية من الهموم ، وإذا لم أعنَ بنفسي عناية شديدة فقد لا يسأل أحد عن أيّ شيء . سمعت هذه التقييدات لحريتي القريبة ببعض الاستياء ، لكن معدتي وأمعائي لم تكن الآن في نظري جدّ مبجلة وجديرة بالاحترام ، وحين غادرت المستشفى نهائياً وتمشيت عبر الشوارع ذات الشمس الصيفية إلى مسكني القديم ، كنت في أعماقي في حال من الفرح والبهجة والانبساط مثلما كانت عليه الحال في أي وقت كان في عهود الصبا الخالية من الهموم .

كانت نقودي كافية لكي أدفع الأجرة المتراكمة . رأيت في غرفتي كل شيء جديداً وحافلاً بالأمل . لم أدرك أنه كان في إمكاني أن أضع هنا نهاية للأيام المظلمة الموحشة . كما أنّ أوراقي ورسومي كانت قد فقدت مظهرها البائس . لم أشكّ أنه لا بد أن أنجح في اختراعي ، وإن لم يكن هذا ، فسيكون اختراعاً آخر .

في اليوم التالي ارتديت ثياباً نظيفة وتوجهت إلى المدير جيلبكه . رحّب بي السيد الطيب أكثر من أية مرة أخرى وسألني باهتمام عن صحتي وباقي ظروفي وعرض عليّ مساعدته . على أنني لم أكن راغباً في أن يساعدني أحد ، باستثناء أمي ، وصورت له أحوالي في أحسن الألوان . أخبرته عن عزمي بأن أعود إلى أمي في القريب العاجل ، وفي وصفي بدت هذه الرحلة رحلة تسلية أكثر منها انسحاب إنسان لا عمل له إلى وطنه السابق .

قال المدير مبتسماً :" لا مانع عندي ، لكن قبل سفرك زرنا ذات مساء! وسيكون عندي بعض أصدقاء الأسرة . هل تريد المجيء ؟"

وافقت بحماسة وفي بالي فتاتي الجميلة ، وغادرت البيت بخطوات خفيفة موزونة مثل طفل يغادر حانوت الحلواني . صمدت النهار حتى الغد في المدينة ، مع أن نقودي نفدت ، وبعد ذلك هممت أن أقطع الطريق مشياً إلى أمي على طريقة أصحاب الحرف القديمة من دون تكاليف أخرى . في بادئ الأمر ذهبت إلى شقتي وكتبت إلى

أمي أنني قادم عن قريب وسأمكث عندها فترة من الزمن . ومن ثم تمشيت إلى ما قبل المدينة واستلقيت أول مرة منذ زمن غير قصير على الضفة في العشب المزهر والغابة امتدت هناك لصق النهر ، والراين العريض الأخضر الفاتح امتد على مسافة أميال على حافتها ؛ إلا أنه منذ عدة سنوات أقيمت هناك سدود وأسوار رصيف . وفي الغابة أخذت حماماً شمسياً واسترحت بضع ساعات في العشب تحت أشجار الزان الظليلة ، والتهمت في أثناء ذلك خبزتي التي جلبتها معي وارتشفت بحواس متجددة النور وروائح الغابة ، كما أنني التمست أيضاً في نفاد صبري المفرح علامة من القدر بأن رميت فروعاً في الماء وأردت أن أقرأ مستقبلي من اتجاه دفعها ، فالفروع لم تنسحب لا إلى اليمين ولا إلى الشمال ، بل قدماً إلى الأمام ، وهنا قررت أن أقرن حظي بعلامة أعلى . فإن تحقق أملي غداً مساء وكانت الفتاة الجميلة حاضرة هناك من جديد ، فسأتخذ هذا تأكيداً أنّ طالع سعد يسمو فوق حياتي الجديدة .

بعد هذا العقد مع مصيري غادرت المكان البارد وعدت إلى المدينة حيث أمضيت اليوم التالي في توقع قلق بتحضيرات بسيطة للسفر وتمضية وقت تافه إلى أن زفت ساعة المساء المنشودة . عندها خرجت متمهلاً مرتبكاً إلى بيت المدير .

ومن جديد واجهني غسق خفيف في الحديقة بين الشجيرات ،

أما في حوض الزهور الدائري فلم يكن إلا طاولة واحدة . كنت الضيف الأول ، وتمشيت متحدثاً مع رب البيت في الطرق جيئة وذهاباً . وما لبث أن رن جرس البوابة ثانية ، وجاء طالب شاب كنت أعرفه ، ولحق به عن قريب ابن عم المدير ومعه زوجته ، وما إن حيا هؤلاء حتى ظهرت جميلتي في ثوب رقيق منقط نقطاً بيضاء وبنية فاتحة . وعند رؤيتها التي كنت قد استعدتها عدة مرات كل يوم طوال أسابيع اضطربت اضطراباً شديداً ، وحين حييتها وصافحتها وحين تناولت يدي ببرود وعلى نحو خاطف وأومأت لي بخفة ، شعرت فجأة أنني كنت قد تصورت في عمى غريب لقاءنا على نحو آخر . فمن خالطتها في الأفكار نصف يوم وأنست إليها وقفت أمامي الآن غريبة ، ومع هذا جعل حضورها المرئي قلبي أكثر غبطة ودفئاً مما فعلت أجمل أحلامي .

كان عددنا قد اكتمل الآن ، وعلى المائدة أضيء المصباح الكبير وقدمت وجبة خفيفة . ومن غير أن أنتظر دعوة كنت قد جلست إلى جانب الرفيعة القوام ، وكانت أولى كلماتها التي جادت بها علي ، لطيفة وأظهرت أنها لا تزال تتذكرني .

قالت : " لقد تغيرت ، وأرى هذا الآن فقط في ضوء المصباح ."

قلت في ابتهاج :" مرضت قليلاً ."

أما ربة البيت التي جلست قبالتي فقد هتفت في أثناء ذلك :

"قليلاً ، يقول ! وكاد أن يفارقنا من غير أن يطوّبنا بكلمة واحدة ."

قلت : " كنت ستعلمين ذلك ."

سألت الفتاة :" أكانت الحال سيئة ؟" وحين اجتهدت في أن أصور سوء حظي بأنه غير مهم . وأن أغيّر موضوع الحديث تبين لي بأن الفتاة كانت قد عملت ولمدة سنة ممرضة متطوعة في أحد المستشفيات . قالت ربة البيت : " على المرء أن يرى هناك الكثير مع الآخرين " ، وأومأت الفتاة التي تجلس إلى جواري بالإيجاب ، وقالت على فورها : " بالتأكيد ، إنما بعض الأشياء البهيجة المسلية أيضاً ! في البداية أنقض ظهري أن أرى آلاماً كثيرة ومعاناة ، ولكن فيما بعد كثيراً ما دهشت كم من الناس يستطيعون أن يتحملوا ورب ناس معهم يبقون في أثناء ذلك هادئين مطمئنين . ألم يلفت انتباهك شيء مماثل ؟"

عندئذٍ حكيت عن الخياط السيليزي تسيتسيبين وتحمست في أثناء ذلك وعجبت كيف انساب الكلام على شفتي سلساً وسريعاً لا لشيء إلا لأن التي كانت تجلس إلى جواري أصغت إليّ بتعابير وجه حية وضحكة خفيفة ، وفي أثناء المحادثة وبما أن ربة البيت شاركت مراراً وخاطبت الآنسة ، وقفت على اسمها أيضاً باستراق السمع ، اسمها الذي تسلل مثل موسيقا عذبة عبر أذني إلى قلبي ، حيث احتفظت به كنزاً تم البحث عنه زمناً طويلاً . كانت تدعى إليزابيت شيفاليه ، واسم النداء الألماني بدا لي أنه ينسجم مع اسم الأسرة الويلزي انسجاماً جميلاً وحلواً بصورة هائلة .

في الموقع نفسه الذي كنت قد قضيت قبل عدة أسابيع مساء مزعجاً في تبرم سقيم جلست الآن متغيراً نشيطاً جذلان ، وضايقني قليلاً أن هؤلاء الناس إلى جانبي كانوا ميسورين ويلبسون ثياباً أحسن مني ولا ينبغي أن يعرفوا أبداً أنني سأبدأ غداً وعلى طريقة العمال المتجولين العودة إلى أمي : والفكرة أنّ عليّ أن أترك المدينة غداً ولفترة غير محددة لم تتحرك إلا بشعور لطيف خفيف بالوداع والحنين . وكما هي الحال في حلم رأيت من خلال فروع الأشجار والشجيرات السماء الليلية الزرقاء تمتلئ متزاوجة مع النجوم . وتنفست الهواء الليلي الصيفي الناعم ، على حين نطق فمي كلاماً مرحاً غير مهم وتأرجح قلبي في تيار دافئ من الحظ والشوق . إلى جانبي هدأ في الضوء الرأس الذكي ، ووجه إليزابيث الصافي النحيل ، وكلما تكلمت نظرت إلى جهتها ونظرت إلى جبينها الحر الأبيض وشعرها الأشقر الغامق وتقوس حاجبيها وعينيها الهادئتين ويدها الموضوعة على الطاولة ، التي كانت في شكلها نحيلة نحول الأطفال تقريباً ، إنما كانت ناضجة وخاصة بها .

نهض القوم لكي يتنزهوا بضع خطوات إلى أن يتم رفع ما على المائدة . ودلفت إلى جانب إليزابيت إلى الغسق الهادىء ، غسق دروب الحديقة ، ورأيت عند حاشية ثوبها قدميها الصغيرتين تظهران وتختفيان

مع كل خطوة وحكيت لها قصصاً من الوطن وأول عهد الشباب ونظرت بإعجاب كيف كانت تسير بعزم منتصبة القامة وكيف انسجمت خطوتها المرنة مرونة منتظمة مع حركات ذراعيها وتدوير عنقها وميله . وبدت لي الأرض متنزهاً أُتقِن ترتيبه وحياة الإنسان سيراً خفيف الخطى إليه . وغلى دمي السائل الرقيق دافئاً ، وكل خفقة قلب كانت تهليلاً هادئاً .

ربما لم أكن بالنسبة إلى الفتاة أعزّ ولا أقرب مما يمكن أن يكون الطالب أو ابن العم أو أي رجل آخر . إلا أنها أحست على أية حال بإعجابي الهانىء الذي أحاط بها مثل هواء أدفأ ، وهي نفسها اندمجت أكثر وازدادت فتنة وجاذبية بحيث إن الكلام الذي تفوهنا به فقد وزناً وقيمة أكثر وأكثر ، بينما نما الإحساس بالقرب الأنيس بصورة دائمة . وبدا لي كما لو أن فيضاً ثميناً في كأس تصاعد أكثر وأكثر وطفح على الحافة مزبداً في قطرات ثقيلة هادئة ، وكما لو أننا كلينا تذوقنا هذه القطرات المغبوطة من معين السعادة بارتعاش هادىء .

حين تحرك الزوجان انضممنا إليهما نحن الشبان ، وودعنا المدير بلطف وحمّلني تحيات إلى أمي ، وتمنت لي زوجته سفرة سعيدة ، وخرجنا إلى الشارع ، وحين سألتني إليزابيت عما إذا كنت سأصحبها كنت قد تمنيت ذلك منذ زمن طويل بتفاؤل وطمأنينة . ورافقنا الطالب

أيضاً بضعة شوارع ، ثم انصرف بلباقة وتمشيت مع إليزابيت وحيداً عبر المدينة النائمة .

مشت بسرعة وخفة مثل غزال ، سرّ كلانا ، حين عبرنا الجسر ، بالماء الذي يهدر وأضواء المصابيح المنعكسة انعكاساً مضطرباً . وبما أنها سألت عن ذلك أخبرتها عن سفري غداً إلى الوطن ووصفت وادي بلادي وقريتي . على أنني لم أنس أن أضيف بأنني أنوي العودة في وقت غير طويل ، وقالت في هدوء :" إذاً سأراك عند آل جيلبكه ثانية . وسيسرني هذا ." بأسرع مما تمنيت كنا قد قطعنا الطريق ؛ انعطفت إلى طريق قديم مظلم تقريباً وتوقفت عند أحد البيوت حيث سحبت الجرس وودعتني . بدت لي كلمات الوداع هذه أنه عاد لها وقع بارد برودة غريبة ، وبقليل من الحزن رأيت إليزابيت تختفي في البوابة التي استطعت أن ألمح وراءها للحظة من الزمن مشياً على البلاط وخادمة تحمل شمعداناً . ثم عدت إلى منتصف الزقاق ودققت النظر في البيت الذي بدا قديماً قدماً مريحاً وارستقراطياً بطابقين فقط وبقباءات نوافذ بارزة بروزاً شديداً . وبما أني لمحت عند البوابة لوحة نحاسية صغيرة بيضاوية الشكل ، ذهبت إلى هناك مرة أخرى لأعرف شيئاً مهماً ، على أنه لم يكن عليها أي شيء إلا اسم شيفالييه محفوراً بأحرف صغيرة صعب عليّ فكها في الظلمة .

غـادرت المكان وعـرفت أن مـصيـري مـرتبط بهـذا البـيت وهذه المدينة ، وحين تحركت في صباح اليوم التالي خارجاً من المدينة كنت قد أقسمت أن أعود رجلاً متماسكاً وصانعاً لحظي .

(١٩٠٧)



الخطوبـة

في زقاق هيرشن يوجد حانوت بياضات متواضع لايزال ينتصب حيث هو مثل جيرانه من غير أن تمسّه تغيرات الزمن الجديد وعليه إقبال كافٍ . ويُقال هناك عند كل وداع لكل زبون ، وإن كان يأتي بشكل منتظم منذ عشرين عاماً ، الكلام :" تفضلوا شرّفونا مرة ثانية" ، وتذهب إلى هناك بين الحين والآخر شاريتان عجوزان أو ثلاث شاريات عجائز يطلبن حاجتهن من الخيطان والأشرطة الزينية في أذرع وتتم خدمتهن بمقياس الذراع أيضاً . ويقوم على الخدمة ابنة صاحب المحل التي بقيت عازبة وبائعة مستخدمة ، وصاحب المحل نفسه مشغول دائماً في المحل من الصباح حتى المساء ، على أنه لا يتفوه بكلمة أبداً . وربما كان في حوالي السبعين من عمره ، له قامة قصيرة جداً ووجنتان متوردتان مقبولتان ولحية شيباء قصيرة ، إلا أنه يضع دئماً على الرأس الذي ربما صلع من زمن قبعة دائرية مائلة ذات زهور وتعاريج محبوكة على قماش كتاني . ويدعى أندرياص أونغيلت وهو أحد سكان المدينة القدامى الأصليين المحترمين .

ما من أحد يرى أيّ شيء خاص على التاجر الصغير الصموت ، فهو نفسه منذ عقود من الزمن ويبدو أنه لم يتقدم في السن إلا بقدر ما كان صغير السن في أي وقت كان . على أنّ أندرياص أونغيلت كان ذات مرة صبياً وشاباً ، وإذا ما سأل المرء ناساً مسنين عرف أنه كان يدعى فيما مضى " أونغيلت الصغير" وأنه يتمتع الآن ، شاء ام أبى ، بشيء من الشهرة . وذات مرة ، وقبل ثلاثين سنة ، كانت قد مرت به "حادثة " عرفها في السابق كل واحد من أبناء غيربرزاو ، وإن لم يرغب أحد في أن يرويها الآن أو أن يسمعها . كانت هذه قصة الخطوبة .

كان أندرياص الشاب في المدرسة عزوفاً عن كل حديث واجتماع ، فقد أحس أنه لا حاجة إليه في كل مكان وأنه مراقب من قبل كل واحد وكان خوّافاً ومتواضعاً بما يكفي لأن يستسلم سلفاً لأي إنسان آخر وأن يتراجع . وأحس أمام المدرسين باحترام لا قراره ، وأحس أمام الرفاق بخوف ممزوج بالاعجاب . ولم يره المرء قط في الزقاق ولا في الملاعب ، ولم يره إلا نادراً عند الاستحمام في النهر ، وفي الشتاء كان يرتجف برداً وكان يختبىء حالما كان يرى أحد الصبيان يرفع حفنة من الثلج . ومقابل ذلك كان يلعب في البيت في مرح ورفق بدمى أخته الكبرى المتبقية وبدكان كان يزن على ميزانه دقيقاً وملحاً ورملاً ويعبئها في أكياس ورق صغيرة لكي يستبدلها فيما بعد من

جديد ببعضها بعضاً ويفرغها ويعبئها تعبئة أخرى ويزنها من جديد .
كما طاب له أيضاً أن يساعد أمه في أعمال منزلية سهلة وكان يتسوّق لها أو يبحث في الجنينة عن حلزون في الخس .

كان رفاقه في المدرسة يضايقونه ويعابثونه مراراً وتكراراً ، إلا أنه لم يكن يحنق قط ولم يستأ تقريباً لأيّ شيء ، إلا أنه كان له بصورة عامة عيش رغد ميسر وسعيد إلى حد ما . فالشيء الذي لم يجده عند أقرانه من صداقة ومشاعر والذي لم يحق له أن يعطيه أغدقته على دماه . كان قد فقد أباه مبكراً وكان قد ولد متأخراً ، وكانت الأم ستتمناه على نحو آخر ، إلا أنها تركته وشأنه ، وكانت تكنّ لتعلقه المطيع حباً مشوباً بالشفقة .

لم يستمر هذا الوضع المقبول إلا لوقت أنهى فيه أندرياص الصغير المدرسة وفترة التدريب المهني التي أداها في السوق العليا في متجر ديرلام . في تلك الفترة ، وبدءاً من السابعة عشرة ، أخذ فؤاده المتعطش إلى الحب والملاطفات يسلك سبلاً أخرى . فالشاب الذي ظل قصيراً وخجولاً أخذ يتطلع إلى الفتيات باندهاش أكثر وأقام في قلبه محراباً لحب النساء تعالى لهبه كلما انتهت حالات عشقه وصبابته نهاية محزنة كئيبة .

كانت هناك فرصة كافية وافية من أجل التعرف على الفتيات من كل الأعمار والتفتيش عنهن ، إذ أنّ أونغيلت الشاب كان قد التحق

بعد انتهاء فترة تدريبه المهني في حانوت البياضات الخاص بعمته والذي سيستلمه هو فيما بعد . كان يأتي إلى هنا أطفال وبنات مدارس وآنسات شابات وعوانس عجائز ، فتيات ونساء كل يوم ، وكنّ ينبشن في أشرطة زينية وخيطان وكن ينتقين حواشي ونماذج حبك ، وكنّ يمدحن ويعاتبن ويساومن ويطلبن النصيحة من غير أن يصغين إلى النصيحة ويشترين ويستبدلن الشيء المشترى مرة ثانية . هذا كله شهده الشاب في أدب وحياء ، فكان يسحب الأدراج ويتسلق السيبة صعوداً ونزولاً ويعرض ويلف من جديد في الورق ويدوّن طلبات ويعطي معلومات عن الأسعار ، وكل ثمانية أيام كان يعشق إحدى زبوناته . كان يثني على الأشرطة الزينية والصوف وقد احمرّ خجلاً ، وكان يقدم ، وهو يرتعش ، إيصالاً بالمبالغ ، وكان يمسك باب الحانوت بقلب خافق ويقول شرّفونا دائماً ، حين كانت شابة جميلة تغادر الحانوت تياهة .

ولكي يجامل حسناواته ويوافق هواهن تعوّد أندرياص أصول لياقة دقيقة . كان يسرّح شعره الأشقر كل صباح في عناية وإتقان ، ويحافظ على نظافة ثيابه وملابسه الداخلية وينتظر بفروغ صبر البروز التدريجي لشاربين صغيرين . وتعلم عند استقبال زبوناته أن يقوم بانحاءات رشيقة ، وتعلم أن يستند بظاهر يده اليمنى إلى طاولة العمل عند عرض الأشياء وأن يقف على ساق ونصف فقط ، وأحرز تفوّقاً في

الابتسام الذي سرعان ما أتقنه بدءاً من ابتسامة الرضا الرقيقة وحتى التألق السعيد في الأعماق . وفضلاً عن ذلك كان يتصيد دائماً العبارات الجميلة الجديدة التي كانت تتألف في كثير من الأحيان من ظروف تعلم وابتكر منها دائماً أحلى كلمات ظرفية جديدة . وبما أنّ المهارة في الكلام كانت تنقصه أصلاً وكان يخاف ولم ينطق سابقاً إلا نادراً جملة مفيدة مؤلفة من مبتدأ وخبر ، فقد وجد في هذه الثروة اللغوية الغريبة عوناً وعوّد نفسه أن يضلل نفسه وآخرين بنوع من المقدرة اللغوية مستغنياً عن المضمون والمفهومية والوضوح .

فإن قال شخص ما :" أما اليوم فالطقس رائع " ، أجاب أونغيلت القصير :" بالتأكيد - أجل - من غير مؤاخذة - فعلاً ." وإن سألت مشترية عما إذا كانت قطعة الكتان هذه تتحمل أيضاً كثيراً قال : "عفواً ، بلى ، من دون شك ، بمعنى أوسع ، بكل تأكيد ." وإن استفسر شخص ما عن صحته أجاب :" شكراً تحت أمركم - طبعاً على خير ما يرام - أهلاً وسهلاً - ." وفي أوضاع مهمة بصورة خاصة ومشرّفة جداً لم يكن يحجم أيضاً عن تعابير من مثل " على أنّ ، لكن على أية حال ، ولا بحال من الأحوال " . وفي أثناء ذلك كانت أعضاؤه كلها من رأسه المائل وحتى طرفي قدميه المرتعشين في كامل الانتباه واللياقة والتعبير . أما الأكثر قوة في التعبير فكانت رقبته الطويلة نسبياً والتي زوِّدت على نحو نحيل وقوي بتفاحة آدم كبيرة بصورة هائلة ومتحركة . وكان إذا

أجاب الصبي القصير الولهان أحد أجوبته بطريقة التعبير المتسمة بالتقطع وعدم الترابط خيل للمرء أنّ ثلثه مؤلف من الحنجرة .

فالطبيعة لا توزّع هباتها من غير معنى ، وإذا ما انعدم التناسب بين رقبة أونغيلت المهمة ومقدرته الكلامية فلشدّما كان لها أساسها ولشدّما كانت مسوّغة بصفة ملك ورمز لمغنٍّ متحمس . كان أندرياص إلى حد بعيد صديقاً للغناء . كما أنه لدى أكثر المجاملات توفيقاً وأشد الحركات التجارية لطافةً وأشد عبارات " على كل حال " " ومع أنّ" تأثيراً لم يشعر أيضاً في أعماق روحه بارتياح يذوّب النفس مثلما كانت الحال عليه في الغناء ، وهذه الموهبة بقيت في أيام المدرسة مستترة ، إلا أنها ظهرت على نحو أكثر جمالاً بعد تغيّر صوت مكتمل ، ولو في السر فقط . إذ أنه ما كان سيناسب ارتباك أونغيلت الحيي حياء مقلقاً أن يسرّ بلذته الخفية وفنه على غير ماكان سيسرّ في الخفاء الأكثر أماناً .

في المساء وحين كان يمكث بين وجبة الطعام والذهاب إلى النوم سويعة في حجرته كان يغني في الظلمة أغانيه ويرتع في مرتع ملذاته الشعرية . كان صوته صدْحاً تقريباً ، وما أعوزه من تدريب سعى لأن يعوّضه بالحميّة . سبحت عينه في ألق بليل ، ومال رأسه المفروق بشكل جميل إلى الوراء ، وارتفعت تفاحة آدم عنده وانخفضت بالنغمات . كانت أغنيته المحببة " حين تطير السناني إلى الوطن " .

وعند المقطع " الفـراق يؤلم ، آه من الفـراق " كـان يغني بنفس طويل مرتعش وكانت عيناه تمتلئان أحياناً بالدموع .

تقدم بخطى حثيثة في مهنته التجارية . نجح في الخطة لإرساله بضع سنوات إلى مدينة كبرى . أما الآن فسرعان ما جعل من نفسه شخصاً لا يستغنى عنه في حانوت عمته بحيث إنّ هذه لم تعد ترغب في أن تدعه يذهب ، وبما أنه كان سيستلم الحانوت إرثاً فقد كان خيره وهناؤه مضمونين لكل الأزمان . كان الأمر مختلفاً فيما يتعلق بقلبه المشتاق . ورغم نظراته وانحناءاته لم يكن في نظر الفتيات اللواتي كنّ في سنه ، أي في نظر الحسناوات ، إلا شكلاً مضحكاً . فقد عشقهنّ كلهنّ الواحدة تلو الأخرى ، وكان سيأخذ كل واحدة لو أنها تقدمت خطوة واحدة فقط صوبه . لكن ما من واحدة خطت الخطوة ، مع أنه وسّع لغته شيئاً فشيئاً وزوّدها بأكثر العبارات ثقافة وزوّد منضدة زينته بأحلى الأشياء .

كان هناك استثناء ، هو وحده لم يلاحظه . فالآنسة باولا كيرش ، المسماة كيرشرزبويلي ، كانت دائماً لطيفة معه وبدت أنها توليه أهمية . والحق أنها لم تكن شابة ولا جميلة ، بل كانت أكبر منه ببضع سنوات وغير ملفتة للنظر تقريباً ، وما عدا ذلك فقد كانت تعتبر فتاة شاطرة ومعتبرة من أسرة حرفيين موسرة . وكان إذا حياها أندرياص في الشارع شكرت بلطف وجد ، وإذا جاءت إلى الحانوت كانت لطيفة وبسيطة

ومتواضعة ، وسهلت عليه الخدمة وصدقت اهتماماته التجارية تصديقاً أعمى ولهذا كانت تروق له رؤيتها ووثق بها ، وعدا ذلك كانت هي بالنسبة إليه غير مبالية وكانت واحدة من الفتيات العزباوات القليلات العدد ، اللواتي لم يخطرن قط بباله خارج حانوته .

فقد عقد آماله تارة على حذاء ظريف جديد ، وتارة على شال حلو ، بغض النظر عن الشارب الذي نبت شيئاً فشيئاً واعتنى به اعتناءه بمقلة عينه ، وأخيراً اشترى من تاجر جوال خاتماً ذهبياً أيضاً وعليه حجر أوبال كبير . كان آنذاك في السادسة والعشرين .

ولكن حين صار في الثلاثين وظل يلف حول مرفأ الزواج على بعد ملؤه الشوق اعتبرت الأم والعمة الموضوع ضرورياً لأن تتدخلا مشجعتين . فالعمة التي كانت مسنة بادرت بالعرض أنها تريد أن تتنازل له في حياتها عن المحل ، ولكن فقط في يوم زواجه من ابنة فاضلة من بنات غيربرزاو . وكان هذا للأم أيضاً علامة هجوم . وبعد كثير من التروي توصلت إلى الرأي أن ابنها يجب أن يدخل في نادٍ فيكثر مخالطة الناس ويتعلم معاشرة النساء . وبما أنها كانت تعرف حبه لفن الغناء فكرت بأن تصطاده بهذه الصنارة ونبهته إلى أن يقدم طلباً للاشتراك في جمعية المغنين .

على الرغم من حيائه من مجلس الأنس وافق أندرياص بصورة رئيسية . على أنه اقترح عوضاً عن جمعية المغنين جمعية الإنشاد

الكنسي لأن الموسيقا الأكثر جدية تعجبه أكثر . أما السبب الحقيقي فهو أن جمعية الإنشاد الكنسي كانت تخص مارغريت ديرلام . وكانت هذه ابنة موظف الصيد والغابة السابق ، فتاة بشوشة وحلوة جداً لم تتجاوز العشرين . وكان أندرياص قد شغف بها من عهد قريب ، إذ أنه منذ زمن غير قصير لم يعد هناك بالنسبة إليه أية فتيات عازبات كنّ على سنه ، وعلى الأقل فتيات جميلات .

لم يكن لدى الأم شيء وجيه تعترض به على جمعية الإنشاد الكنسي . ولئن لم تكن هذه الجمعية تحيي كثيراً من أمسيات الأنس والإحتفالات مثل جمعية المغنين ، إلا أنه مقابل ذلك كانت العضوية هنا أرخص بكثير والفتيات من الأسر المحترمة واللواتي كان أندرياص سيلتقي بهن في تجارب الأداء والعروض ، لم يكنّ هنا أيضاً بالعدد الكافي . ولهذا توجهت من غير إبطاء مع السيد الابن إلى مدير الإدارة الذي كان معلم مدرسة عجوزاً ، واستقبلها بحفاوة .

قال :" إذاً ، يا سيد أونغيلت ، أنت ترغب في أن تشترك عندنا في الغناء . "

" أجل ، بالتأكيد ، من فضلك- ."

" هل سبق أن غنيت ؟"

" أجل ، هذا يعني ، نوعاً ما -"

"والآن لنقم بتجربة أداء . غنّ أية أغنية تعرفها عن ظهر قلب ."

احمرّ أونغيلت خجلاً مثل صبي وما أراد أن يبدأ بحال من الأحوال . لكن المعلم أصرّ وكاد أن يغضب في النهاية ، بحيث إنه تغلب في النهاية على فزعه وبدأ يغني أغنيته المفضلة ناظراً إلى أمه الجالسة في هدوء نظرة مستسلمة . استخفته الأغنية وغنى أول مقطع من غير توقف .

أومأ قائد الأوركسترا أنّ هذا كافٍ . وكان مهذباً مرة أخرى وقال إن هذا قد تم غناؤه بشكل جميل فعلاً وأنّ المرء ليلاحظ أن هذا حدث بحب ، لكن ربما كان موهوباً أكثر للموسيقا الدنيوية ، وليته يجرب هذا لدى جمعية المغنين . أراد السيد أونغيلت أن يتلجلج بجواب مضطرب ، وهنا توسطت له أمه بأن قالت إنه يغني في الواقع غناء جميلاً وأنه كان الآن مضطرباً قليلاً ، ولسوف يسرها كثيراً لو قبله ، فجمعية المغنين تختلف كلياً وهي ليست ممتازة إلى هذا الحد ، كما أنها تقدم هي هدايا للكنيسة كل سنة . وباختصار لو تكرم السيد الأستاذ وعمل هذا ، ولفترة اختبار على الأقل ، فسيرى المرء حينئذٍ . وحاول الرجل العجوز أن يتحدث مرة أخرى مطيباً الخاطر أن الإنشاد الكنسي ليس تسلية وأن الجو الاحتفالي على منصة الأورغن هو على كل حال محدود ، على أن فصاحة الأم انتصرت في النهاية ، لم يشهد قائد الأوركسترا قط أن رجلاً جاوز الثلاثين سجّل اسمه للاشتراك في الغناء وقد جلب معه أمه للمؤازرة . وبقدر ما كانت هذه الزيادة في

جوقته غير مألوفة ومزعجة بصفة خاصة ، إلا أن الموضوع سره بينه وبين نفسه ، ولو لم يكن من أجل الموسيقا . وطلب من أندرياص الحضور إلى التجربة التالية . وتركهما كليهما يذهبان مبتسمين .

في مساء الأربعاء حضر أونغيلت القصير في الوقت المحدد إلى القاعة حيث تجري تجارب الأداء . كان المرء يتدرب على ترتيلة خاصة بعيد الفصح . والمغنون والمغنيات الذين وصلوا تدريجياً حيوا العضو الجديد تحية رقيقة جداً وكانوا كلهم ذوي طبيعة مرحة فرحة جداً بحيث إن أونغيلت شعر بالغبطة . كما أن مارغريت ديرلام كانت موجودة هناك ، وهي أيضاً أومأت للعضو الجديد بابتسامة لطيفة . الحق أنه سمع ضحكاً خفيفاً وراءه إلا أنه كان معتاداً أن يكون عرضة لقليل من الهزء ولم يردّ على ذلك . أما الشيء الذي لم يعجبه فقد كان تصرف كيرشرزبويلي الجدي على نحو متحفظ والتي كانت أيضاً من بين الحضور ، كما لاحاظ هو على الفور ، لا بل كانت من عداد المغنيات المعتبرات . وكانت قد أبدت دائماً في غير هذا الوقت وداً صريحاً نحوه ، والآن كانت هي بالذات باردة برودة غريبة وبدت أنها استاءت أن يكون قد دخل إلى هنا . ولكن أي شأن كان له بكيرشرزبويلي .

في أثناء الإنشاد تصرف أونغيلت بحذر شديد . ولئن كان لا يزال يفقه شيئاً ما عن النوتات من أيام المدرسة ورب إيقاعات غناها بصوت

هادئ كما غناها آخرون ، لكن بصورة عامة أحس بأن ثقته بنفسه ثقة ضعيفة وخالجه شك مخيف فيما إذا كان هذا سيتغير في أيما وقت . فقائد الجوقة الذي وجد في ارتباكه ما يبعث على الضحك وأثاره رق له ، لا بل قال له عند الوداع : " سيمشي الحال مع الزمن إن التزمت بذلك ." على أن اندرياص استمتع طوال المساء أن يكون بالقرب من مارغريت وأن يسمح له بالنظر إليها مراراً وتكراراً . وفكر أن المغنين الصادقين وضعوا في أثناء الإنشاد العلني في موضعهم المحدد وراء الآنسات ، وتخيل بشكل واضح جلي اللذة أن يقف في عيد الفصح وفي المناسبات المقبلة كلها بالقرب من الآنسة ديرلام وأن يتمكن من أن ينظر إليها من غير استحياء . وآلمه أن يخطر بباله مرة أخرى كم كان نموه قصيراً وصغيراً وأنه لن يتمكن من أن يرى شيئاً وهو واقف بين مغنين آخرين . وبجهد جهيد وتلعثم كثير أوضح لأحد المشاركين في الإنشاد مأزقه المقبل هذا على الأورغن . وطبيعي من دون أن يذكر السبب الحقيقي لهمه وغمه . هنا هدأه الزميل ضاحكاً وقال إنه سيتمكن من مساعدته في توزيع رائع .

بعد اختتام التجربة تفرق الجميع حتى من دون أن يسلم أحدهم على الآخر ورافق بعض السادة سيدات إلى البيت ، وتوجه بعضهم معاً لشرب كأس بيرة . بقي أونغيلت واقفاً وحيداً على نحو يرثى له في المكان أمام المدرسة المظلمة ، وأتبع الآخرين نظره محزوناً وبصورة خاصة

مارغريت وبانت على وجهه خيبة أمل ، وفي هذه اللحظة مرت به كيرشرزبويلي . وحين رفع القبعة قالت هي :" أذاهب أنت إلى البيت؟ طريقنا إذاً واحد ونستطيع الذهاب معاً ." وانضم إليها شاكراً وسار إلى جانبها إلى منزله عبر الأزقة الباردة برودة آذار من غير أن يبادلها أية كلمة اللهم إلا تحية طاب مساؤك .

في اليوم التالي جاءت مارغريت ديرلام إلى الحانوت ، وكان له أن يقوم على خدمتها . كان يلمس كل قماش كما لو كان حريراً ، وكان يحرك المتر مثل قوس ، فقد بث إحساساً وظرافة في كل خدمة صغيرة ، وأمل في شيء من الجرأة أن تقول كلمة عن أمس وعن النادي وتجربة الأداء . وأحسنت فعل هذا أيضاً . فتحت الباب مباشرة وسألت :" لقد كان جديداً عليّ أنك تغني يا سيد أونغيلت . أتغني منذ زمن طويل ؟" وعلى حين أطلق من فمه بقلب خافق :" نعم - بالأحرى ليس هكذا - من غير مؤاخذة -" اختفت في الزقاق وهي تومي إيماءة خفيفة .

" أبصر ، أبصر !" قال بينه وبين نفسه ونسج أحلاماً للمستقبل ، لا بل إنه ظن لأول مرة في حياته في أثناء وضع كل شيء في مكانه ، الأشرطة نصف الصوفية أشرطةً من الصوف الخالص .

في أثناء ذلك اقترب الفصح أكثر وأكثر ، وبما أن الجوقة الموسيقية كان من المفترض أن تغني سواء في الجمعة الحزينة أو في أحد الفصح فقد كان في الأسبوع عدة تجارب أداء . وكان أونغيلت يحضر دائماً في

الموعد المحدد ويبذل قصارى جهده ألا يفسد أي شيء وقد عومل من قبل كل إنسان معاملة طيبة إلا كيرشرزبويلي فلم يظهر أنها مرتاحة إليه ولم يسره هذا ، إذ أنها كانت في النهاية السيدة الوحيدة التي كان له الثقة الكاملة بها . كما أنه اتفق بصورة منتظمة أن يسير إلى جانبها إلى البيت وكانت دائماً أمنيته الخفية وقراره الخفي أن يعرض مرافقته على مارغريت ، على أنه لم يجد قط الشجاعة على ذلك . ولهذا رافق بويلي . في المرات الأولى لم يتم النطق بكلمة في الطريق إلى البيت ، وفي المرة الثانية حاسبته كيرشرحساباً عسيراً وسألته لماذا كان هو قليل الكلام إلى هذا الحد ، وهل يخافها .

" لا " ، تلعثم مرتاعاً . " ليس هذا - بالأحرى - بالتأكيد لا . على العكس ."

ضحكت ضحكة خفيفة وسألت : " وكيف هي الحال مع الغناء؟ هل تتمتع بذلك ؟"

" بلى ، كثيراً - نعم ."

هزت الرأس وقالت في صوت خفيض : " ألا يستطيع المرء أن يتحدث معك فعلاً ، يا سيد أونغيلت ؟ فأنت تتهرب أيضاً من كل جواب ."

نظر إليها حائراً وتلعثم .

" إن قصدي شريف " ، استأنفت كلامها . " ألا تعتقد هذا ؟"

أومأ بشدة .

" إذاً ! ألا تستطيع أن تتكلم إلا لماذا وعلى كل حال ومن غير مؤاخذة وما شابه ذلك ؟"

" نعم ، أجل ، أستطيع ، مع ذلك ، لكن ."

" نعم ومع أن وعلى أن . قل إنك في المساء تتكلم الألمانية أيضاً مع السيدة الوالدة والعمة ، أم لا ؟ إذاً افعل هذا أيضاً معي ومع الناس الآخرين ! ففي هذه الحال سيكون في إمكان المرء أن يجري محادثة معقولة . ألا تريد ؟"

" أجل ، أريد هذا بالتأكيد ."

" حسن إذاً . هذا تعقّلٌ منك . الآن أستطيع الحديث معك . إذ أن لدي أشياء أود قولها ."

عندئذٍ تحدثت معه على نحو لم يعتقده . سألت عما يبحث هو في جمعية الإنشاد الكنسي ، إن لم يكن يستطيع الغناء وحيث لا يوجد إلا الأصغر سناً منه تقريباً . وعما إذا لم يلاحظ أن المرء يهزأ منه هناك والمزيد من هذا النوع . ولكن كلما أذلته اشتد شعوره بطريقة نصحها الطيبة المخلصة إلحاحاً . فقد تأرجح بطريقة باكية بين رفض بارد وامتنان متأثر . وعند ذلك كانا قد وصلا قدام بيت كيرشر . صافحته باولا وقالت في جد :

" عمت مساء ، يا سيد أونغيلت ، ومن غير مؤاخذة . في المرة

التالية نتابع حديثنا ، أليس كذلك؟"

سار إلى البيت مبلبل الأفكار ، وبقدر ما آلمه أن يتذكر مصارحتها بقدر ما كان جديداً عليه ومواسياً له أنّ شخصاً ما تحدث إليه بمثل هذا الود وهذه الجدية والرفق .

في الطريق إلى البيت من التجربة التالية تسنّى له أن يتكلم بلغة ألمانية إلى حد ما ، مثلما يتكلم مع أمه في البيت ، وبما أنه نجح في ذلك فقد اشتدت قوته وثقته . وفي المساء التالي بلغ الأمر به أن حاول أن يعترف ، لا بل صمم نصف تصميم على أن يسمي ديرلام بالاسم ، إذ أنه منّى نفسه شيئاً محالاً من إطلاع باولا ومساعدتها . إلا أنها قطعت عليه الطريق . فقد قاطعت اعترافاته فجأة وقالت :

" أنت تنوي الزواج ، أليس كذلك ؟ كما أنّ هذا أيضاً أسلم الأشياء التي يمكنك القيام بها وأقومها . وسنك تؤهلك لذلك ."

قال في حزن :" سني ، أجل " ، لكنها اكتفت بالضحك ، وسار إلى البيت من غير تعزية .

في المرة التالية تطرق من جديد إلى الحديث عن هذه المناسبة ، واكتفت بويلي بالرد أن عليه أن يعرف من يريد ؛ إلا إذا لم يكن الدور الذي تلعبه في جمعية الغناء غير مفيد له ، إذ أن فتيات شابات سيفضلنّ أن يرتضين أخيراً بكل شيء عند عشيق إلا بالسخرية .

الآلام النفسية التي سببتها له هذه الكلمات تراجعت أمام

الاضطراب والاستعدادات للجمعة الحزينة ، اليوم الذي كان على أونغيلت أن يظهر فيه لأول مرة على منصة الأورغن . لبس في هذا الصباح لباسه بعناية خاصة وبكّر في المجيء إلى الكنيسة مرتدياً قبعة مرتبة ، وبعد أن خصصوا له مكانه التفت مرة أخرى إلى زميله الذي وعده بالمساعدة في التوزيع . في الواقع بدا هذا أنه لم ينس الموضوع . لوّح بيده إلى دوّاس منفاخ الأورغن الذي جلب له مبتسماً صندوقاً صغيراً تمّ وضعه في مكان وقوف أونغيلت ووضع القصير فوقه بحيث إنه تمتع بالمزايا نفسها في أن يرى وأن يكون مرئياً مثله مثل أطول المغنين الصادحين . إلا أن الوقوف بهذه الطريقة كان مجهداً وخطراً ، فقد كان عليه أن يحافظ على التوازن ورب قطرة عرق أراقها عند التفكير بأنه قد يسقط ويهوي أرضاً بساقين مكسورتين وسط الفتيات اللواتي اتخذن مكانهن عند الدرابزين ، إذ أن بناء الأورغن الأمامي مال صوب صحن الكنيسة إلى الأسفل في شرفات ضيقة منحدرة انحداراً شديداً . إلا أنه استمتع لقاء ذلك بأنه استطاع أن يرى مارغريت ديرلام الجميلة عن مقربة مزعجة من الخلف . وبما أن النشيد والقداس كله انتهيا شعر بأنه منهك وتنفس الصعداء حين فتحت الأبواب وقرعت الأجراس .

في اليوم التالي عابت عليه كيرشرزبويلي أن مكانه المرفوع رفعاً اصطناعياً يبدو متعجرفاً ويجعله موضع سخرية واستهزاء . ووعد بألا يخجل فيما بعد من جسمه القصير ، إلا أنه سيستعمل الصندوق

الصغير لآخر مرة غداً في عيد الفصح ، كي لا يهين السيد الذي قدمه له . فلم تجرؤ على أن تقول ما إذا لم يرَ أن ذاك لم يحضر الصندوق الصغير إلا ليمزح عليه . تركته وشأنه وهي تهز الرأس وتأثرت لغبائه إلى حد الحنق مثلما تأثرت لسذاجته .

في أحد الفصح كان الجو في الكنيسة أبهج وأكثر مهابةً وجلالاً مما كان حديثاً بمقدار درجةواحدة . فقد عزفت موسيقا صعبة ، وتوازن أونغيلت بشجاعة على سقّالته . وعند ختام الترتيلة لاحظ مرتعباً أن موقعه بدأ يهتز تحته ويصبح مقلقلاً . لم يكن في وسعه إلا أن يبقى هادئاً فلعله يتجنب السقوط على الشرفة . وتسنى له ذلك أيضاً ، وعوضاً من فضيحة وكارثة لم يحدث أي شيء إلا أن المغني الصادح أونغيلت قصرشيئاً فشيئاً وسط طقطقة خافتة واختفى عن الأنظار بوجه امتلأ رعباً . وغاب عن نظره الواحد تلو الآخر ، قائد الفرقة وصحن الكنيسة وشرفة الكورس وقفا مارغريت الجميلة ، إلا أنه وصل إلى الأرض سالماً ، وما عدا المشاركين في الإنشاد والمبتسمين ابتسامة الشماتة في الكنيسة لم يرَ الحادث إلا بعض الشباب الذين كانوا يجلسون على مقربة . وهللت وابتهجت تراتيل الفصح المؤداة بمهارة وفن متجاوزةً بؤرة إذلاله .

حين غادر القوم الكنيسة تحت آخر أنغام عازف الأورغن الختامية ، بقيت فرقة المرتلين معاً على منصتها من أجل تبادل بعض

الكلمات ، إذ غداً ، وفي إثنين الفصح ، كان مقرراً أن تقوم جوقة المرتلين بنزهة احتفالية مثل كل سنة ، وعلى هذه النزهة كان أندرياص أونغيلت قد عقد آمالاً كبيرة . لا بل إنه وجد الشجاعة لأن يسأل الآنسة ديرلام عما إذا كانت تنوي الذهاب هي أيضاً معهم ، ونطق بالسؤال دون تأتأة كثيرة .

" أجل ، بالتأكيد سأذهب معهم " ، قالت الفتاة الجميلة بهدوء ثم أضافت :" بالمناسبة ، ألم تؤذ نفسك قبل ذلك ؟" وأطلقت ضحكة مكبوتة إلى درجة أنها لم تعد تنتظر جواباً وولت هاربة . في اللحظة نفسها نظرت بويلي صوبه نظرة مشفقة جادة صعّدت حيرة أونغيلت واضطرابه . فشجاعته التي تأججت فجأة تأججاً خاطفاً انقلبت ثانية انقلاباً لا يقل سرعة ، ولولا أنه لم يتكلم مع أمه عن النزهة ولولا أنه لم يطلب من هذه الذهاب معهم لود الآن أن يتخلى عن الرحلة وعن جوقة المرتلين وأن يتخلى عن كل آماله .

كان اثنين الفصح صحواً ومشمساً ، وفي الساعة الثانية اجتمع أعضاء جوقة المرتلين كلهم تقريباً مع بعض الضيوف والأقارب فوق المدينة في شارع ليرشين المشجر . وجلب أونغيلت أمه معه . كان قد اعترف لها في المساء الماضي أنه مغرم بمارغريت ولئن كانت له آمال ضعيفة ، إلا أنه ما زال يأمل بعض الأشياء من مساعدة أمه ومن عصر النزهة . ورغم أنه كان يطيب لها أن ترى صغيرها قد حاز على

الأفضل ، إلا أنه بدا لها أن مارغريت صغيرة السن جداً عليه وجميلة جداً . وكان في وسع المرء أن يحاول ؛ الشيء الأساسي أن أندرياص سرعان ما وجد زوجة - ولو من أجل الحانوت .

خرج المرء من غير غناء ، إذ أن الدرب في الغابة كانت منحدرة نوعاً ما وصعبة في الطلوع . ومع ذلك وجدت السيدة أونغيلت تركيزاً أو نفَساً لكي تنبه ابنها بصورة جادة على آخر إرشادات السلوك الصحيح للساعات المقبلة وأن تبدأ فيما بعد حديثاً مرتباً مع السيدة ديرلام ، أم مارغريت ، وعلى حين وجدت مشقة ، استطاعت أن تخصص في صعود الجبل هذا هواءً للأجوبة الأكثر ضرورة وأن تسمع جملة من الأشياء المقبولة والممتعة . بدأت السيدة أونغيلت بالطقس الجميل وانتقلت إلى تقدير الموسيقا الكنسية وإلى مديح مظهر السيدة ديرلام الذي ينم عن الحيوية والنشاط وإلى ابتهاج بثوب مارغريت الربيعي وتوقفت عند شؤون الزينة وقدمت أخيراً وصفاً للارتقاء المذهل الذي ارتقاه متجر البياضات لأخت زوجها في السنوات الأخيرة . ورداً على ذلك لم تستطع السيدة ديرلام إلا أن تنوه بأونغيلت الشاب الذي يبدي الكثير من الذوق والمؤهلات التجارية وهذا ما لاحظه وأقر به زوجها قبل عدة سنوات في أثناء فترة تدريب أندرياص المهنية . وعلى هذه المجاملة ردت الأم المبتهجة بنصف تنهدة . طبيعي ، أندرياص شاطر ولسوف يتقدم أيضاً ، كما أن المتجر الرائع يكاد يكون ملكه ، إلا أن

خجله من النساء أمر يدعو للرثاء فمن جهته لا تنقصه الرغبة ولا الفضائل المستحبة للزواج ، إنما تنقصه الثقة وروح المبادرة .

هنا أخذت السيدة ديرلام تواسي الأم القلقة المهمومة ، وإذا ما كانت في أثناء ذلك أبعد ما تكون عن التفكير بابنتها ، إلا أنها أكدت أنّ أي ارتباط بأندرياص قد ترحب به أية ابنة عازبة من بنات المدينة ، وهذه الكلمات امتصتها أونغيلت مثل العسل .

في أثناء ذلك كانت مارغريت تسير بعيداً في المقدمة مع شباب آخرين في المجموعة ، وإلى هذا الجمع الصغير من أصغر الشباب وأمرحهم انضمّ أونغيلت أيضاً مع أنه بذل كبير عناء لكي يلحق بهم بساقيه القصيرتين .

ومن جديد كان الجميع لطفاء جداً معه ، إذ أن القصير الخائف بعينيه العاشقتين كان في نظر هؤلاء المهذارين الفرحين لقمة سائغة . كما أن مارغريت الجميلة شاركت معهم واستدرجت المحب من وقت إلى آخر بجد ظاهري إلى الحديث بحيث إنه تعرق بسبب انفعال سعيد وأجزاء من جملة غير منطوقة نطقاً واضحاً .

البهجة وحدها لم تستمر طويلاً ، على أن البائس الفقير لاحظ تدريجياً أنهم كانوا يسخرون منه من وراء الظهر . وإذا كان في إمكانه أن يرتضي هذا ، إلا أنه كان قد تكدر صفوه وترك الأمل يضمحل من جديد . لكنه ، في الظاهر وبقدر ما استطاع ، ترك الآخرين يلاحظون

القليل وتصاعد فرح ومرح مع كل ربع ساعة ، واجتهد في أن يشارك في الضحك ويلعلع فيه كلما تبين له أنه كان المقصود بالنكات كلها والتلميحات ، وأخيراً ختم أكثر الشباب تطاولاً وسلاطة لسان ، وهو مساعد صيدلي فارع الطول ، المداعبات بمزح لاذع جداً .

مرّوا لتوهم ببلوطة قديمة جميلة ، وأعلن الصيدلي استعداده من تلقاء نفسه بأن يحاول ما إذا كان في إمكانه أن يصل بيديه إلى أدنى فرع من فروع الشجرة السامقة ، وقف وقفز غير مرة في العلاء ، إلا أن هذا لم يكف ، وأخذ المتفرجون المتحلقون في نصف دائرة يسخرون منه . هنا خطر بباله أن يحفظ ماء وجهه من جديد عن طريق نكتة وأن يضع شخصاً آخر موضع الشخص المستهزء منه . فجأة أمسك بأونغيلت القصير من خصره ورفعه عالياً وطلب منه أن يمسك بالفرع ويتشبث به . اغتاظ الذي أخذ بغتة والمؤكد أنه ما كان سيلبّي لو لم يشعر في موقعه المتأرجح بالخوف من السقوط . ولهذا أمسك بقوة وتشبث ، ولكن حالما رأى حامله هذا تركه ، وتدلى أونغيلت الآن ، عالياً على الفرع بلا عون وسط ضحك الشباب ، وهو يحرك ساقيه بسرعة وجزع ويصدر صرخات غاضبة .

" أنزلوني !" صرخ بحدة . " أعيدوني على الفور إلى الأسفل ، أنتم !"

وانقلب صوته ، وأحس بأنه قضي عليه كلياً وأنه وضع موضع العار

الأبدي . أما الصيدلي فقد قصد بأنّ عليه أن يفتدي نفسه الآن ، وصفق الجميع .

" عليك أن تفتدي نفسك " ، هتفت مارغريت ديرلام . عندئذٍ لم يستطع هو أن يقاوم .

هتف هو : " أجل ، أجل ، ولكن بسرعة !"

ألقى معذّبه خطبةً قصيرة مفادها أن السيد أونغيلت عضو جمعية المرتلين منذ ثلاثة أسابيع من دون أن يسمعه أحد يغني . والآن ليس في إمكانه أن يتحرر من موقعه العالي والخطير حتى يغني للمجتمعين أغنية .

وما إن تكلم حتى شرع أندرياص في الغناء ، إذ أنه شعر أن قواه تخونه . وبدأ بصوت يشوبه النشيج : " أما زلت تذكرني الساعة "- لم يفرغ بعد من المقطع الأول حتى أفلت يديه وسقط صارخاً . ذعر الجميع ، ولو أنه كسر ساقاً لضمن بالتأكيد شفقة نادمة . ولئن وقف ممتقع اللون ، إلا أنه عاد إلى النهوض سليماً معافى ، التقط قبعته التي كانت إلى جانبه في الطحلب واعتمرها مرة أخرى وذهب صامتاً ، راجعاً في الطريق نفسه الذي جاؤوا منه . خلف المنعطف التالي جلس على حافة الطريق وحاول أن يستريح .

هنا وجده الصيدلي الذي كان قد تسلّل وراءه وقد أحس بالذنب . طلب منه الصفح من دون أن يتلقى جواباً .

" يؤسفني غاية الأسف " ، قال مرة أخرى برجاء واستعطاف ، "الحق أنه لم يكن هذا سوء نية مني . الرجاء أن تسامحني ، وتعال معي من جديد ."

قال أونغيلت :" حسن ." وأشار بالنفي ، وانصرف الآخر غير راض .

ولم يمض وقت طويل حتى أقبل القسم الآخر من المجموعة مع الناس الأكبر سناً ومع كلتا الأمّين مقتربين على مهل . توجّه أونغيلت إلى أمه وقال :

" أريد العودة إلى البيت ."

"إلى البيت ؟ ولماذا ؟ هل حدث شيء ما ؟"

" لا ، لا فائدة من ذلك ولا نفع ، أعرف ذلك الآن بكل تأكيد ."

" هل تلقيت رفضاً ؟"

" لا ، لكنني أعرف –"

قاطعته وسحبته معها .

" لا عبث صبياني الآن ! أنت تأتي معي ، وستسير الأمور بشكل طبيعي . انتبه ، عند شرب القهوة ، سأجلسك أنا بجانب مارغريت ."

هز الرأس مهموماً ، لكنه انصاع وذهب معها . حاولت كيرشرزبويلي أن تبدأ حديثاً معه وكان عليها أن تتخلى عن ذلك إذ أنه نظر صامتاً إلى الأمام وكانت ملامح وجهه تنم عن أنه مستفز وممرور

النفس على نحو لم يسبق لأحد أن رآه هكذا .

بعد نصف ساعة وصل الجميع إلى المكان المنشود ، وهو قرية اشتهر مطعمها بقهوته الجيدة وكان بالقرب منها آثار لقلعة فرسان قطاع طرق . في حديقة المطعم كان الشباب الذين وصلوا منذ زمن غير قصير قد انهمكوا في ألعاب ملؤها الحركة والنشاط . وأحضرت الآن طاولات من البيت ووضعت بجانب بعضها البعض ، وحمل الشباب كراسي ومقاعد خشبية ، ووضعت أدوات سفرة جديدة وطلبت سفرة بفناجين وأباريق وصحون وكل أصناف الكعك . ونجحت السيدة أونغيلت فعلاً في أن تجلس ابنها إلى جانب مارغريت . إلا أنه لم يحقق منافعه ، بل استرسل مع نفسه في شبه غيبوبة يائساً يحدوه الإحساس بتعاسته وكان يحرك قهوته التي بردت بالملعقة تحريكاً آلياً ، وصمت بعناد رغم كل النظرات التي كانت ترسلها إليه أمه .

بعد الفنجان الثاني قرر قادة الشباب أن يقوموا بمشوار إلى آثار القلعة وأن يلعبوا هناك ، نهض فريق الشباب مع البنات صاخبين صاخبين . ونهضت مارغريت ديرلام أيضاً ، وفي أثناء النهوض ناولت أونغيلت المستمسك بيأسه حقيبة يدها الجميلة المخرزة باللآلئ قائلة : "الرجاء أن تحفظها لي جيداً ، يا سيد أونغيلت ، نحن ذاهبون للعب ."

أومأ وأخذ الشيء . فالبداهة القاسية التي افترضت بها أنه سيبقى مع الشيوخ ولن يشارك في الألعاب لم تدهشه . فما أدهشه

فـقط أنه لم يلاحظ هذا كله من البـداية ، اللطف الغـريب في أثناء تجارب الأداء وقصة الصندوق الصغير وكل الأشياء الأخرى .

حين ذهب الشـبـاب وتابع المتـخلفـون شـرب القـهـوة ، وحـاكـوا الأحـاديث ، اختـفى أونغيلت من غيـر أن يراه أحـد من مكـانه وذهب وراء الحديقة ماراً بالحقل صوب الغابة . فـالحقيبـة الجميلة التي كان يحملها في يده ، تألقت فرحة في ضوء الشمس . توقف أمام بقيـة من شجرة طرية . أخرج منديله ، وبسطه على الخشب الذي مازال رطباً غير كثيف وجلس فوقه . ثم أسند رأسه إلى راحتيـه وأطال التـفكيـر في أفكار محزنة ، وحين وقع بصره على الحقيبة الملونة وحملت الريح إليه في الوقت نفسه صيحات الجماعة ونداءات الفرح أمال برأسه الثقيل إلى الأسفل وبدأ ينتحب انتحاباً طفولياً هادئاً .

ظل جالساً ساعة من الزمن . جفف الدموع من عينيه ثانية وخبا انفعاله ، على أن حالة حزنه ويأس مساعيـه وطموحـاته ازدادت الآن أكثر من ذي قبل . هنا سمع خطوة خفيفة تقترب منه ، وحفيف ثوب ، وقبل أن يتمكن من القيام بسرعة من مكانه كانت باولا كيرشر تقف إلى جانبه .

قـالت مازحـة :" وحيـداً كل الوحـدة ؟" وبما أنه لـم يجب ونظرت إليـه على نحـو أدق صـارت فـجأة جـادة وسـألت بطيبـة أنثوية : " ما الخطب ؟ها حدث لك مكروه ؟"

" لا " قال أونغيلت بصوت خافت ومن غير أن يبحث عن عبارات جوفاء . " لا ، لقد رأيت أني لا أناسب وسط الناس ولا أليق بهم . وأنني مهرجهم ."

" لن يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحد ."

" أجل هو هكذا ، فأنا كنت مهرجهم ، ولا سيما زميلاتك الفتيات . لأنني كنت طيب القلب وصادق النية . كنت أنت على صواب أنه ما كان علي أن انخرط في الجمعية ."

" يمكنك تركها ، وعندها سيكون كل شيء على ما يرام ."

" في إمكاني الخروج منها ، وإنه لأهون عليّ أن أقوم بذلك اليوم قبل الغد ، ولكن بهذا لا يصلح كل شيء ."

" لم لا ؟"

" لأنني صرت موضع سخرية لهم ، ولأنه لم تعد هناك اليوم واحدة -"

كاد النشيج أن يتغلب عليه . وسألت في ود : " ولأنه لم تعد هناك واحدة ؟"

تابع الكلام بصوت مرتعش :" لم تعد هناك فتاة تحترمني وتريد أن توليني أهمية ."

قالت بويلي ببطء : " سيد أو نغيلت ، ألست الآن ظالماً ؟ أم تقصد أنني لا أحترمك ولا أوليك أهمية ؟"

" أجل ، أقصد هذا . واعتقد أنك تحترمينني ، لكن ليس هذا هو الموضوع ."

" أجل ، وما هو ؟"

" يا إلهي ما كان علي أن أتحدث عن ذلك . إنني أرتبك وأحتار في أمري حين أفكر أن الأمور عند كل شخص آخر أفضل مما هي لدي ، وأنا أيضاً إنسان ، أليس كذلك ؟ أما أنا فما من واحدة تريد أن تتزوجني !"

سادت وقفة صمت غير قصيرة ، واستأنفت باولي الكلام :

" أجل ، وهل سألت أنت الواحدة أو الأخرى عما إذا كانت تريد أم لا ؟"

" سألت ! لا ، لم أفعل ذلك . ولمَ أيضاً ؟ أعرف مسبقاً أنه ما من واحدة تريد ؟"

" في هذه الحال أنت تطلب إذاً أن تأتي الفتيات إليك ويقلن : أي سيد أونغيلت ، المعذرة ، إنه ليطيب لي كثيراً أن تتزوجني ! أجل ، سيكون في إمكانك أن تنتظر هذا طويلاً ."

" أعرف هذا " ، تنهد أندرياص ، " أنت تعرفين ما أعني ، يا آنسة بويلي . لو عرفت أن إحداهن صادقة النية معي أنا ، وربما تستخف ظلي قليلاً ، عندها –"

" عندها تتكرم بأن تغمز لها بعينيك أو تومئ لها بإصبعك ! يا ربي ، إنك - إنك -"

اندفعت راكضة ولكن من غير ضحكة ، بل بدموع في عينيها . لم يستطع أونغيلت أن يرى هذا ، لكنه لاحظ شيئاً غريباً في صوتها وفي ركضها ، ولهذا ركض وراءها ، وحين كان عندها ولم يجد كلاهما كلاماً ، احتضنا بعضهما بعضاً وتبادلا قبلة . حينئذٍ كان أونغيلت الصغير مخطوباً .

حين عادا إلى حديقة المطعم على استحياء ولكن ببطولة والذراع بالذراع ، كان الجميع على استعداد للانطلاق ولم يكونوا منتظرين إلا الإثنين فقط . في الصخب العام والذهول وهز الرأس والتهاني تقدمت مارغريت الجميلة من أونغيلت وسألت : " أي نعم ، وأين تركت حقيبة يدي ؟"

أنبأ العريس في دهشة واسرع عائداً إلى الغابة ، وسارت معه بويلي . وفي المكان الذي جلس فيه طويلاً وبكى كان الكيس البرّاق في الدرب البني وقالت العروس :" حسن أننا جئنا إلى هذه الجهة . فها هو ذا منديلك أيضاً ."

(١٩٠٨)



لاديـــدل

الفصل الأول

عـرف السـيـد الشـاب ألفـريد لاديدل منذ نعـومـة أظفـاره كـيف يستخف بالحياة . كانت أمنيته أن يكرس نفسه لدراسات عليا ، ولكن حين اجتاز بشيء من التأخر الامتحان المؤدي إلى صفوف الثانوية العليا بدرجة غير مرضية ، عزم من غير ما صعوبة كبيرة على أن يمتثل إلى نصيحـة معلمه ووالديه وأن يتخلى عن هذه السيـرة المهنية . ومـا إن حدث هذا والتحق في مكتب كاتب عدل بصفة صبي متمرن حتى تعلم أن يرى كم يقدر المرء في كثير من الأحيان الطلبة والعلم أكثر مما يستحقـون وما أقلّ توقف القيـمة الحقـيقـية لرجل على امتحـانات تم اجتيـازها وفصـول جامعـية . وسرعـان ما ضرب هذا الرأي جذوره في نفسه واستحوذ على ذاكرته ودفعه في بعض الأحيان لأن يحـدث وسط الزمـلاء كيف اختـار بعـد تروّ على غـير رغبـة المعلمين هذه المهنة الأسهل في الظاهر وأنّ هذا كان القرار الأحكم في حياته ولو أنه كلفه أيضاً تضحـية . فـأترابه الذين كـانوا قد بقوا في المدرسـة والذين كـان

يلتقيهم كل يوم في الحارة ومعهم محافظ كتبهم ، أومأ لهم برأسه في تعجرف وكان يفرح حين يراهم يرفعون قبعاتهم أمام معلميهم . في أثناء النهار كان تحت إمرة الكاتب العدل الذي لم يكن يسهّل الأمر على المبتدئين . وفي المساء كان يتمرن على فن تدخين السيجار مع رفاقه وعلى التسكع الطائش في الأزقة ، كما أنه كان يشرب عند الضرورة وسط أقرانه كأس بيرة ، مع أنه كان أولى به أن يحمل مصروفه اليومي الذي استجداه من أمه إلى الحلواني ، مثلما كان يأكل في مكتب التاجر حين كان الآخرون يستمتعون عند وجبة العصر بسندويشة زبدة مع نبيذ فاكهة طازج ، دائماً شيئاً حلواً ، أكان هذا في أيام ضيق خبزة مع مربى فقط أم في أزمان سعة كعكة مدهونة بالشوكولاة أو حلوى باللوز .

في أثناء ذلك كان قد أنهى فترة تدريبه وانتقل في زهو وفخار إلى العاصمة حيث أعجبته الحياة جداً جداً . هنا فقط توصل النشاط الأعلى لطبيعته إلى التفتح الكامل . وفي السابق كان قد أحس بالانجذاب إلى الفنون الجميلة ، وحمل ولعاً بالجمال والمجد ولا جدال فيه أنه عد الآن وسط زملائه وأصدقائه الأصغر سناً أخاً مشهوراً وشخصاً موهوباً اعتبر في مسائل الأنس والذوق هادياً ومرشداً واستشير ، إذ أنه تغنى وهو صغير في مسائل الفن والحب وصفّر وأنشد ورقص . وهكذا تحول منذ ذلك الحين في هذه التمارين الجميلة كلها

إلى مـعلم ، لا بل إنه تعلم إلى ذلك تمارين جـديدة . وقـبل كل شيء كان في حوزته قيثارة رافق بها أغاني وأشعاراً مضحكة ومازحة ولقي في كل حفلة أنس نجاحاً ، وفضلاً عن ذلك نظم هو بين الحين والآخر قصائد على القيثارة ارتجالاً وفق ألحان مشهورة ، ومن غير أن يمسّ كرامة طبـقتـه ومهنتـه عـرف كـيف يلبس بطريقـة دلّت على شيء متـمـيز وعبقري وبصورة خاصة أحاط ربطات عنقه بعقدة حرة أنيقة لم يفلح شخص آخر فيـها كمـا أفلح هو ، وعـرف كيف يسـرح شعـره الخرنوبي الجميل تسريحة نبيلة وحسب أصول اللياقة . فمن رأى ألفريد لاديدل وهو يرقص في مساء أنس وسمر من مساء النادي رقصة Quodlibet ويحـدّث السـيـدات أو يغني متكئاً بظهـره إلى المقـعـد المريح أغـانيـه القصيرة المرحة في نادي فيديليتاز أو يضرب إلى ذلك بإصابعه الرقيقة على قيثارته المعلقة على شريط أخضر ، وكيف توقف من بعد ذلك ورد التصفيق العالي وتابع الضرب بخفوت على الأوتار متأملاً إلى أن طلب الجميع بحرارة أغنية جديدة ، لا بدّ أن يقدّره عالي التقدير ، لا بل أن يحسده . وبما أنه كـان يتمتع عـلاوة على مـرتبه الشـهري البسـيط من البيت بمبلغ مـدّخر محترم كـان في إمكانه أن يمارس به هذه المسـرات الاجتماعية من غير انشغال بال وفعل ذلك بارتياح ومن غير ما مضرة ، مع أنه بقي في عدة أشياء أشبه بطفل رغم مهارته الدنيوية . وبذلك آثر أن يشـرب دائمـاً عـصـيـر التوت شـوكي على الجـعـة وبدلاً من بعض

الوجبات كان يفضل أن يتناول ، إذا ما كان هذا ممكناً ، فنجان شوكولا وبعض القطع الصغيرة من الكعكة لدى الحلواني . فالطامحون والحاسدون من رفاقه الذين لم تخلُ الدنيا منهم بطبيعة الحال سموه لذلك طفلاً ولم يولوه أهمية رغم كل الفنون الجميلة . كان هذا الشيء الوحيد الذي كان يخلق له دائماً ساعات حزن وغم .

لكن مع الأيام انضاف إلى ذلك ظلّ آخر . وبحكم سنّه بدأ السيد لاديدل الشاب يلاحق الفتيات الحسناوات بنظره مفكراً وكان دائماً مغرماً بهذه أو بتلك . على أنّ هذا سرعان ما سبب له ألماً أكثر منه لذة . إذ أنه وعلى حين نما ولعه بالحب هبطت شجاعته وروح المبادرة على هذا الصعيد أكثر وأكثر . ولئن كان راقصاً ممتازاً ، إلا أنّ فنّ المحادثة عنده خذله حين أراد أن يحاول إظهار بعض مشاعره . ولكن بقدر ما كان يتكلم ويغني ثم يتألق بين أصدقائه ، فإنه كان سيطيب له أن يضحي بتصفيقهم وبمجده كله لقاء قبلة من فم فتاة جميلة .

هذا الحياء الذي بدا غير لائق بطبيعته كان مرده صلاح قلبه الذي لم يكن أصدقاؤه يظنون أنه قادر عليه . فهؤلاء كانوا يجدون ، إذا ما أرادت شهوتهم ذلك ، ولعهم بالحب هنا وهناك في علاقات صغيرة مع خادمات وطباخات ، وفي هذا الشأن كان هناك في الأجواء هوى ، إلا أنه لم يكن هناك مجال للحديث عن جوى أو حب مثالي أوعن زواج مقبل . ومن دون هذا كله لم يكن في إمكان لاديدل الشاب أن يتخيل الحب .

وفي هذا قابلته الفتيات بالترحيب من غير أن يجرؤ على أن يلاحظ هذا ، فقد أعجبهنّ وجهه الجميل وفن رقصه وأغانيه ، احببن فيه شهوته الحيية وأحسسن أنّ تحت جماله وثقافته الرقيقة قلباً غير مستهلك وشبه طفولي .

على أنه لم ينل في أثناء ذلك أيّ شيء من هذه الأحاسيس الطيبة ولو أنه ما زال يحظى في نادي فيليديتاز بالإعجاب ، إلا أنّ الظل تعمّق أكثر وصار أكثر إخافة وهدد بأن يجعل حياته شيئاً فشيئاً شبه ظلام . في مثل هذه الأوقات المألوفة انكبّ على عمله بحماسة شديدة وكان بين وقت وآخر مساعداً نموذجياً للكاتب العدل وحضّر في المساء بجد واجتهاد لامتحان الوظيفة ، تارة لكي يدفع بأفكاره إلى سبل أخرى وتارة لكي يصل إلى الموقع المنشود بشكل أسهل وأضمن بحيث يستطيع أن يبرز خاطباً ، لا بل عريساً بحظ طيب . على أنّ هذه الأوقات لم تستمرّ طويلاً لأنّ جلد المقعد والعمل الذهني القاسي لم يكونا مناسبين لطبيعته . فإذا ما فشّ الحماس تناول الشاب القيثارة من جديد وتنزّه برشاقة وشوق في شوارع العاصمة أو كتب قصائد في دفتره الصغير . ومن عهد غير بعيد كانت هذه في معظمها من النوع العاطفي الولهان ، تتألف من كلمات وأبيات وقواف وعبارات جميلة قرأها هنا وهناك في كتب أغان واحتفظ بها . وقد ركّب هذه من غير أن يضيف إليها أشياء أخرى ، وبهذا نشأت فسيفساء نظيفة من تعابير

حب دارجة لشعراء محبوبين . وقد سره أن يبيّض هذه الأبيات القصيرة بخط منمق نظيف ، وكثيراً ما شغله هذا كلياً ساعةً من الوقت عن كربه . وفيما عدا ذلك كان من جوهر طبيعته السعيدة أنه كان يبدأ العزف برحابة صدر في السراء والضراء وكان ينسيه هذا شيئاً مهماً وواقعياً . فالتجهيز اليومي لمظهره الخارجي وحده أصبح تمضية وقت وملء فراغ لا بأس به ، إدخال المشط والفرشاة في الشعر الخرنوبي المتوسط الطول ، والمسح على الشاربين الصغيرين غير الكثين وما اعتاد تدليلهما بأصابعه ، ولفّ عقدة ربطة العنق وتنظيف السترة الدقيق بالفرشاة وتنظيف الأظافر وتهذيبها . وفضلاً عن ذلك شغله مراراً وتكراراً ترتيب أشيائه النفيسة التي حفظها في صندوق صغير من خشب الماهوغاني . وكان من بينها زوجان من أزرار الكم المذهبة وكتيّب مجلّد بمخمل أخضر وعليه العنوان : " لا تنسني !" ، وفيه خلّى أقرب أصدقائه يكتبون أسماءهم وتواريخ ولاداتهم ، ويد ريشة نحتت من عظم أبيض عليها زخارف غوطية دقيقة التخاريم ، وشظية زجاج دقيقة احتوت ، إذا ما نظر المرء إليها في النور ، على تمثال نيدرفالد ، وفضلاً عن ذلك قلب من فضة يستطيع المرء أن يفتحه بمفيتيح صغير جداً ومطواة ليوم الأحد ذات قشر من عاج الفيل وزهر برسية ألبية محفور ، وأخيراً دبوس زينة للبنات محطم به عدة أحجار ثمينة بعضها نافر فكّر المالك أن يطلب إلى أحد ما فيما بعد ، في

مناسبة احتفالية ، أن يحولها له إلى حلية يتركها لنفسه . وبديهي أنه لم يفتقر أيضاً إلى عصيّة تنزه رقيقة رشيقة مثّلت قبضتها رأس كلب سلوقي ، كما أنه لم يفتقر أيضاً إلى مشبك بهيئة قيثارة ذهبية .

ومثلما صان الرجل الشاب تحفه وأشياءه الرائعة وقدّرها فقد حمل معه في صدره بإخلاص وأمانة نار غرامه الخفيفة المتوقدة دائماً وتفحّصها تبعاً للظروف بلذة وحسرة ومنى النفس بوقت يستطيع أن يستخدمها فيه استخداماً ينمّ عن عزة نفس وتسام ويعبّر عنها .

في أثناء ذلك ظهرت بين الزملاء بسمة جديدة لم تعجب لاديدل وهزت شعبيته ومكانته حتى الآن هزاً عنيفاً . فقد بدأ مدرس ما بالجامعة التقنية يلقي محاضرات مسائية في الاقتصاد القومي واظب على حضورها بصورة خاصة موظفو مكتب الكتبة والوظائف الدنيا . فمعارف لاديدل ذهبوا كلهم إلى هناك ، وفي اجتماعاتهم نشبت نقاشات حادة حول الشؤون الاجتماعية والسياسة الداخلية لم يرغب ولم يستطع لاديدل أن يشارك فيها . فقد ملّ وانزعج في أثناء ذلك . وبما أن الروح الجديد شغل زملاءه عن فنونه السابقة وما عادوا يريدونها فقد هبط أكثر وأكثر من عليائه السابقة إلى عتمة غير مشرفة . في البداية ظل يقاوم واصطحب معه إلى البيت كتباً هو وحده وجدها مملة مللاً قاتلاً ، ونحّاها مرة أخرى جانباً وتخلى عن العلم كما تخلى عن الحياة والجد .

في هذا الوقت ، وبما أنه قلّ أن ارتفع رأسه الجميل ، نسي ذات يوم جمعة أن يحلق ذقنه على حين اعتاد هو أن يقوم بذلك دائماً في هذا اليوم وفي يوم الثلاثاء . ولأنه جاوز الشارع الذي يسكن فيه حلاقه فقد دخل في طريق العودة المسائية إلى صالون حلاقة متواضع بالقرب من مطعمه ، كي يستدرك ما فاته ، إذ أنه بالرغم من أن هموماً أثقلته أيضاً ، إلا أنه لم يكن في الإمكان أن يكون غير وفيّ لأية عادة . كما أن ربع الساعة كان دائماً بالنسبة إليه عيداً صغيراً ؛ لم يكن ليعترض حين كان عليه أن ينتظر ، بل كان يجلس من بعد ذلك مبتهجاً على كرسيه ويتصفح في جريدة ويراقب دعايات الصابون المزدانة بالصور ، ودعايات زيوت الشعر ومواد تنظيف الذقن على الجدار ، إلى أن يأتي دوره ويلقي برأسه إلى الوراء بمتعة لكي يحسّ على وجنتيه بأصابع المعاون الحذر وبالموسى البارد وأخيراً بالقطيفة لوضع ذرور التجميل .

الآن أيضا وجّهه المزاج الطيب ، لأنه دخل الحانوت ووضع العصا إلى الحائط وعلّق القبعة ، واستند إلى كرسي الحلاقة الواسع وسمع خشخشة رغوة الصابون العطرة . وقام على خدمته مساعد شاب بكل عناية واهتمام ، حلق له ونظفه ووضع أمامه مرآة اليد البيضوية وجفف له الوجنتين ومرّ فوقهما بقطيفة ذرور التجميل وسأل بأدب :" ألا ترغب بشيء آخر ؟" وبخطوة خفيفة تبع الضيف الذي نهض ، ونظف له ياقة السترة بالفرشاة ، وتلقى نقود الحلاقة التي يستحقها وناوله

العصا والقبعة . هذا كله نقل السيد الشاب إلى مزاج الرضى والطيبة ، وزمّ شفتيه لكي يطأ الشارع بصفير مستعذب ، ولم يكن يرى مساعد الحلاق حتى سمعه يسأل : " المعذرة ، ألست ألفريد لاديدل ؟"

نظر إلى الرجل وعرف فيه على الفور زميله السابق في المدرسة فريتز كلويبر . كان سيعترف الآن في ظروف أخرى بهذا التعرف في قليل من السرور وكان سيحاذر من أن يخالط مساعد حلاق كان سيخجل منه أمام زملائه . هو وحده كان في هذه اللحظة معتدل المزاج ، وفضلاً عن ذلك خفّ إحساسه وزهوه بطبقته في هذا الوقت كثيراً ، ولهذا حدث عن اعتدال مزاج ورغبة في عقد صداقات واعتراف أن مدّ يده إلى الحلاق وصاح : " أبصر من ، فريتز كلويبر ! سنظل نخاطب بعضنا البعض بالكاف ! كيف حالك ؟" تقبل زميل المدرسة اليد الممدودة بسرور ، وبما أنه كان في الخدمة ولم يكن لديه وقت فقد تواعدا على الالتقاء عصر الأحد .

تطلع الحلاق إلى هذه الساعة بسرور شديد ، وكان ممتناً للزميل القديم أن يتذكر صداقتهما المدرسية رغم طبقته الأسمى . كان فريتز كلويبر يكنّ لابن جيرانه ورفيق صفه دائماً وأبداً نوعاً من الاحترام ، لأن ذاك كان يفوقه في كل فنون الحياة ، كما أن مظهر لاديدل الرشيق قد أحدث الآن من جديد في نفسه أثراً أعمق . ولهذا ، وحالما انتهت خدمته ، استعد في يوم الأحد بعناية ودقة لهذه الزيارة وارتدى أحسن

ثيابه . قبل أن يدخل إلى البيت الذي يسكن فيه لاديدل مسح نعليه بجريدة ، ومن ثم صعد السلم فرحاً وطرق الباب الذي رأى عليه بطاقة ألفريد تضيء .

كما أنّ هذا أيضاً حضّر نفسه قليلاً ، لأنه أراد أن يؤثّر في ابن بلده وصديق صباه تأثيراً رائعاً . استقبله بحرارة كبيرة ووضع قهوة ممتازة مع كعك على المائدة التي دعا إليها كلويبر من غير رسميات .

" لا داعي للكلفة ، أيها الصديق الحميم ، أليس كذلك ؟ نشرب قهوتنا معاً ونتنزه بعد ذلك بعد موافقتك ."

مما لا شك فيه أنه ارتاح للأمر ، اتخذ مكانه شاكراً وشرب القهوة وأكل الكعك ، ثم حصل من بعد ذلك على سيجارة وأبدى سروراً خالصاً لهذه الضيافة الجميلة . وسرعان ما تحادثا باللهجة المحلية عن الأزمان الماضية ، عن المعلمين والزملاء التلامذة وعما صار إليه هؤلاء كلهم ، كان على الحلاق أن يروي قليلاً كيف سارت أحواله منذ ذلك الحين وعن الأماكن التي جابها ، ثم ابتدأ الآخر يحكي باسهاب عن حياته وعما ينتظر ويتوقع . وفي النهاية تناول قيثارته من على الحائط ، دوزنها ونقر عليها وأخذ يغني وغنى أغنية تلو الأخرى ، لم تكن إلا أشياء مضحكة اغرورقت لها من الضحك عينا الحلاق بالدموع . وتخليا عن التنزه وشاهدا بدلاً من ذلك بعض نفائس لاديدل ، وانتقلا إلى الحديث عما تخيله كل منهما تحت معيشة ناعمة . في الواقع أن

مطالب الحلاق في السعادة كانت هنا أشد تواضعاً من مطالب صديقه بكثير ، ولكن في النهاية لعب من غير قصد ورقة رابحة اكتسب بها احترامه وحسده . إذ أنه حدّث بأن له خطيبة في المدينة ، ودعا الصديق إلى أن يذهب معه ذات مرة إلى البيت حيث سيكون على الرحب والسعة .

" هيه ، انظر " ، صاح لاديدل ، " عندك خطيبة ! للأسف لم أصل بعد إلى هذا الحد . أتعرفان متى ستتمكنان من الزواج ؟"

" ليس مؤكداً بعد كل التأكد ، لكننا لن ننتظر أبداً أكثر من سنتين ، فنحن مخطوبان منذ أكثر من سنة : سأرث إرثاً من أمي بقيمة ثلاثة آلاف مارك ، وإذا ما اجتهدت وجددت علاوة على ذلك سنة أو سنتين ووفرت شيئاً ما استطعنا أن نفتح محلاً خاصاً . وأعرف أيضاً أين ، أي في شافهاوزن في سويسرا ، حيث عملت سنتين ، والمعلم يحبني وهو مسن وقد كتب إلي منذ عهد قريب . عندما أكون على أتم استعداد فإنه يود أن يتنازل لي عن أشيائه ، وليست بغالية جداً . أعرف هذا المحل جيداً من ذلك الوقت ، ويتقدم بسرعة وهو قريب من فندق حيث يأتي غرباء كثر ، وفضلاً عن المحل فهناك تجارة ببطاقات مصورة ."

دس يده في الجيب الداخلي لسترته البنية وسحب محفظة . كان قد جلب فيها رسالة المعلم من شافهاوزن وبطاقة مصورة في ورقة حريرية أراها لصديقه .

" واه ، شلالات الراين ! " صاح ألفريد ، وشاهدا الصورة معاً . كانت شلالات الراين في إضاءة أرجوانية زرقاء بنغالية ، ووصف الحلاق كل شيء ، وعرف كل بقعة فيها وتحدث عنها وعن الغرباء الكثيرين الذين يزورون آية الطبيعة ، ثم تطرق من جديد إلى معلمه ومحله وقرأ رسالته وكان ممتلئاً حماسة وسروراً بحيث إن رفيقه أراد في النهاية أن يقول شيئاً من جديد وأن يحوز على الاحترام ، ولهذا بدأ يتحدث عن تمثال نيدرفالد الذي لم يره هو نفسه ، إنما رآه عمّ له ، وفتح صندوق كنزه وأخرج يد الريشة المؤلفة من العظام وترك الصديق ينظر من خلال الزجاج الصغير الذي أخفى البهاء والروعة ، واعترف فريتز كلويبر برحابة صدر أنّ هذه لا تقل جمالاً عن شلاله الأحمر ، وترك الكلام مرة ثانية للآخر الذي استفسر الآن عن حرفة ضيفه . ونشط الحديث ، واستطاع لاديدل أن يسأل دائماً عن شيء جديد ، وأجاب كلويبر بدقة وأمانة . تناول الحديث شحذ موسى الحلاقة وحركات اليد عند قص الشعر ودهان الشعروالزيوت ، وبهذه المناسبة تناول فريتز من جيبه علبة خزف صغيرة ، بها دهان شعر لطيف قدمها لصديقه ومضيفه هدية متواضعة . وبعد شيء من التردد قبل هذا الهدية ، وفتحت العلبة وتم شمها وجرّبت قليلاً ووضعت أخيراً على منضدة الاغتسال .

في أثناء ذلك حل المساء ، وأراد فريتز أن يتناول الطعام عند

خطيبته وودعه ، ليس من دون أن يشكره الشكر الخالص على الشيء الذي استمتع به . كما أن ألفريد وجد أنه كان عصراً جميلاً انقضى خير انقضاء ، واتفقا على أن يلتقيا مرة أخرى في مساء الثلاثاء أو الأربعاء .

الفصل الثاني

في أثناء ذلك خطر ببال فريتز كلوبير أن يرد للاديدل دعوة يوم الأحد والقهوة بمثلها وأن يكرمه أيضاً من جديد . ولهذا كتب له يوم الإثنين رسالة بحافة ذهبيه وحمامة ملصقة في ورقة ودعاه إلى أن يتناول الطعام عند خطيبته الآنسة ميتا فيبر في زقاق هيرش .

عني ألفريد لاديدل بالاستعداد لهذا المساء . استفسر عن الآنسة ميتا فيبر وسمع أنها تنحدر إلى جانب أخت عازبة أيضاً من فيبر كاتب مكتب مات منذ زمن ، إذاً كانت ابنة موظف بحيث إنه استطاع أن يكون ضيفها بشرف . هذا الاعتبار والتفكير أيضاً بالأخت التي ما زالت عازبة دفعاه إلى أن يتزين بصورة خاصة وأن يفكر قليلاً بالمحادثة .

ظهر جاهزاً أحسن تجهيز نحو الساعة الثامنة في زقاق هيرش وكان قد وجد البيت بسرعة ، إلا أنه لم يدخل ، بل راح جيئة وذهاباً في الزقاق إلى أن أقبل صديقه كلويبر بعد ربع ساعة . وانضم إلى هذا ، وصعدا ، كل منهما وراء الآخر ، إلى بيت العذراوين ذي الموقع العالي .

وعند الباب الزجاجي استقبلتهما الأرملة فيبر ، سيدة قصيرة حيية ذات وجه شائخ مهموم متألم بدا لمرشح الكاتب العدل أنه يبشّر بقليل من الفرح والمرح . حيا وتم التعريف به وقيد إلى الممشى الذي كان معتماً وتفوح فيه رائحة المطبخ . ومن هناك إلى حجرة كانت كبيرة ومضاءة وبهيجة إلى الحد الذي ما كان ليتوقعه المرء ، ومن ناحية النافذة حيث تألقت زهور الغيرانيون في ضوء المساء تألقاً عميقاً مثل نوافذ الكنيسة . تقدمت ابنتا الأرملة هاشتين باشتين ، كانت هاتان أيضاً مفاجآت سارة وتجاوزتا أفضل ما يمكن توقعه من السيدة المسنة القصيرة بشيء مهم .

" حياك الله " ، قالت إحداهما وصافحت الحلاق .

قال للاديدل : " خطيبتي " ، واقترب هذا من الفتاة الجميلة بانحناءة لا غبار عليها وسحب اليد المخبأة وراء الظهر وقدّم للعذراء باقة من السوسن اشتراها في طريقه . ضحكت وشكرت ودفعت أختها إلى قدّام ، وضحكت هذه أيضاً وكانت جميلة وشقراء وكان اسمها مارتا . ثم جلسوا من غير إبطاء إلى السفرة المحدودة لتناول الشاي وأكلة بيض مكللة بسلطة رشاد . وفي أثناء الوجبة لم ينطق أحد بكلمة تقريباً . جلس فريتز بجانب الخطيبة التي دهنت له الخبز بالزبدة ، ونظرت الأم العجوز بمشقة حولها وهي تمضغ ، بالنظرة غير المتغيرة التي تفيض غماً ، والتي كان وراءها خير وعافية لها ، إلا أنها أثّرت في لاديدل تأثيراً

مزعجاً مقلقاً بحيث إنه أكل القليل وتصرف تصرّف الهادىء المنقبض القلب .

ولئن بقيت الأم بعد الطعام في الغرفة ، إلا أنها اختفت في كرسي هزاز عند النافذة كانت قد أسدلت ستائرها قبل ذلك وبدت أنها غفت . ومقابل ذلك تفتح الشباب في غبطة ، والفتاتان ورطتا الضيف في حديث مداعب مشاكس على حين آزر فريتز صديقه في ذلك . ومن على الجدار نظر المغفور له السيد فيبر إلى تحت من داخل إطار مصنوع من خشب الكرز ، وما عدا صورته كان كل شيء في الغرفة جميلاً ومرحاً بدءاً من زهور الغيرانيون المنطفئة في الغسق مروراً بثياب الآنستين والكراسي الصغيرة وحتى آلة ماندولين معلقة على الحائط الضيق . وعلى هذه وقع نظر الضيف حين بدأ الحديث يثيره . ونظر بحدة إلى تلك الناحية وتهرّب من جواب مطلوب سبب له عناءً وضيقاً على حين استفسر عمن هي موسيقية وتعزف على الماندولين وبقي هذا عالقاً بمارتا ، وسخر منها على الفور كل من الأخت والصهر لأن الماندولين لم تعد تصدر عنها نغمة تقريباً من أيام حماسة المراهقة التي ذرتها الرياح منذ زمن طويل . ومع هذا أصرّ السيد لاديدل على أن تعزف مارتا شيئاً مهماً واعترف بأنه عاشق عنيد للموسيقا . وبما أنه لم يكن في الإمكان تحريك الآنسة فإنّ ميتا أمسكت أخيراً بالآلة ووضعتها أمامها ، وبما أنها ضحكت رافضة واحمرّت فقد أخذ لاديدل

آلة الماندولين وعزف عليها في خفوت خبط عشواء بأصابع فاحصة .

صاحت مارتا :" يا سلام ، وتستطيع العزف . سامحك الله ، فأنت تحرج ناساً آخرين وأنت نفسك تستطيع ذلك على نحو أفضل ."

أوضح بتواضع أن الأمر ليس كذلك ، وما سبق له أن أمسك شيئاً كهذا ، بل على العكس إنه يعزف منذ عدة سنوات على القيثارة .

صاح فريتز : " أجل ، وعليكم الآن أن تستمعوا إليه ! لماذا لم تجلب الآلة معك ؟ عليك أن تقوم بذلك المرة القادمة ، أليس كذلك ؟"

مضى المساء سريعاً جداً . وحين ودع كلا الشابين نهضت الأم المنسية عند النافذة صغيرة ومهمومة وتمنت ليلة سعيدة . تابع فريتز المشي عدة أزقة مع لاديدل الذي كان مفعماً بالمسرة والمديح .

في بيت فيبر الذي بات هادئاً أزيل كل شيء عن المائدة وأطفئ الضوء إثر انصراف الضيفين . وفي غرفة النوم لزمت كلتا الفتاتين الهدوء كما جرت العادة إلى أن نامت الأم . ومن ثم بدأت مارتا الحديث هامسة في البداية :

" أين وضعت سوسناتك ؟"

" لقد رأيت ، إنها في الكأس على الموقد !"

" أجل ، طابت ليلتك !"

" أجل ، هل أنت متعبة ؟"

" قليلاً ."

" كيف أعجبك الكاتب العدل ؟ مدلل قليلاً ، أليس كذلك ؟"

" لماذا ؟"

" كان عليّ أن أفكر دائماً أن فريتز كان ينبغي أن يصير كاتب عدل وأن يصير الآخر نظير ذلك حلاقاً . ألا تجدين هذا أيضاً ! ففيه شيء حلو ."

" أجل ، القليل منه . إلا أنه لطيف وعنده ذوق . هل رأيت ربطة عنقه ؟"

" طبعاً ."

" ومن بعد ، هل تعرفين أن فيه شيئاً صالحاً . في البداية كان حييّاً خجولاً ."

" إنه بعد في العشرين من عمره . إذاً ، طابت ليلتك ."

بقيت مارتا تفكر بألفريد لاديدل برهة إلى أن نامت . كان قد أعجبها ، وتركت حجرة صغيرة في قلبها مفتوحة للشاب الجميل ، في حال أنه رغب ذات يوم في أن يدخل إليها ويكون جاداً . إذ أنه لم يكن يهمها الحب العابر ، وليس إلا الحب العابر ، تارة لأنها كانت قد فرغت منذ أزمان من هذه المدرسة الإعدادية (من حيث لاتزال الماندولين تثير) ، وتارة لأنه لم تكن لديها الرغبة في أن تخطر إلى زمن غير قصير غير مخطوبة إلى جانب أختها ميتا الأصغر منها بسنة .

كما أن المرشح الكاتب العدل لم يبق قلبه جامداً . حقاً أنه مازال

يعيش في التعطش الخانق إلى الحب ، تعطش شخص لم يصبح مستقلاً وقادراً على الزواج بعد ، وعشق كل بنية حلوة وقعت عيناه عليها ، والحق أن ميتا أعجبته أكثر . على أن هذه كانت خطيبة فريتز ولا يمكن نوالها على الإطلاق ، واستطاعت مارتا أن تظهرأيضاً إلى جانب تلك ، ولهذا كان قلب ألفريد قد انزلق في مستهل المساء أكثر وأكثر إلى ناحيتها وذهب بصورتها مع الاكليل الناصع الثقيل من جدائل شقراء في إجلال غير محدد .

في مثل هذه الظروف لم يمض إلا وقت قصير حتى اجتمعت الجماعة الصغيرة في غرفة الجلوس المسائية ، إلا أنه في هذه المرة كان الشابان قد جاءا فيما بعد ، لأن مائدة الأرملة كانت ستعجز عن استضافة ضيوف متكررة إلى هذا الحد . ولقاء ذلك أحضر لاديدل معه القيثارة التي حملها له فريتز بزهو وافتخار . وكان في وسع الموسيقي أن يعمل حسابه بحيث إن فنه وإن ظهر وأثار فيضاً من التصفيق ، إلا أنه لم يبق وحيداً وتحمل النفقات كلها . إذ أنه بعد أن أنشد بعض الأغاني وعرض في إيجاز فن غنائه وعزفه ، استدرج الآخرين إلى العزف وترنم بأنغام فقط أغرت لدى أول إيقاع إلى المشاركة في الغناء تلقائياً .

فالخطيبان ، وقد سرى فيهما دفء وخدر من جراء الموسيقا والجو الاحتفالي ، اقتربا من بعضهما بعضاً وشاركا في الغناء وبصوت هامس

فقط وبمقاطع مقاطع ، وقد تخللها حديث ومداعبة متبادلة بأصابع خفية ، على حين جلست مارتا قبالة العازف وراقبته وغنت معه كل الأبيات بمرح وفرح . وعند الوداع في الممشى المضاء إضاءة رديئة وحين تبادل الخطيبان قبلاتهما وقف الآخران هناك دقيقة من الزمن منتظرين في حيرة وارتباك . وفي الفراش ساقت ميتا الحديث بعد ذلك مرة أخرى إلى الكاتب العدل ، كما سمته دائماً ، وهذه المرة بثناء تام ، على أن الأخت اكتفت بأن قالت ،أجل ، أجل ، وألقت برأسها الأشقر بين يديها واستلقت وقتاً غير قصير هادئة يقظة وهي تنظر في الظلام وتتنفس تنفساً عميقاً . فيما بعد ، وحين نامت الأخت صعّدت مارتا تنهدة طويلة خافتة ، لم يكن المقصود بها أي ألم راهن ، بل كانت وليدة شعور غامض بأن آمال الحب كلها غير مضمونة ولم تكررها . الأرجح أن النوم ما لبث أن وافاها إثر ذلك وعلى فمها النظيف ابتسامة .

نمت العلاقة نمواً بهيجاً ، وبفخر سمّى فريتز كلويبر ألفريد الأنيق صديقه . ورحبت ميتا بألا يأتي خطيبها وحده ، بل أن يصحب الموسيقي معه ، وازداد حبّ مارتا للضيف كلما ازدادت معرفة ببراءته التي تشبه براءة الأطفال . فقد بدا لها أن هذا الشاب الجميل السهل الانقياد ربما خلق ليكون رجلها الذي سيكون في إمكانها أن تظهر معه وتكون فخورة تياهة به من دون أن تضطر إلى أن تتخلى له عن السلطات جميعها .

كما أن ألفريد الذي طابت نفسه جداً باستقباله عند آل فيبر أحس حرارة في ودّ مارتا عرف كيف يقدرها رغم حيائه وخجله . وقد خيل إليه أن علاقة غرامية وخطبة فتاة جميلة لها اعتبارها ليستا أمراً مستحيلاً في ساعات تتطلب جرأة ، إلا أنهما في كل الأوقات أمران مرغوب بهما ومغريان .

ومع هذا لم يحدث من كلا الطرفين أي شيء حاسم ، وكان لهذا بعض الأسباب : ففي المقام الأول كانت مارتا قد اكتشفت في الرجل الشاب من المعاشرة الأطول شيئاً من عدم النضج وطبع الشباب ووجدت من الحكمة ألا تسهل لشاب مازال غير مجرب الطريق إلى السعادة على نحو مبالغ فيه كثيراً . ورأت أنه قد يكون سهلاً عليها أن تجتذبه إليها وتمسك به ، إلا أنه بدا لها رخيصاً أن السيد الشاب لن يجد الأمر سهلاً للغاية وأنه في النهاية لن يدخل في روعه أنها ارتمت عليه . ومع كل هذا كانت مشيئتها أن تظفر به وقررت أن تراقبه مؤقتاً وأن تنتظر التوقيت باستعداد لأنه سيكون جديراً بسعادته وحظه .

كانت لدى لاديدل شكوك أخرى انعقد لها لسانه . بادئ ذي بدء كان هناك حياؤه الذي حمله المرة تلو المرة على أن يظن الظنون بملاحظاته وأن يشك بالتصور أنه سيكون معشوقاً ومشتهى . ومن ثم أحس بنفسه أنه صغير السن تجاه الفتاة وغير ناضج وليس بغير حق ، مع أنها لا يمكن أن تكبره بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات . وأخيراً

اعتبرفي ساعات جادة بجزع وقلق على أي أساس غير ثابت كان وجوده الظاهري مبنياً . وكلما اقتربت السنة التي كان عليه أن ينهي فيها عمله الثانوي حتى الآن ويظهر في امتحان الدولة أهليته وعلمه كلما اشتد شكه إلحاحاً . الحق أنه كان قد تعلم التمارين الجميلة الصغيرة كلها ومظاهر الوظيفة على نحو سريع وأكيد وكان مظهره في المكتب جميلاً ومثّل دور الكاتب المشغول تمثيلاً رائعاً ، على أن دراسة القوانين صعبت عليه وحين فكر بكل ما كان مطلوباً في الامتحان ، تصبب عرقاً .

وفي بعض الأحيان حبس نفسه يائساً في غرفته وقرر أن يقتحم جبل العلم الشديد التحدر . كان على طاولته ملخصات ومدونات قوانين وتعليقات ، كان ينهض في الصباح الباكر ويجلس مرتعداً من البرد ، ويبري أقلاماً ويضع مسبقاً خطط عمل دقيقة لأسابيع . على أن إرادته كانت ضعيفة ، فلم يتحمل قط طويلاً ، كان يجد دائماً شيئاً آخر ليعمله ، شيئاً بدا إذ ذاك أكثر ضرورة وأهمية ؛ وكلما طال بقاء الكتب في مكانها وطال نظرها إليه اشتد محتواها مرارة .

في أثناء ذلك توطدت روابط الصداقة بينه وبين فريتز كلويبر أكثر فأكثر . وحدث في بعض الأحيان أن جاء إليه فريتز في المساء وكان إذا ما بدا الأمر ضرورياً ، يعرض عليه أن يحلق له . وفي أثناء ذلك خطر ببال ألفريد أن يجرب هو نفسه هذا الشغل ، وبكل سرور استجاب

فريتز لذلك . وبطريقته الجادة المحترمة تقريباً أرى الصديق الموقر حركات اليد وعلّمه سنّ موسى الحلاقة بطريقة لا غبار عليها وعلّمه خفق رغوة صابون جيدة تبقى طويلاً . وأظهر ألفريد ، كما كان قد تنبأ الآخر ، أنه نجيب وخفيف اليد . وسرعان ما استطاع أن يحلق بسرعة ومن غير أخطاء لا لنفسه فحسب ، بل أن يقوم بهذه الخدمة تجاه صديقه ومعلمه ، ووجد في ذلك مسرة ظلت تضفي ألواناً وردية على بعض أيامه التي جعلتها الدراسة مريرة طوال النهار . ووجد متعة غير متوقعة حين أطلعه فريتز على تضفير الشعر وسرعان ما تأتى له ذلك ، ثم جاءه فريتز بأعمال أصعب وأدق ، وتعلم ألفريد بسهولة ويسر وأدخل أصابعه في الشعر الحريري الطويل بطريقة تنم عن ذوق وتعمق لإي أنواع التضفير وأساليب التسريحات ، وسرعان ما طلب أن يريه أيضاً تجعيد الشعر بمكواة الشعر وكانت له في كل لقاء مع الصديق أحاديث طويلة وأشياء لها علاقتها بالاختصاص . وراح الآن ينظر إلى تسريحات النساء كلهن والفتيات اللواتي كان يلتقيهن ، بنظرة فاحصة متعلمة وفاجأ كلويبر ببعض أحكامه الصائبة .

هنا رجاه المرة تلو المرة ملحاً ألا يقول لكلتا الآنستين فيبر أي شيء عن تمضية الوقت هذه . وأحس أنه سيلاقي هناك بفنه الجديد هذا القليل من التكريم والتبجيل . ومع ذلك كان حلمه المفضل ورغبة فؤاده الخفية أن يمسك بيديه ذات مرة شعر العذراء مارتا الأشقر المسترسل

وأن يضفر لها ضفائر جديدة صنعت بمهارة بالغة .

ومرت على ذلك أيام الصيف وأسابيعه . كان هذا في أواخر أيام آب لما شارك لاديدل في نزهة قامت بها أسرة فيبر . فقد ساروا في وادي النهر صعوداً إلى آثار القلعة واستراحوا من المشي في ظلها على مرج جبلي منحدر . كانت مارتا قد تعاملت في هذا اليوم مع ألفريد على نحو لطيف بصورة خاصة وبالغة الود ، وها هي الآن قد استلقت بجانبه على المنحدر الأخضر ورتبت باقة من زهور الحقل المتأخرة وأضافت إليها بعض زهرات العشب الفضية المرتعشة وبدت حلوة وجذابة جداً بحيث إن ألفريد لم يستطع أن يصرف نظره عنها . هنا لاحظ أن شيئاً ما ظهر على تسريحتها ، اقترب منها وقال ذلك ، وفي الوقت نفسه جرؤ ، فمد يديه إلى ضفائرها الشقراء وعرض ان يرتبها لها . أما مارتا التي لم تعتد منه مثل هذا التقرب احمرّت وغضبت ، ردته بسرعة وطلبت من أختها أن ترفع الشعر وتثبته بالدبوس . صمت ألفريد محزوناً ومجروحاً بعض الشيء وخجل ورفض فيما بعد الدعوة بأن يتناول الطعام عند السيدة فيبر ، بل إنه بعد العودة إلى المدينة مشى في حال سبيله .

كان هذا أول جفوة بين العاشقين نصف عشق ، وكان يمكن أن تفيد بأن تعزز قضيتهما وتحركها . إلا أن الأمور سارت على عكس ذلك ، وحالت أمور أخرى بينهما .

الفصل الثالث

لم تكن تقصد مارتا بعتابها سوءاً ودهشت حين لاحظت أن ألفريد تجنب بيتهم أسبوعاً وأطول ، آلمها قليلاً ، وتمنت أن تراه ثانية . ولكن حين تخلف ثمانية أوعشرة أيام وبدا أنه ساخط فعلاً فكرت بأنها لم تعترفْ له قط بالحق بسلوك مماثل لسلوك العشاق . هنا أخذت هي نفسها تغضب . لو أنه جاء ثانية ومثل دور الشخص الذي تمت مصالحته لرغبت في أن تبين له كم أخطأ هو .

في أثناء ذلك كانت هي على خطأ ، إذ أن السبب في تغيّب ألفريد لم يكن العناد ، بل الخجل والخوف من قسوة مارتا . أراد أن يمضي بعض الوقت إلى أن تغفر له صفاقته آنذاك وأن ينسى هو نفسه غباءه ويتغلب على خجله . وفي هذه الفترة ، فترة الكفارة ، أحس بوضوح كم تعود هو مخالطة مارتا وكم سيشق عليه هو أن يتخلى ثانية عن القرب الدافئ لفتاة عزيزة . لم يتحمل هذا بأطول من منتصف الأسبوع الثاني فحلق ذات يوم بدقة وعناية ، ولفّ ربطة جديدة وزار آل فيبر ، وهذه المرة من غير فريتس الذي لم يرغب في أن يجعله شاهداً على خجله .

ولكي لا يظهر بيدين فارغتين وبصفة متسول فقط ، ابتدع خطة . في الأسبوع الأخير من أيلول أقيمت مباراة إطلاق نار احتفالية كبيرة استعدت لها المدينة كلها بحماسة . ونوى ألفريد لاديدل أن يدعو كلتا الآنستين فيبر إلى هذه التسلية وأمل في أن يكون له في ذلك حجة

مقبولة لزيارته وأن يلاقي أيضاً القبول عند مارتا .

إن استقبالاً ودياً كان سيواسي العاشق الذي سئم وحدته منذ ايام وكان سيجعل منه خادماً أميناً . على أن مارتا التي كان قد جرحها تغيبه ، فقد تصنعت القسوة والصرامة . لم تحيّي إلا بالجهد حين دخل الحجرة وتركت لأختها الاستقبال والحديث ومشت وهي مشغولة بمسح الغبار ، في الغرفة جيئة وذهاباً كأنها وحدها . انكمش لاديذل في ذعر ، وبما أن حديثه المضطرب مع ميتا قد نضب ، فإنه لم يجرؤ إلا بعد حين على أن يخاطب الغضبى ويتقدم بدعوته .

أما هذه فكان من الصعب الإمساك بها . فاستسلام ألفريد الخاشع لم يقوّ إلا قرارها بأن تحاسب هذا الولد هذه المرة حساباً عسيراً وأن تقلّم له أظافره . فقد أصغت ببرود ورفضت الدعوة بحجة أنه ليس من حقها أن تؤمّ حفلات مع أسياد شباب ، وفيما يتعلق بأختها ، فإن هذه مخطوبة ، والمسألة هي مسألة خطيبها ليدعوها إذا كانت لديه الرغبة في ذلك .

هنا تناول لاديدل قبعته وانحنى انحناءة قصيرة وانصرف مثل رجل أحزنه أنه أخطأ في دق الباب ، ولا ينوي أن يعود ثانية . الحق أن ميتا حاولت أن تستبقيه وأن تقنعه ، على أن مارتا كانت قد ردت على انحناءته مومئة بفتور ، ولم يشعر ألفريد بشيء إلا أنها أشارت بالنفي للأبد .

إن الفكرة أنه أظهر مروءة وكبرياء في هذه القضية منحته قليلاً

من العزاء . على أن السخط والحزن طغيا وسار إلى البيت مكشّراً ، وحين أراد فريتز كلويبر أن يزوره في المساء تركه يقرع على الباب ويمضي ثانية من دون أن يظهر نفسه . نظرت إليه الكتب محذّرة ، والقيثارة كانت معلقة على الحائط ، إلا أنه ترك كل شيء ملقى ومعلقاً ، خرج وتسكع في المساء في الأزقة إلى أن تعب . في أثناء ذلك خطر بباله كل ما سمع من أشياء مزعجةعن زيف النساء وتقلّبهن وما كان قد ظهر له سابقاً بمظهر هراء فارغ حاسد . الآن أدرك كل شيء ووجد أيضاً أشد الكلام مرارة صائباً .

مضت عدة أيام ، وأمل ألفريد دائماً ، على غير كبريائه وإرادته ، بأن يحدث شيء ما بأن يأتي كتاب أو نبأ عن طريق فريتز ، إذ أنه بعد أن تم هدر السخط الأول بدت له المصالحة غير مستبعدة ، والتفت قلبه إلى الفتاة الغضبى متجاوزاً كل الأسباب . على أنه لم يحدث أي شيء ، وما من أحد جاء . أما حفلة الرماة الكبيرة فقد كانت قاب قوسين أو أدنى ، وسواء أعجبت لاديدل المحزون أم لا ، فقد كان عليه أن يرى ويسمع كل يوم كيف كان كل واحد يستعد ليحتفل بالأيام المشرقة . لقد أقيمت أشجار وضفرت أكاليل ، وزينت بيوت بغصون التنوب وازدانت أقواس البوابات بكتابات ونقوش ، وكانت صالة الاحتفال عند المرجة جاهزة وتركت الرايات تخفق ، وإلى ذلك فتح الخريف أجمل ما عنده من زرقة .

ومع أن لاديدل كان قد انتظر الحفل بسرور أسابيع وأسابيع ومع أن يوم عطلة أو يومين كانا ينتظرانه هو وزملاءه ، فإنه أعرض عن الفرح بعنف وعقد النية على ألا يرى الاحتفالات بأي عين . بمرارة رأى رايات وأكاليل ، وسمع هنا وهناك وراء نوافذ مفتوحة الجوقات الموسيقية تقوم بالتمارين والفتيات يغنين أثناء العمل ، وكلما جلجلت المدينة ودوّت من الانتظار والسرور بشيء مقبل ، سار أكثر عدوانية في سبيله المظلم وسط هرج ومرج الجموع الصاخبة ، وقلبه مليء بزهد شديد . في مكتب الكتبة لم يتحدث الزملاء منذ مدة عن شيء آخر إلا عن الحفل ووضعوا خططاً حول كيفية الابتهاج بالروعة بمهارة وعناية . وفي بعض الأحيان تأتى للاديدل أن يمثل دور القليل الارتباك وأن يتصرف لكأنه سرّ هو أيضاً ولديه مقاصده وخططه ، ولكن في كثير من الأحيان كان يجلس صامتاً ويظهر نشاطاً وحشياً . وفي أثناء هذا كانت روحه تحترق لا بسبب مارتا والزعل معها فحسب ، بل أكثر وأكثر بسبب الاحتفال الكبير الذي انتظره طويلاً وبسرور والذي لم ينله منه أي شيء .

ومات آخر أمل له حين قصده كلوبير ، قبل بداية الحفل بعدة أيام . كان هذا مكفهر الوجه وحكى أنه لا يعرف ما الذي صعد إلى رأسي الفتاتين وأوضحتا أنهما رفضتا دعوته للاحتفال وأنهما في علاقتهما لا يمكن للمرء أن يشارك في أي قصف ولهو . واقترح على ألفريد أن يصنعا معاً لأنفسهما أعياداً سعيدة ، وإن الفتاتين المعرضتين

الصادتين ستقعان في شر أعمالهما إذا ما صرف من دونهما هذا التالر (عملة قديمة!) وذاك . على أن لاديدل عارض أيضاً هذا الإغراء . شكر بلطف ، إلا أنه أوضح أنه ليس بخير وأنه يريد أن يستغل الفراغ أيضاً لكي يتقدم في دراساته . وعن هذه الدراسات حدّث صديقه فيما مضى الكثير الكثير بحيث إن فريتز لم يتجرأ في احترام عميق على الاعتراض وعاد من حيث أتى حزيناً .

في أثناء ذلك أقبل اليوم الذي سيفتتح فيه حفل الرماة . كان الوقت يوم الأحد ، وكان الحفل سيستغرق أسبوعاً كاملاً . وتردد في المدينة صدى الأغاني وموسيقا الفرقة النحاسية والرمي بالمدافع الصغيرة وصيحات الفرح ، ومن الشوارع كلها جاءت وتجمعت مواكب ، وكانت قد وصلت اتحادات من كل أنحاء الإقليم . ودوت الموسيقا في كل مكان ، سيول من البشر وأنغام جوقات الموسيقا التقت كلها في النهاية أمام المدينة عند بيت الرماة حيث وقف الجمهور منذ الصباح آلافاً مؤلفة منتظراً . احتشد الموكب في تدفق كثيف ، واهتزت الأعلام ثقيلة من فوق وانتصبت ، ولوحت فرقة موسيقية تلو الأخرى مرحة مبتهجة على المكان الضخم . وعلى هذا البهاء كله شعت شمس الأحد صافية مشرقة . وحملة الأعلام تقطرت جباههم المتوردة قطرات كثيفة ، ومنظمو الحفل صرخوا بأصوات مبحوحة وجروا في الأنحاء مثل ممسوسين ، وقد عابثتهم الجموع بالمزاح وشجعتهم الهتافات ؛ فمن

كان في القرب وكان له حق الدخول انتهز الفرصة لأن ينتزع في هذه الساعة المبكرة شراباً منعشاً عند صالات الاحتفال المجهزة أحسن تجهيز .

جلس لاديدل في غرفته على السرير ولم يكن قد لبس بعد حذاءه ، وبدا أن السرور لايهمه كثيراً . ونوى الآن ، بعد تفكير ليلي طويل مجهد ، أن يكتب رسالة إلى مارتا . وتناول من درج طاولته أدوات الكتابة وظرفاً عليه الحروف الأولى للاسم منقوشاً ، وأدخل ريشة جديدة في العود وبلّلها باللسان وفحص الحبر ثم كتب بخط واضح منمّق سميك متباعد برشاقة قبل كل شيء العنوان ، إلى يد الآنسة المحترمة مارتا فيبر في زقاق هيرش . وفي أثناء ذلك أشجاه العزف بالأبواق المدوي من بعيد وصخب الاحتفال ، واستحسن أن يبدأ رسالته بوصفه لهذا الجو . وهكذا استهلّ ديباجته :

" الآنسة المحترمة!

اسمحي لي أن أتوجه إليك . إنه صباح الأحد ، والموسيقا تعزف من بعيد ، لأن حفل الرماة قد بدأ . أنا وحدي لا أستطيع المشاركة في الحفل نفسه وباقٍ في البيت ."

أعاد قراءة الأسطر ، كان سعيداً وتابع تفكيره . هنا خطرت بباله بعض العبارات الجميلة المناسبة التي استطاع أن يصف بها حالة حزنه . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ لقد اتضح له أن هذا كله لا يمكن أن يكون له قيمته ومعناه إلا بقدر ما تكون المقدمة لاعتراف بالحب وطلب

اليد . وأنّى له أن يجرؤ على ذلك ؟ فما فكر فيه ورآه هو أن هذا كله لم يكن له أية قيمة طالما أنه لم يؤدّ الامتحان وبذلك لم يكن له الحق في طلب اليد والخطبة .

عاود الجلوس متردداً ويائساً . مضت ساعة ، ولم يتقدم . كان البيت كله يغرق في هدوء عميق ، لأنّ الجميع كانوا في الخارج ، ومن فوق السطوح هللت الموسيقا البعيدة . استرسل لاديدل في كآبته وفكر في ما ضاع منه اليوم من مسرات وملذات وأنّ الفرصة قد لا تتاح له أبداً مرة ثانية لزمن طويل بحيث يرى احتفالاً كبيراً مثل هذا ورائعاً إلى هذه الدرجة . وعلى هذا انتابته شفقة على نفسه وحاجة إلى العزاء لا يمكن التغلب عليها ، حاجة لا تستطيع القيثارة أن تسدّ مسدّها .

وعلى هذا قام حوالي الظهر بالشيء الذي لم يشأ القيام به . فقد لبس حذاءه وغادر البيت ، وبينا كان ينوي أن يتمشى جيئة وذهاباً ويريد العودة إلى البيت بعد قليل ويفكر بالرسالة ومعاناته اجتذبته الموسيقا والضجيج وسحر الحفل من زقاق إلى زقاق مثلما يجذب جبل المغناطيس سفينة ما ، وبغتة وجد نفسه عند بيت الرماة . هنا أفاق وخجل من ضعفه واعتقد أنه فضح حزنه ، إلا أنّ هذا لم يدم إلا لحظات ، إذ أنّ الجموع اندفعت وهدرت هديراً مسكراً ، ولم يكن لاديدل الرجل ليبقى صامداً في هذا التهليل أو يعود أدراجه .

راح لاديدل يضرب على وجهه من غير إرادة ومن غير هدف ،

منساقاً من قبل الجموع ، رأى وسمع وشمّ وتنفس الشيء الكثير مما هو مثير بحيث إنّ رأسه دار دوراناً مستعذباً ، وانبعثت من أبواق موسيقا حماسية هدرت هنا وهناك وفي كل مكان ، وفي أثناء الوقفات وحين بدأ تناول الطعام نفذت من بعيد بطريقة ملحة حلوة موسيقا أرق كان مصدرها قيثارات ونايات . وفضلاً عن ذلك حدث في جموع الجماهير كثير مما هو غريب ومسلٍ ومخيف ، فقد جفلت الخيول وخرّ أطفال وصرخوا ، وغنى سكران سكر قبل أوانه أغنيته من غير مبالاة لكأنه كان وحده . وتجوّل تجار ، وهم يصيحون وينادون ، ببرتقال وسكاكر ومناطيد هوائية للأطفال ، بكعك وما شابه ذلك وبباقات زهور اصطناعية خاصة بقبعات الأطفال ، وعلى انفراد دارت دوّارة وسط موسيقا أرغن حادة . في هذا الوقت حدثت مشاجرة حادة بين بائع جوال وتاجر رفض أن يدفع ، وهناك أمسك خادم شرطة بيد طفل كان قد ضلّ سبيله .

تشرّب لاديدل الذي أصابه الخدر هذه الحياة العنيفة وأحس بالسعادة بأن يشارك في حياة وأعمال كهذه وأن يرى بعينيه أشياء سيظل المرء يتحدث عنها زمناً طويلاً في الإقليم كله . كان مهماً له أن يسمع في أية ساعة يتوقع المرء الملك ، وحين تأتى له أن يقترب من صالة الشرف حيث أقيمت المائدة على مرتفع مزيّن بالأعلام ، رأى بإعجاب وتقدير المحافظ ومجالس إدارة المدينة ووجهاء آخرين ذوي

نياشين وأوسمة يجلسون إلى وسط مائدة الشرف ويأكلون ويشربون النبيذ الأبيض بكؤوس مصقولة . وذكر الناس أسماء الرجال همساً ، ومن عرف شيئاً آخر عنهم أو كانت له علاقة بهم وجد مستمعين شاكرين . وقد سرّ كل إنسان أنّ هذا حدث على مرأى منه وأتيح له أن يرى الكثير الكثير من البهاء . كما أنّ لاديدل الصغير ذهل وأعجب وأحس بأنه عظيم ومهم بصفته مشاهداً لمثل هذه الأشياء ، وتكهن بأيام بعيدة ، لأنه كان سيصف الروعة كلها وصفاً دقيقاً لناس كانوا أقل سعادة ولم يكن في استطاعتهم أن يحضروا .

نسي الغداء كلياً ، وحين شعر بالجوع بعد عدة ساعات جلس في خيمة أحد الحلوانيين والتهم بضع قطع من الجاتو . ثم أسرع إلى الزحام من جديد لكي لا يفوته شيء وكان سعيداً كل السعادة أن يرى الملك ولو من الخلف . ثم اشترى بطاقة دخول إلى رواقات الرمي ولو أنه لم يفهم أي شيء عن الضرب بالنار ، إلا أنه تفرّج على الرماة بمسرة وتوتر واستعرض بعض الأبطال المشهورين وراقب برهبة تعابير الوجه وغمز عيون الرماة . ثم قصد الدوارة ونظر إليها برهة من الزمن وتجول تحت الأشجار في السيل البشري المرح واشترى بطاقة مصورة عليها صورة الملك ، ومن ثمّ أصغى طويلاً إلى بائع مناد في السوق كان ينادي على بضائعه ويطلق الدعابة تلو الدعابة وملأ ناظريه من منظر الجماهير المتبرجة . محمر الوجه فرّ من غرفة مصور كانت زوجته قد دعته إلى

الدخول وأطلقت عليه وسط قهقهات الملتفين اسم دون جوان ساحر فتان . وبقي واقفاً المرة تلو المرة لكي يصيخ السمع إلى موسيقا ما ويشارك في دندنة ألحان مشهورة ويلوح فوق ذلك بعصاه على الإيقاع .

حل المساء على هذا كلّه ، وانتهى الرمي ، وبدأ هنا وهناك تعاطي الشراب في الصالات أو تحت الأشجار . وعلى حين كانت السماء لا تزال تسبح في ضوء رقيق وانتصبت جبال وأبراج بعيدة في صفاء المساء الخريفي ، بدأت تتوهج هنا وهناك أضواء ومصابيح . ومضى لاديدل في الطريق منتشياً وأسف لحلول المساء . وسارع سكان المدينة كلهم نحو بيوتهم لتناول العشاء ، وامتطى أطفال حلّ بهم التعب مناكب آبائهم متمايلين ، واختفت العربات الأنيقة ، ومقابل ذلك استيقظ في الشباب الذي يتطلع بفرح إلى الرقص والخمر ، رغبة ومرح طائشان ، وكما ازدادت الساحة والأزقة خلواً ، فقد ظهر هنا وهناك وعلى كل ناصية شارع عاشقان ، ذراع بذراع ملؤهما فروغ صبر وتوقع لذة ليلية .

في هذه الساعة بدأ سرور لاديدل يتبدد مثل ضوء النهار الزائل . راح الشاب الوحيد يطوف في المساء وقد صار متأثراً وحزيناً . وما من عاشقين مرّا به ضاحكين ضحكة نصف مكبوتة إلا واتبعهما بنظره ، وحين أخذت سلسلة من مصابيح ورقية حمراء تتوهج في إحدى الحدائق تحت أشجار كستناء سامقة سوداء ذات بهاء فتان وحين دوّت من الحديقة نفسها موسيقا ناعمة ملؤها الشوق ، عندها تبع نداء

الكمنجات المستعرة الهامسة ودخل . كان يجلس إلى منضدات طويلة كثير من الشباب وكانوا يأكلون ، وفي الخلف كانت تنتظر حلبة رقص كبيرة أضيئت نصف إضاءة . جلس الرجل الشاب عند نهاية الطاولة الشاغرة وطلب نبيذاً وطعاماً . ثم استراح واستنشق هواء الحديقة وأصغى إلى الموسيقا ، أكل قليلاً وشرب ببطء في جرعات صغيرة الخمر غير المألوف . وكلما أطال النظر في المصابيح الحمراء والاستماع إلى عزف الكمنجات واستنشاق عبير ليل الاحتفال خال نفسه أكثر وحدة وتعاسة . وحيثما نظر رأى وجنات حمراء وعيوناً نهمة تشع ، ورأى شباباً في سترات الأحد ذوي نظرات جريئة مستبدة ، وفتيات في زينتهن بعيون مشتاقة وأقدام مضطربة مستعدة للرقص . لم يكن قد فرغ بعد من عشائه حين بدأ عزف الموسيقا وتألقت حلبة الرقص بمئات الأضواء واندفع الراقصون مسرعين إلى الرقص زوجين زوجين .

رشف لاديدل نبيذه ببطء لكي يتمكن من البقاء في مكانه بعض الوقت ، وحين أتى أخيراً على النبيذ لم يستطع أن يعقد العزم على العودة إلى البيت . فطلب أن يأتوه مرة أخرى بزجاجة صغيرة وجلس وحدق واضطرب اضطراباً واخزاً لكأنما كان عليه أن ينتظر رغم هذا كله غبطة وسعادة في هذا المساء ولكأنما كان لا بدّ أن يعود عليه أيضاً شيء من فيض اللذة . وبما أنّ هذا لم يحدث فقد اعتبر نفسه في الألم والعناد صاحب حق لأن يسكر أول سكرة في حياته إكراماً

للاحتفال ولتعاسته على أقل تقدير . ولهذا كلما اشتد مرجل المرح غلياناً من حوله تصاعدت تعاسته وحاجته إلى العزاء وجرّتا الأعزل إلى الاسراف والسكر .

الفصل الرابع

بينما كان لاديدل جالساً أمام كأس نبيذه إلى الطاولة وكان ينظر بعينين متوهجتين إلى زحمة الرقص وقد سحره ضوء المصابيح الأحمر وإيقاع الموسيقا السريع وملّ حزنه إلى حد اليأس ، سمع فجأة إلى جانبه صوتاً خافتاً يسأل :

" أأنت وحدك ؟"

التفت بسرعة فرأى فتاة جميلة ذات شعر أسود لابسة قبعة بيضاء كتانية وبلوزة حمراء خفيفة وقد انحنت فوق مسند المقعد . ضحكت بفم خفيف الحمرة ، على حين تدلى حول الجبين الذي كان يتصبب عرقاً والعينين السوداوين بضع خصلات من الشعر . " أأنت وحدك ؟" سألت مشفقة وفي خبث ، وردّ الجواب :" آه نعم ، للأسف ." عندئذ تناولت كأس نبيذه واستأذنت بنظرة ، وشربت نخبه كل ما فيه دفعة واحدة شرب عطشان . رأى في أثناء ذلك عنقاً رفيعاً طلع ضارباً إلى السمرة من داخل قماش أحمر خفيف ، وفي أثناء شربها أحس بقلب يخفق خفقاناً شديداً أنّ مغامرةً تنشأ هنا شيئاً فشيئاً .

ولكي يساهم في الموضوع ملأ الكأس الفارغة وقدمه للفتاة ، إلا أنها هزت الرأس ونظرت إلى الوراء صوب ساحة الرقص حيث دوّت لتوها موسيقا جديدة .

قالت : " أود أن أرقص " ، ونظرت في عيني الشاب الذي نهض في لحظتها وانحنى أمامها وسمى اسمه .

" اسمك لاديدل ؟ والاسم الشخصي ؟ اسمي فانّي ."

أخذته إليها ، وكلاهما غاص في تيار الفالس وهيجانه . الفالس الذي لم يسبق أن رقصه لاديدل بهذا الشكل الممتاز . وفيما مضى سعد فقط بمهارته وساقيه الخفيفتين سلوكه الحسن وكان قد فكر في أثناء ذلك بصورة دائمة كيف يبدو هو وهل يترك أثراً طيباً في النفس . الآن لم يكن هنا من موجب للتفكير بذلك ، فقد طار في دوامة حامية ، كهبوب الريح أعزل ، إلا أنه كان سعيداً ومنفعلاً في قرارة نفسه . فتارة كانت تجذبه راقصته وتلوحه إلى حد أنه كان يفقد استقراره وأنفاسه ، وتارة تهدأ وتلتصق به بحيث إن نبضها كان يدب في نبضه ودفؤها كان يثير دفأه .

حين انتهى الرقص وضعت فانّي ذراعها في ذراع مرافقها وسحبته معها . سارا ، وهما يتنفسان من الأعماق ، في تؤدة على طول تعريشة ، بين أزواج أخرى ، في غسق مليء بألوان دافئة ، ومن خلال الأشجار زها ضوء مصابيح الحفل الأحمر ، وقد تخللته ظلال متحركة ، وفي هذا

الضـوء الغـامض تحـرك الراقـصـون المسـتـريحـون وهم يتـجـاذبون أطراف الحديث ، والفتـيات في ثياب وقبـعات بيضاء فـاتحة الألـوان وبأعناق وأذرع عـارية ، بعضـهن تزودن بمراوح تحـركت مثل أذيال الطواويس . لم يلاحظ لاديدل هذا كله إلا على أنه ضـبـاب ملون اختلط مع الموسـيقا وهواء الليـل ، ومن ذلك لاح بين الفـينة والأخرى فـقط وفي حس عـابر وقريب وجه مشرق بعينين متوهجتين ، ولاح فم فاغر ضاحك بأسنان لامـعـة ، ولاح ذراع أبيض مـقـوس تقـوسـاً لطيـفـاً على نحـو واضح وللحظات .

قالت فانّي بصوت خفيض :" ألفريد !"

" نعم ، ماذا ؟"

" ليس عندك حبيبة ، أليس كذلك ؟ حبيبي سافر إلى أمريكا ."

" لا ، ليس عندي حبيبة ."

" ألا تريد أن تكون حبيبي ؟"

" أريد هذا ."

كـانت بين ذراعيه وقدمت له الفم الرطيب . نشوة حب سرت في الأشـجار والدروب ؛ قبّل لاديدل الفم الأحـمـر والعنق الأبيض والقـفـا الضارب إلى السـمرة ، ويد فتاته وذراعها . قادها أوقادته إلى طاولة على حدة في الظل العميق ، وطلب خمراً وشرب معها من كأس واحدة ، وكـان قد وضع الذراع من حـول خصرها وأحس ناراً في عروقه كلها .

منذ ساعة كان في العالم وكل شيء ماضٍ قد غاب وراءه وسقط في مكان لا قرار له ، وحوله هب الليل المتوهج جباراً ، من غير أمس ومن غير غد .

كما أن فانّي الجميلة فرحت بحبيبها الجديد وشبابها المزهر ، ولكن بلا قيد ولا شرط وبشرود عقل أقل من حبيبها الذي سعت إلى أن تضاعف ناره بيد وتتقيها باليد الأخرى . فمساء الرقص الجميل أعجبها هي أيضاً كل الإعجاب ، ورقصت رقصاتها بوجنتين ساخنتين وعينين براقتين ؛ إلا أنها لم تقصد أن تنسى بذلك نياتها وأغراضها .

ولهذا علم لاديدل إبان المساء ، بين الخمر والرقص ، من محبوبته قصة طويلة حزينة بدأت بأمها المريضة وانتهت بديون وتشريد وشيك . لم تقدم للعاشق المذهول هذه الأخبار المريبة على دفعة واحدة ، بل على فترات طويلة ، استطاع في أثنائها أن يسترد قواه دائماً من جديد وكان في الإمكان أن تعاوده الحماسة ، لا بل إنها رجته ألا يفكر في ذلك كثيراً جداً وألا يترك هذا يفسد عليه مساءه الجميل ، لكنها ما لبثت أن صعّدت التنهدات من جديد وجففت عينيها . وعند لاديدل الطيب ، كما هي الحال عند كل المبتدئين ، بدت الشفقة أيضاً أقرب إلى أن تكون ملهبة ومثيرة منها إلى القمع والإخماد ، بحيث إنه ظل يحتضن الفتاة ووعدها بين القبلة والقبلة بجبال ذهبية للمستقبل .

رضيت بهذا من غير أن تظهر نفسها بأنها ارتضت بذلك ، ثم وجدت فجأة أن الوقت متأخر ولا يجوز لها أن تترك أمها المريضة

المسكينة تنتظر أكثر من ذلك . وطلب لاديدل وتوسل ، وحاول أن يستبقيها حيث كانت أوعلى الأقل أن يرافقها ، عاتب وشكا وأبدى بكل الطرق أنه بلع الصنارة ولن يمكنه الخلاص أبداً .

لم تطلب فانّي المزيد . هزت كتفيها يائسة ودلكت يد لاديدل بحنو وطلبت أن يودعها إلى الأبد . إذ أنها إذا لم يكن في حوزتها حتى مساء الغد مائة مارك سُيرمى بها وبأمها المسكينة في الشارع ولن يكون في إمكانها أن تكون مسؤولة عما سيدفعها إليه اليأس من بعد ذلك . آه ، كان في ودها أن تكون لطيفة وتنعم على ألفريد كل إنعام ، لأنها تحبه حباً شديداً ، لكن في ظل هذه الظروف فإنه لمن الأفضل أن ينفصلا وأن يكتفيا بالذكرى الخالدة لهذا المساء الجميل .

لم يكن هذا الرأي رأيه . ومن غير تفكير وعد أن يدبر النقود مساء الغد ، وبدا أنه متأسف إلى حد ما بأنها لم تمتحن حبّه بامتحان أكبر .

تنهدت فانّي : " آه ، لو أنك تستطيع !" وفي أثناء ذلك التصقت به إلى حد أنه كاد أن يفقد أنفاسه .

قال : " اطمأني إلى ذلك . " هنا أراد أن يرافقها إلى البيت ، إلا أنها كانت خجولة وشعرت فجأة بخوف رهيب جداً من أن الناس قد يرونها وقد تتأثر سمعتها الطيبة ، فاستسلم مشفقاً وتركها وحدها .

وعلى هذا راح يطوف على غير هدى ساعة من الزمن . ومن هنا وهناك ومن حدائق وسرادقات ظل يدوي احتفال ليلي . ووصل أخيراً

إلى البيت محموماً ومتعباً ، وذهب إلى السرير وراح على الفور في نوم مضطرب استيقظ منه مرة ثانية بعد ساعة من الزمن . هنا احتاج إلى وقت طويل لكي يجد طريقه من فوضى مريرة لأحلام ولهاء . كان الليل شاحب اللون ورمادياً من النافذة ، وكانت الحجرة مظلمة وكان كل شيء هادئاً بحيث إن لاديدل الذي لم يتعود ليالي المساء ، نظر في حيرة وخوف إلى الظلمة وأحس بنشوة المساء التي لم يبرأ منها بعد تعتمل في رأسه . شيء ما لم ينسه وبدا أنه ضروري التفكير به عذبه برهة لا بأس بها . في النهاية اتضح الكدر المؤلم ، وعرف الحالم الصاحي من جديد ما المسألة . هنا كان السؤال من أين سيأتي بالمال الذي وعد به حبيبته ، محور أفكاره طوال الليل . لم يفهم قط كيف استطاع أن يعطي مثل هذا الوعد ، لا بد أنّ هذا حدث في حالة من السحر والافتتان . كما أن الفكرة بأن يخلف وعده ، ألفها أيضاً وبدت مريحة . على أنه لم يحرز النصر ، لأن حسن الطوية الصادقة منعت الشاب من أن يترك فتاة بائسة تنتظر انتظاراً غير مجدٍ مساعدةً تمّ الوعد بها . على أن تذكّر جمال فانّي وقبلاتها ودفء جسدها والأمل الوطيد بأنه سيمتلك هذا كله غداً ، كان أشد وأقوى أيضاً . ولهذا عدل عن ذلك وخجل من الفكرة بأن يخونها ، وصرف كل فطنة وألمعية إلى التفكير بالطريق إلى المال الذي وعد به . على أنه كلما كثر تفكيره وتوهمه تضخم المبلغ في تصوره واستحال الحصول عليه أكثر .

حين دخل لاديدل المكتب في الصباح يائساً متعباً بعينين أضناهما الأرق ورأس مصاب بالدوار ، وجلس في مكانه ، لم يكن يعرف بعد كيف المخرج . كان في الصباح الباكر عند مقرض للمال لقاء رهن وأراد أن يرهن ساعته والسلسلة مع كل أشيائه الصغيرة النفيسة ، إلا أن المشوار المنهك المخزي لم يكن مجدياً ، إذ أن الرجل أبى أن يعطيه لقاء هذا كله أكثر من عشرة ماركات . وها هو قد انكب على عمله محزوناً كئيباً وأمضى ساعة ملل على الجداول ، وما يدري إلا ورسالة قصيرة تأتيه بالبريد الذي جلبه صبي متدرّب . فضّ الغلاف الرقيق مذهولاً ودسه في جيبه وقرأ الرسالة القصيرة الوردية خفيةً فوجد فيها : " يا أعز الناس ، ستأتي اليوم مساء ، أليس كذلك ؟ لك قبلاتي المخلصة فانّي ."

كان هذا حاسماً . قرر لاديدل أن يفي بوعده مهما كان الثمن . وأخفى الرسالة القصيرة في جيب سترته الداخلي وكان يخرجها المرة تلو المرة خفيةً لكي يشمها ، إذ أنه كان عليها عطر دافئ خفيف صعد إلى رأسه مثل الخمر .

في تأملات الليلة الفائتة كانت الفكرة قد خطرت بباله بأن يحصل على المال بطريقة غير شرعية إذا اقتضى الأمر ، إلا أنه لم يفسح لهذه الخطط مجالاً في نفسه . ثم عادت وأصبحت أقوى وأكثر تملقاً . ومع أنه خاف من السرقة والاحتيال ، إلا أن الفكرة أنّ المسألة هنا ليست إلا مسألة اقتراض إجباري سيكون الردّ بالنسبة إليه مقدساً ،

صارت مقنعة أكثر وأكثر . على أنه أجهد نفسه بلا جدوى في التفكير بطريقة التنفيذ . لقد أمضى النهار ذاهلاً عما حوله ومروراً ، فكر وخطط ، وسيكون في النهاية مهموماً ومكروباً ، إلا أنه سيكون طاهراً بأن يخرج من هذا الامتحان ، هذا إذا لم تجعل منه فرصة مغرية جدّاً جدّاً في المساء وفي الساعة الآخيرة إنساناً منبوذاً عديم الكرامة .

كلّفه صاحب المحل بأن يرسل إلى هنا وهناك رسالة مضمونة فيها قيمة مالية معينة ، وعدّ له الأوراق المالية . كانت سبع ورقات وعدّها معه مرتين . عندئذٍ لم يقاوم واحتفظ بيدٍ مرتجفة بواحدة من الورقات وختم على الورقات الست في الظرف وجاءت هذه إلى البريد وسافرت .

أراد أن يندم على فعلته حين نقل الصبي المتدرب الرسالة المختومة إلتي لا يتفق عنوانها مع مضمونها . بدا له هذا أخطر وأغبى اختلاس من بين الاختلاسات كلها لأنه لا يمكن أن تمضي في أحسن الأحوال إلا أيام حتى ينكشف النقص في النقود ويرد الخبر في هذا الخصوص . وحين أرسلت الرسالة ولم يكن في الإمكان إصلاح أيّ شيء شعر لاديدل الذي لم يكن متمرساً بالشر شعور منتحر دفع الحبل حول الرقبة والمقعد ، إلا أنه يود أن يظلّ حياً . ربما استغرق الأمر ثلاثة أيام ، فكّر هو ، وربما يوماً واحداً ، ثمّ يتخلّص من سمعته الطيبة وحريته ومستقبله ، وهذا كله من أجل مائة مارك ليست له . رأى نفسه رهن

التحقيق ومحكوماً ومطروداً بعار وفضيحة وقد أودع السجن وكان عليه أن يعترف أنه يستأهل هذا كله وأنّ هذا كله صحيح كل الصحة .

لم يخطر بباله إلا في الطريق إلى العشاء أنّ الموضوع قد يجري في النهاية على نحو أفضل أيضاً . والحق أنه لم يجرؤ على أن يأمل بأنّ الموضوع قد لا ينكشف ؛ ولكن إذا ما نقص المال أيضاً ، فكيف سيبرهن المرء أنه كان هو اللص ؟ وظهر على حلبة الرقص بعد ذلك بساعة وكان قد لبس سترة العيد وأفضل ثيابه . كانت ثقته قد عادت إليه وهو في الطريق ، أو أنّ رغبات شبابه العارمة التي استيقظت من جديد غطّت على مشاعر الخوف .

كان المساء مليئاً بالحياة والحركة ، إلا أنه لفت انتباه لاديدل أنّ هذا المكان لم يقصده سكان المدينة الأخيار ، إنما في الغالب ناس أوضع وكذلك بعض الناس الذين بدوا مشبوهين . وحين احتسى ربع ليتر من النبيذ المحلي ولم تأت فانّي بعد انتابه ضيق صدر وعدم ارتياح من هؤلاء الجماعة ، فغادر الحديقة لكي ينتظر في الخارج وراء السياج . هنا استند في برودة المساء إلى موضع مظلم من السياج ونظر إلى الزحمة وعجب من أنه كان أمس سعيداً وسط الناس أنفسهم وفي جو الموسيقا نفسها وأنه رقص بمرح وفرح . اليوم سيكون إعجابه بهذا كله أقلّ ؛ ومن الفتيات بدت كثيرات وقحات مستهترات ، والشبان كان لهم عادات سيئة وسلوك رديء وحافظوا أنفسهم في أثناء الرقص على اتفاق

صاخب من خلال الصراخ والصفير . كما أنّ المصابيح الورقية بدت أيضاً أقلّ احتفالية وضياء مما بدت له أمس . لم يعرف ما إذا كان السبب في ذلك التعب أم الصحوة أم ضميره المعذب ؛ على أنه كلما أطال النظر والانتظار ازدادت نشوة الحفل بعداً ، وعقد العزم على أن يغادر هذا المكان مع فانّي حالما تأتي .

حين انتظر ساعة من الزمن رأى عند مدخل الحديقة على الجهة الأخرى أنّ فتاته قد وصلت ، في البلوزة الحمراء والقبعة البيضاء من قماش الشراع ، ونظر إليها بحب استطلاع . وبما أنه كان عليه أن ينتظر زمناً غير قصير أراد أن يداعبها قليلاً ويتركها تنتظر ، واستهواه أيضاً أن يتنصّت عليها هكذا من مكمنه .

تنزّهت فانّي الجميلة الهوينى في الحديقة وبحثت ؛ وبما أنها لم تجده فقد جلست جانباً إلى منضدة . وجاء نادل ، إلا انها أشارت له بالنفي . ثمّ رأى لاديدل كيف اقترب منها شاب لفت نظره أمس أنه رجل طويل اللسان . بدا أنه يعرفها جيداً ، فبقدر ما استطاع لاديدل أن يرى فإنها سألته بحماسة عن شيء ، وأغلب الظن عنه ، وأشار الشاب إلى المخرج وبدا أنه يروي لها أنّ ضالتها كان هنا ، إلا أنه انصرف من جديد .

عندئذ بدأ لاديدل يشعر بالشفقة وأراد أن يسرع إليها ، لكنه رأى في اللحظة نفسها ، وهاله أن يرى ، كيف أمسك الشاب المزعج بفانّي

وتقدّم معها إلى الرقص . راقبهما كليهما بانتباه واهتمام ، ولو أنّ عدة ملاطفات فظة من جانب الرجل أحرجته وجعلته يحمرّ خجلاً ، فالفتاة بدت غير مبالية ولم يهمها أن تردّه وتصدّه .

ما إن انتهت الرقصة حتى دفعت فانّي من قبل مرافقها إلى شخص آخر رفع القبعة أمامها وطلبها في أدب إلى رقصة جديدة . أراد لاديدل أن يناديها وأراد أن يدخل إليها من فوق السياج ، إلا أنه لم يكن لديه متسع ، وكان عليه أن يراقب في خدر أسيف كيف ابتسمت للغريب وبدأت معه الرقصة الحلقية الاسكوتلندية . وفي أثناء الرقص رآها تناغش الآخر وتدلله بالمسح على يديه وتستند إليه ، مثلما فعلت معه ليلة أمس ، ورأى الغريب يبدي ميلاً ويضمها ضماً أشدّ ويتمشى معها بعد انتهاء الرقصة عبر التعريشات الأكثر عتمة ، على حين اقترب الزوجان من المتنصّت اقتراباً مزعجاً بحيث استطاع أن يسمع كلامهما وقبلاتهما بوضوح .

عندئذٍ توجّه لاديدل إلى البيت ، بعينين دامعتين وقلب ملؤه الخجل والغضب ، ومع ذلك كان سعيداً أنه نجا من العاهرة . كان ثمة شباب عائدين من حلبات الرقص إلى بيوتهم وكانوا يغنون ، وتناهت من الحدائق موسيقا وضحكات ؛ أما بالنسبة إليه فقد كان لكل شيء وقع الازدراء به وبكل لذة ، وكان له وقع السم . حين عاد إلى البيت كان منهكاً من التعب ، ولم تكن لديه أية رغبة إلا الرغبة في النوم .

وبما أنه خلع سترته وسوّى كسراته كما جرت العادة ، خشخش جيبه وأخرج ورقة النقد الزرقاء سليمة . استقرت الورقة على الطاولة بريئةً في ضوء الشمعة ؛ نظر إليها برهةمن الزمن ، وهزّ الرأس وهو يقفل الدرج عليها . ولكي يشهد هذا كان قد سرق وأفسد حياته .

ظلّ أرقاً قرابة الساعة ، على أنه لم يعد يفكّر بفانّي في هذا الوقت ولا بالمائة مارك ، بل فكّر بمارتا فيبر وفكّر أنه سدّ الآن الطرق كلها إليها .

الفصل الخامس

عرف لايدل تمام المعرفة ما الذي ينبغي عليه القيام به الآن . كان قد عرف كم هو مرّ وقاسٍ أن يُضطر المرء للخجل من نفسه ، كما أنّ جرأته تِردّت أيضا في الحضيض ، ومع ذلك عقد العزم على ان يذهب إلى معلمه ومعه المال واعتراف صادق وينقذ من شرفه ومستقبله ما يمكن إنقاذه .

ولهذا كان الأمر مزعجاً له أيما إزعاج حين لم يأتِ الكاتب العدل في اليوم التالي إلى المكتب .

انتظر حتى الغداء وعزّ عليه أن ينظر في أعين زملائه لانه لم يعرف ما إذا كان سيقف غداً في هذا المكان ويعدّ مثلهم .

بعد الغداء لم يظهر الكاتب العدل من جديد ، وقيل إنه متوعك الصحة ولن يأتي اليوم إلى المحل . عندئذٍ لم يعد لاديدل يحتمل ، فقد

انصرف بعذر مباشرة إلى منزل المعلم . ورفضوا إدخاله عليه ، لكنه أصر يائساً على ذلك وسمى اسمه وتمنى أن يقابل السيد في أمر مهم . وعلى هذا قيد إلى مكتب المدير وطُلب إليه أن ينتظر .

تركته الموظفة وحيداً ووقف في حيرة وخوف بين كراسٍ منجّدةٍ بقماش قطيفة ، وأنصت لكل صوت في المنزل وكان في يده منديل الجيب لأنّ العرق كان يتصبب من جبينه بدون انقطاع . وعلى منضدة بيضاوية الشكل كانت كتبٌ مزخرفة بالذهب . نشيد الناقوس لشيللر وحرب السبعين ، وفضلاً عن ذلك كان هناك أسد من حجر رمادي ومجموعة صور في إطارات منتصبة . بدا الجو هنا ألطف ، لكنه بدا شبيهاً بالجو في الغرفة الجميلة الخاصة بأبوي لاديدل ، وكل شيء ذكّر بالأمانة والرخاء واليسر والوجاهة . فالصور لم تمثّل إلا ناساً ذوي هندام حسن وعرائس في ثياب العرس الفاخرة وسيدات ورجالاً من أسر عريقة النسب ذوي سمعة طيبة من غير شكّ ، وعلى الجدار أطلّ رأس رجل بالحجم الطبيعي ذكّرت ملامحه وعيناه لاديدل بصورة الأب المتوفى عند السيدتين فيبر . بين وجاهة بورجوازية كثيرة جداً انحطّ الخاطىء في نظره من لحظة إلى أخرى أكثر وأكثر ، وأحسّ أنه معزول عن هذا المحيط بسبب إساءته وارتمى وسط المعدومي الكرامة الذين لا ترسم لهم صور وتثبّت وراء زجاج وتوضع في غرف الجلوس .

ساعة حائط كبيرة من النوع الذي يسميه المرء منظماً تأرجح

رقاصها جيئة وذهاباً ، وبعد أن انتظر لاديدل طويلاً تنحنحت الساعة بصوت خافت وأحدثت من بعد ذلك دقة عميقة جميلة كاملة . ذعر الشاب المسكين ، وفي اللحظة نفسها طالعه الكاتب بالعدل وجهاً لوجه من الباب . لم يلق بالاً إلى انحناءة لاديدل ، بل أشار على الفور آمراً إلى مقعد وثير ، هو نفسه جلس وقال : " ما الذي جاء بك إلى هنا ؟"

قال لاديدل : " أردت ، كنت ، وددت – " غير أنه ازدرد ريقه بصعوبة وانطلقت الكلمات من فيه : " أردت أن أسرقك . "

أومأ الكاتب العدل وقال بهدوء : " بل إنك سرقتني فعلاً ، أعرف هذا . قبل ساعة من الزمن تمّ إبراق هذا . أ أخذت فعلاً ورقة نقدية من ورقات المائة مارك ؟"

وعوض الجواب سحب لاديدل من جيبه الورقة النقدية وناوله إياها . تناولها السيد مدهوشاً ولعب بها ونظر إلى لاديدل نظرات حادة .

" كيف حدث هذا ؟ هل حصلت على البديل ؟"

" لا ، إنها الورقة النقدية نفسها التي كنت قد أخذتها ، لم أستفد منها . "

" إنك غريب الأطوار ، يا لاديدل ، عرفت على الفور أنك أخذت النقود . ولا يمكن أن يكون شخصاً آخر . وفضلاً عن ذلك قيل لي أمس إن أحدهم رآك في مساء السبت في حلبة الرقص في قاعة رقص سيئة السمعة إلى حد ما . أم أنّ الموضوع لا علاقة له بذلك ؟ "

هنا بدأ لاديدل يروي ، ومهما كلف نفسه عناءً ليكبت أشد ما يندى له الجبين ، فقد بان كل شيء تقريباً على غير إرادته . لم يقاطعه السيد العجوز إلا مرتين أوثلاث بأسئلة قصيرة ، وفيما عدا ذلك أنصت إليه في تفكير عميق ونظر بين الحين والآخر في وجه المعترف ، وما عدا ذلك كان ينظر إلى الأرض كي لا يزعجه .

نهض أخيراً وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . تناول إحدى الصور في الغرفة مفكراً . وفجأة ناول الصورة للمذنب الذي تكوّر في مقعده منكسر النفس .

قال :" انظر ، هذا هو مدير مصنع كبير في أمريكا . إنه ابن عم لي ، لا داعي لرواية القصة لكل إنسان . اختلس ألف مارك وهوشاب وفي وضع مماثل لوضعك . تخلّى عنه أبوه ، وكان عليه أن يزجّ في السجن ، وبعدها سافر إلى أمريكا ."

صمت وتنقل هنا وهناك ، على حين نظر لاديدل إلى صورة الرجل الضخم وامتص منها بعض العزاء أنّ زلة حدثت في هذه الأسرة الكريمة أيضاً وأنّ الخاطئ قد حقق مع هذا شيئاً ويقدّر مثل المنصفين العادلين ويحق لصورته أن تكون بين صور ناس لا عيب فيهم .

في أثناء ذلك كان الكاتب العدل قد انتهى من حبك أفكاره وتقدم من لاديدل الذي نظر إليه في خجل .

قال شبه متودد : " أنا أرثي لحالك ، يا لاديدل . ولا أظن أنك

سيء ، وآمل أنك ستعود إلى جادة الصواب . وفي النهاية قد أجازف واحتفظ بك . إلا أنّ هذا قد يكون غير مريح لنا وسيخالف مبادئي . كما أنني لا أستطيع أن أوصي ابك زميلاً من زملائي وإن صدقت نواياك الطيبة . ونريد إذاً أن نعتبر القضية منتهية بيننا ، ولن أذكر هذا لأحد . لكنك لا تستطيع البقاء عندي ."

الحقّ انّ لاديدل كان فرحاً غاية الفرح أن يرى الشيء المزعج قد عولج بمثل هذه الإنسانية . ولكن بما أنه قد وجد نفسه مطروداً ومقدّراً عليه الذهاب إلى المجهول فترت روحه وشكا :" لكن أي شيء ينبغي أن أبدأ به الآن ؟"

" شيء جديد ،" هتف الكاتب العدل ، وابتسم فجأة . " كن صادقاً ، يا لاديدل وقل : كيف ستكون حالك في الامتحان الحكومي في الربيع القادم ؟ انظر ، الاحمرار يعلو وجهك . ولو أنك استطعت الآن أن تتدارك أخيراً بعض الأشياء في الشتاء . فأغلب الظن أن هذا ما كان سيكفي . وعلى كل حال كنت قد نويت منذ مدة أن أتكلم معك عن هذا . والحق إنها أفضل مناسبة لذلك . وقناعتي ، وربما قناعتك أيضاً بينك وبين نفسك ، هي أنك أخطأت في اختيار مهنتك . فأنت لا تصلح لأن تكون كاتب عدل ولا أن تكون في الحياة الوظيفية . لنفترض أنك رسبت في الامتحان فإنك ستبحث على الفور عن مهنة أخرى تستطيع أن تنهض بها .

الأفضل أن تسافر غداً إلى الأهل . والآن وداعاً ، ولسوف أسرّ إن أطلعتني فيما بعد . وحذار أن تفقد الشجاعة الآن وحذار من القيام بحماقات جديدة ! – وداعاً ، وسلّم لي على السيد الوالد!"

صافح المذهول وشدّ على يده بقوة ودفع الذي أراد مواصلة الكلام إلى الباب .

وبهذا كان صديقنا يقف في الزقاق . لم يكن قد ترك في المكتب إلا واقيتي أكمام سوداوين ، لم تهماه وآثر ألا يظهر هناك قط . ولكن بقدر ما كان مغموماً حزيناً بقدر ما خاف من العودة إلى البيت ومن الأب ، إلا أنه في قرارة نفسه كان ممتناً ومسروراً إلى حدّ ما أنه تخلص من الخوف الرهيب من الشرطة والفضيحة والعار ؛ وعلى حين كان يسير بطيئاً في الشوارع تسللت الفكرة أيضاً أنه لم يعد أمامه امتحان ، تسلل شعاع مواس إلى وجدانه الذي اشتاق لأن يرتاح من تجارب هذه الأيام الكثيرة وتنفس الصعداء .

وبذلك وفي أثناء تجولّه هنا وهناك بدأت تعجبه التسلية غير المعهودة بأن يتنزّه حراً عبر المدينة في هذه الساعة . وبقي واقفاً أمام نوافذ عرض التجار وراقب خيول العربات التي كانت تنتظر عند قارعات الشوارع ورنا أيضاً إلى السماء الخريفية الرقيقة الزرقة واستمتع ساعة من الزمن بشعور عطلة غير متوقعة . ثم عادت أفكاره إلى الدائرة القديمة ، وحين انعطف بالقرب من منزله عند قارعة زقاق التقته سيدة

شابة جميلة شابهت مارتا فيبر . هنا خطر كلّ شيء بباله من جديد ، وكان عليه أن يتصوّر ما سيخطر ببال مارتا وما ستقوله لو علمت بقصته . الآن خطر بباله أن رحيله من هنا لن يختطفه من الوظيفة والمستقبل فحسب ، بل سيختطفه أيضاً من القرب من الفتاة المحبوبة . وكل شيء من أجل فانّي .

وكلما ازداد هذا وضوحاً في نظره اشتدت رغبته في ألا يرحل من غير سلام على مارتا . فالكتابة إليها متعذّرة ، إذاً ليس هناك من سبيل إلا فريتز كلويبر . ولهذا قفل راجعاً قبل البيت بمسافة قصيرة وقصد كلويبر في حجرته .

أحس فريتز الطيّب بسرور خالص أن يراه مرة ثانية . على أن لاديدل نوّه له باختصار ، أنه يجب أن يترك مركزه لأسباب خاصة ويرحل .

" لا ، لا ! " صاح فريتس في حسرة . " لكن في هذه الحال يجب أن نجلس معاً على الأقل ، من يدري متى نلتقي! متى يجب أن تسافر؟"

فكّر ألفريد . " غداً يجب أن أحزم أغراضي . إذاً بعد غد ."

" إذاً سأتفرغ مساء غد وآتي إليك إذا ما ناسبك ذلك ."

" حسن . وحين تذهب إلى خطيبتك بّلغ سلامي إلى الجميع !"

" أجل ، بكل سرور . ولكن ألا تريد أن تذهب بنفسك إلى هناك ؟"

" آه ، ليس هذا ممكناً الآن على الإطلاق - إذاً غداً !"

ومع ذلك فكر هذا اليوم واليوم التالي فيما إذا لم يكن عليه القيام بذلك . إلا أنّ الشجاعة لم تؤاته للقيام بذلك . أيّ شيء كان سيقوله وأنّى له أن يشرح رحيله ؟ على كل حال داهمه اليوم خوف رهيب من السفر إلى الوطن ومن والده ومن الناس في الوطن ومن العار الذي واجهه . لم يحزم أغراضه ، ولم يجد الشجاعة لكي يخطر صاحبة البيت بترك الغرفة . وعوضاً عن القيام بكلّ ما هو ضروري جلس وملأ ورقة بمسودات رسالة إلى والده .

" أبي العزيز ! لم يعد الكاتب العدل في حاجة إليّ -"

" أبي العزيز ! بما أنني غير صالح لوظيفة كاتب عدل - "

لم يكن سهلاً التعبير عن الشيء الرهيب برقة ولكن بوضوح . إلا أنه على كلّ حال كان سبك هذه الرسالة أسهل من السفر إلى البيت والقول : ها أنذا عدت ، فقد طردوني . وهكذا تمت الرسالة عند المساء .

في المساء كان خائر العزيمة منهك القوى ، ولم يسبق أن وجده كلويبر هكذا رقيقاً ولطيفاً . كان قد جلب له معه قارورة زجاجية صغيرة مصقولة كهدية وداع . قدّم له هذه وقال : " هل لي أن أعطيك هذه للذكرى ؟ سيكون لها مكان في الحقيبة ؟" وفي أثناء ذلك التفت حوله وصاح مستغرباً : " أنت لم تحزم أغراضك بعد ! هل لي أن أساعدك ؟"

نظر لاديدل إليه نظرة حائرة وقال : " أجل ، لم يبلغ الأمر بعد هذا

الحد . يجب أن أنتظر رسالة . "

قال فريتز : " يسرني هذا ، وبذلك سيكون لنا متسع من الوقت للوداع . هل تعرف ، يمكننا أن نذهب معاً مساء هذا اليوم إلى آل فيبر . خسارة أن ترحل هكذا . "

خيّل للاديدل المسكين أنه انفتح باب إلى السماء وانغلق من جديد في اللحظة ذاتها . أراد أن يقول شيئاً ، اكتفى بأن هزّ الرأس ، وحين أراد أن يرغم نفسه غصّ بالكلمات ، وفجأة انفجر أمام فريتز المدهوش في النشيج .

" صاح مذعوراً : " يا إلهي ، ما بك ؟ " أومأ لاديدل بالنفي دون أن ينبس بكلمة . كان كلويبر قد تأثّر كثيراً واهتزت جوانحه أن يرى صديقه الأبيّ المبجّل باكياً بحيث إنه أخذه بالأحضان مثل مريض ودلك يديه بالمسح وعرض عليه مساعدته بتعابير غير محددة .

قال ألفريد حين استطاع أن يتكلم ثانية : " آه ، لن تستطيع مساعدتي ثانية ." على أن كلويبر لم يتركه وشأنه ، وأخيراً بدا للاديدل أنه لخلاصٌ له أن يعترف لإنسان طيب مخلص مثل هذا الإخلاص بحيث إنه استسلم . جلسا وجهاً لوجه ، وأدار لاديدل وجهه إلى الظلمة وبدأ : " أنت تعلم ، آنذاك وحين ذهبنا معاً أول مرة إلى خطيبتك -" وواصل حديثه عن حبّه لمارتا ، وعن خصامهما وتباعدهما ، وكم يؤلمه هذا . ومن ثم تطرّق إلى الحديث عن حفل الرماة

وعن استيائه ووحشته ، وعن المرقص وفانّي ، وعن ورقة المائة مارك النقدية . وكيف بقيت هذه من غير أن تصرف ، وأخيراً عن حديثه أمس مع الكاتب العدل وعن وضعه الحالي . واعترف أيضاً أنه لا يملك الجرأة لأن يمثل هكذا أمام أبيه ، وأنه كتب إليه وينتظر الآن في فزع وهلع ما سيأتي .

أصغى فريتز كلويبر إلى هذا كله بهدوء وانتباه ، وهو مهموم ومتأثر في أعماقه بمثل هذه الأحداث . حين صمت الآخر وجاء دوره بالحديث قال بصوت خافت وعلى استحياء : " إني أرثي لحالك ." ومع أنه هو نفسه لم يختلس قط في حياته فلساً واحداً ، واصل الكلام : " قد يحدث مثل هذا لكل إنسان ، كما أنك أعدت المال ثانية . أي شيء أقوله هنا . أهم ما في الأمر الآن هو بماذا تبدأ ."

" أجل . ليتني أعرف ! أتمنى لو أني متّ ."

صاح فريتز : " ليس لك أن تتكلم هكذا . ألا تعرف فعلاً أي شيء ؟"

" لا شيء على الإطلاق . أستطيع أن أصبح الآن كسّار حجارة ."

" لن يكون هذا ضرورياً .– لو أعرف ما إذا لم يكن هذا إهانة لك – "

" ماذا ؟"

" أجل ، لديّ اقتراح . إنما أخشى أن يكون هذا غباءً مني ، وأنك ستغضب من ذلك ."

" مؤكد لا ! فهذا لا يمكن أن يخطر ببالي ."

" انظر! أنا أتصـور الأمـر هكذا - أنت اهتـمـمت هنا وهناك بأشغالي وجربّت أنت ذلك من باب اللهو والتسلية . وعندك كثير من العبقرية لهذا ، ولن يمضي إلا قليل حتى تستطيع ذلك أفضل مني ، لأنّ لديك أصابع ماهرة وتتمتع بذوق رائع جداً . أقصد ، إن لم يكن هناك شيء أفضل ، ألا ترغب في أن تجرّب حرفتنا ؟"

أخذت لاديدل الدهشة ، لم يكن قد فكّر قط في ذلك . حقاً إن حرفة حلاّق لم تكن حتى الآن مزرية في نظره ، إلا أنها لم تبدُ على جانب كبير من النبالة . أما الآن فكان قد هبط من ذلك المستوى العالي ولم يعد هناك من سبب كبير لكي يستهين بأيّة حرفة شريفة . وهذا ما أحسّ به أيضاً ، وسرّه أنّ فريتز قد أثنى على موهبته مثل هذا الثناء . قال بعد شيء من التفكير : " لن يكون هذا أسخف الأشياء . لكنك تعرف أنني يافع وتعوّدت مستوىً آخر ، ولسوف يصعب عليّ أن أبدأ مرّة أخرى صبياً متمرناً عند أي معلم . "

أومأ فريتز . " حسن ، حسن . ليس المقصود هذا أيضاً . "

" وكيف إذاً ؟"

" أقصد أنك تستطيع أن تتعلم عندي ما يمكن تعلّمه أيضاً . أوننتظر إلى أن أصبح صاحب محلّ ، ولن يطول هذا . كما أنك تستطيع أن تأتي الآن إليّ . ومعلّمي يتمنى أن يستقبل متطوعاً يكون

ماهراً ولا يريد أجراً . وبعدها سأشرف أنا عليك ، وحالما أبدأ صالوني تستطيع أن تلتحق عندي . قد لا يكون سهلاً عليك أن تتعود هذا ، ولكن إذا ما كان للمرء زبائن أخيار فلن يكون محلاً خاسراً ."

استمع لاديدل في دهشة لذيذة ، وأحس أن مصيره تقرّر هنا . فإذا ما كان شيء من التراجع من كاتب عدل إلى حلاّق ، فإنه أحسّ مع هذا برضى رجل اكتشف مهنته الحقيقية ووجد طريقه المحددة له .

" أنت ، إن هذا لرائع " ، هتف في سعادة ومدّ يده إلى كلويبر . "الآن فقط أطمئن من جديد . وربما لن يوافق أبي على الفور ، إلا أنه يجب أن يفهم هذا . وأنت ستحكي معه أيضاً ، أليس كذلك ؟ "

" إذا كان هذا رأيك -" ، قال فريتز على استحياء .

كان لاديدل الآن مبتهجاً غاية الابتهاج بمهنته المقبلة ، وكانت تملؤه الحماسة بحيث إنه أراد أن يقوم بالتجربة في اللحظة نفسها . وسواء أراد كلويبر أم لم يرد ، كان عليه أن يأخذ مكانه ليقصّ له صديقه ويغسل له رأسه ويسرّح له شعره . أبصرْ ، كل شيء نجح على خير وجه تقريباً من دون أن يضطر فريتز إلى إعطاء بعض النصائح البسيطة . وقدّم له لاديدل سجائر ، وجلب سخان كحول النبيذ وأضاف شاياً ، تحدّث وأدهش صديقه بشفائه السريع من كآبته دهشة لابأس بها . واحتاج فريتز إلى وقت أطول لكي يرتضي هذا الجو المتبدل ، على أن مزاج ألفريد استخفه أخيراً ، غاب قليلاً ، فما كان من

هذا إلا أن أمسك قيثارته كما في أزمان سابقة بهيجة وبدأ يترنم بأغنيات مرحة . ولم يحل بينه وبين ذلك إلا مشهد الرسالة إلى أبيه التي كانت لا تزال على المنضدة وشغلته وقتاً طويلاً في المساء المتأخر بعد انصراف كلويبر . تصفحها مرة أخرى ، لم يعد راضياً عنها وقرر أخيراً أن يسافر إلى الأهل وأن يقدّم اعترافه بنفسه . الآن جرؤ على ذلك لأنه وجد مخرجاً من الكآبة .

الفصل السادس

حين عاد لاديدل من زيارته لأبيه ، أصبح أكثر هدوءاً بقليل ، لكنه وصل إلى غايته والتحق لمدة نصف سنة متطوعاً عند معلم كلويبر . في البداية رأى وضعه قد ساء بذلك جداً ، ذلك لأنه لم يعد يكسب أي شيء والمصروف الشهري من الأهل كان محدوداً جداً . كان عليه أن يترك غرفته الجميلة ويأخذ غرفة حقيرة ، وأقلع عن بعض العادات التي بدت لا تناسب مكانته الجديدة . القيثارة وحدها بقيت لديه وأعانته على أن يتخطى الكثير ، كما أنه استطاع أن يستسلم الآن من غير حدود لميله إلى عناية دقيقة بشعره وشاربيه ويديه وأظافره . فقد ابتكر لنفسه بعد دراسة قصيرة تسريحة أعجبت كل إنسان وجاد على بشرته بأحسن الفرشايات والمراهم والصابون والماء والذرور . أما الشيء الذي نجح فيه أكثر من هذا كله فقد كان الرضى الذي وجده في المهنة

الجديدة ، والطمأنينة بأن يمارس الآن صنعة وافقت مواهبه وكانت له فيها آمال وفرص لينجز شيئاً ما .

في البداية تركه المرء يقوم بأعمال ثانوية فقط . كان عليه أن يقصّ الشعر للصبيان ويحلق للعمال وينظف الأمشاط والفرشايات ، على أنه سرعان ما حاز على ثقة معلمه بمهارته في تضفير جدائل اصطناعية وشهد بعد انتظار قصير اليوم التذكاري الذي سمح له فيه بأن يقوم على خدمة سيد حسن اللباس يدلّ منظره على وجاهة . وكان هذا سعيداً وأعطاه بقشيشاً ، وتقدمت الأمور مرحلة مرحلة . مرة واحدة جرح وجنة أحد الزبائن وكان لا بدّ أن يتعرض للوم والتأنيب ، وبالمناسبة لم يحظَ تقريباً إلا بالاستحسان والقبول . وبصورة خاصة كان هذا فريتز كلويبر الذي أعجب به ، لا بل اعتبره مختاراً . إذ أنه وإن كان هو نفسه عاملاً نشطاً ، إلا أنه كان يفتقر إلى القدرة على الابتكار التي تستطيع أن تصنع لكل رأس التسريحة المناسبة ، كما أنه كان يفتقر أيضاً إلى الطبع الخفيف الظريف المحدّث في مخالطة الزبائن . في هذا كان لاديدل مهماً ، وبعد ربع سنة رغب الزبائن الدائمون المدللون في أن يقوم هو على خدمتهم . وعرف أيضاً كيف يقنع إلى جانب ذلك أسياده لأن يقتنوا بصورة متكررة دهانات شعر جديدة ودهانات للذقن وصابوناً وفرشايات غالية وأمشاطاً ؛ وفي الحقيقة كان على المرء أن يأخذ بنصيحته في هذه الأمور بحسن نية وامتنان ، إذ أنه هو نفسه

كان يظهر بمظهر لا عيب فيه ويحسد عليه وجاهز كما ينبغي أن يكون عليه .

وبما انّ العمل شغله كثيراً وأرضاه هان عليه أكثر أن يتحمل كل عوز ونقص ، وبذلك تحمّل أيضاً وهو صابر الفراق الطويل عن مارتا فيبر . إحساس بالخجل منعه من أن يريها نفسه في شكله الجديد ، لا بل رجا فريتز بصورة دائمة أن يخفي وضعه الجديد عن السيدتين . على أن هذا لم يكن ممكناً إلا لوقت قصير . إنّ ميتا التي لم يخفَ عليها ميل أختها إلى كاتب العدل الوسيم استترت بفريتز واكتشفت كل شيء بسرعة . وبذلك استطاعت أن تكشف لأختها أخباره شيئاً فشيئاً ، وعلمت مارتا باستبدال مهنة حبيبها الذي قام به لاعتبارات صحية ، كما علمت أيضاً بعشقه الوفي وفاءً ثابتاً . وفضلاً عن ذلك علمت أنه يرى أنه يجب أن يخجل أمامها من مهنته الجديدة وأنه على أية حال قد لا يظهر للعيان مرة ثانية حتى يكون قد وصل إلى شيء وتكون له آماله وفرصه المبررة للمستقبل .

ذات مساء جرى ذكر " كاتب العدل " من جديد في غرفة الفتاتين . كانت ميتا قد غالت في مديحه ، أما مارتا فقد تصرفت كعهدها في صدود ورفض وتفادت أن تكشف أوراقها .

قالت ميتا :" انتبهي ، فهذا يتقدم بسرعة كبيرة جداً بحيث إنه سيتوصل في النهاية إلى الزواج قبل خطيبي فريتز ."

" ليكن هذا ، ويطيب لي أن أراه قد نال ذلك ."

"ولا تتـمنينه لنفـسك أيضـاً ؟ أم أنّ كـاتب عـدل ليس من مستواك؟"

"خليني بعيدة عن الموضوع ! سيعرف لاديدل أين يمكنه أن يبحث له عن واحدة ."

" سـيكون له هذا ، آمل ذلك . لكن ثمـة من تلقّـاه في صـدود بالغ ، وهو الآن خجول ويخبط خبط عشواء . فلو أشير إليه إشارة واحدة لجاء راكضاً على يديه ورجليه ."

" هذا ممكن ."

"حسن . أينبغي عليّ أن أشير ؟"

" أتريدينه أنت ؟ أقصد ، عندك خطيبك ."

عندئذٍ سكتت ميتا وضحكت بينها وبين نفسها . رأت كيف حزّت حدّتها السابقة في نفس أختها . وفكّرت بسبلٍ تجذب بها الشخص الذي أصبح خجولاً ، وأصغت بشماتة إلى تنهدات مارتا المكبوتة .

في أثناء ذلك جاء مرة أخرى خبر من شافهاوزن من معلم فريتز القديم وأفاد بأنه يتمنى لنفسه أن ينهي العمل . وهنا استفسر عما يريده كلويبر . وفي الوقت نفسه ذكر مبلغاً يباع به محلّه ، وكم ينبغي عليه أن يدفع منه . كانت هذه الشروط مقبولة وطيبة ، على أنّ نقود كلويبر لم

تكن كافية لذلك بحيث إنه راح يتجول مهموماً وخشي أن تفوته هذه الفرصة الطيبة للاستقلال وامكانية الزواج . وأخيراً تغلّب على نفسه وكان لابدّ أن يتخلى عن ذلك . ولم يخبر لاديدل بالموضوع إلا فيما بعد .

أنّبه هذا أنه لم يعلمه بالأمر قبل هذا الوقت واقترح على فوره بأن يعرض الموضوع على والده . فإذا كان في الامكان كسبه فسيكون في إمكانهما أن يتوليا المحل سوية .

فوجىء لاديدل العجوز حين جاء إليه كلا الشابين بمطلبهما ولم يرغب في أن يبدأ على فوره . على أنه كانت له ثقته الطيبة بفريتز كلويبر الذي اهتم بابنه على أفضل وجه في الساعة الحاسمة ، كما أنّ ألفريد جلب معه وثيقة ثناء من معلمه الحالي . وبدا له أنّ ابنه الآن على الطريق القويم ، وتردد في أن يرفض الطلب . وبعد مشاورات دامت عدة أيام قرّر وسافر بنفسه إلى شافهاوزن لكي يرى بنفسه كل شيء .

تمّ الشراء وهنّأ الزملاء كلا الشريكين . وقرركلويبر أن يتزوج في الربيع ورجا لاديدل أن يكون وكيل العريس الأول . في هذه الحال لم يعد هناك مجال لتجنب الزيارة في بيت فيبر . وجاء لاديدل بصحبة فريتز إلى هناك وشقّ عليه بسبب خفقان القلب صعود الدرجات الكثيرة . واستقبلته فوق الرائحة الطيبة المعهودة والظلمة الوانية المعهودة . ورحّبت به ميتا مبتسمة ، ونظرت الأم إليه متخوفة مهمومة .

أما في الخلف في الغرفة المضاءة فقد وقفت مارتا وقفة الجد وعلى شيء من الشحوب في ثوب أسود ، صافحته ولم تكن هذه المرة بأقل منه اضطراباً . تبادلوا المجاملات واستفسرعن الصحة وشرب بأقداح صغيرة عتيقة الطرز نبيذاً حلواً خفيف الحمرة مصنوعاً من عنب الذئب ، وتحادثوا في أثناء ذلك عن العرس وما يستتبع ذلك . والتمس ألفريد الشرف بأن يسمح له بأن يكون فارس الآنسة مارتا ، ودعي بأن يثابر أكثر على الظهور في البيت من جديد . ولم يتبادل كل منهما مع الآخر إلا عبارات مجاملة تافهة الشأن ، إلا أنّ كلاً منهما نظر إلى الآخر خفيةً ، وكل منهما وجد الآخر قد تغير على نحو لا يمكن التعبير عنه ، إلا أنه ظريف لطيف . ومن غير أن يقول أحدهما للآخر هذا الشيء عرفا وأحسا أنّ كلاً منهما عانى في هذا الوقت وقررا خفيةً ألا يؤلم أحدهما الآخر مرة ثانية لغير ما سبب . وفي الوقت نفسه لاحظ كل منهما أيضاً باندهاش أنّ الفراق الطويل والعناد لم يقصياهما عن بعضهما بعضاً ، بل قرباهما من بعضهما بعضاً ، وخيّل إليهما أنّ الأهم بينهما كان على ما يرام .

وهكذا كانت الأمور أيضاً ، ولم تكن المساهمة بقليلة أن ميتا وفريتز نظرا إلى الإثنين بعد اتفاق صامت نظرتهما إلى زوجين موعودين . وكان إذا جاء لاديدل إلى المنزل بدا لهم جميعاً بديهياً أنه

آت بسبب مارتا وأنه يرغب قبل كلّ شيء في أن يكونوا معاً . وساعد لاديدل بصدق في الاستعدادات للعرس وتصرف بحماسة وحرارة لكأنه اعتبر هذا عرسه . إلا أنه ابتكر في تكتم وبفن غير متناه تسريحة جديدة ورائعة لمارتا .

قبل العرس بعدة أيام ، وبما أن الدنيا كانت قائمة قاعدة في البيت ، حضر ذات يوم في مهابة . انتظر لحظة لأنه كان وحده مع مارتا وفاتحها بأنّ له في نفسه طلباً جريئاً . احمرت وظنّت بأنها تعرف كل شيء ، ومع أنها لم تجد اليوم قد أحسن اختياره ، إلا أنها لم ترغب في أن تفوّت عليها أي شيء وأجابت بتواضع بأنه ليس له إلا أن يتكلم . وبجرأة تقدّم من بعد ذلك بطلبه الذي لا يرمي إلى شيء إلا أن تسمح له بأن يقدّم للآنسة بمناسبة يوم الحفل تسريحة جديدة ابتكرها هو .

وافقت مارتا مدهوشة على القيام بتجربة . وكان على ميتا أن تساعد ، هنا شهد لاديدل اللحظة أن أمنيته قد تحققت وأمسك شعر مارتا الأشقر المسترسل بيديه . في البداية أرادت أن يكون لها هذا وهو أن تسرّح ميتا لها شعرها وأن يؤازرها بالنصح فقط ، على أنّ هذا لم يترك لها المجال للقيام بذلك ، بل إنه ما لبث أن مدّ يديه ولم يعد يترك الآن مكان خدمته . وحين أوشك مبنى الشعر أن يكتمل تركت ميتا الإثنين وحدهما ، للحظة واحدة في الظاهر ، إلا أنها بقيت بعيدة زمناً

غير قصير . في أثناء ذلك كان قد فرغ لاديدل من فنه . رأت مارتا نفسها في المرآة قد تجمّلت جمالاً ملكياً ، ووقف هو وراءها وهو يحسّن هنا وهناك . هنا طغى عليه التأثّر بحيث أنه مسح مدللاً بيد خفيفة على فودي الفتاة الجميلة . وبما أنها التفتت خائفة ونظرت إليه في هدوء بعينين مخضلتين حدث من تلقاء نفسه أن انحنى فوقها وقبّلها ، وركع أمامها وهي ممسكة به باكية ، ثم نهض ثانية عاشقاً وعريساً لها .

" علينا أن نقول هذا للماما ، " كان هذا من بعد ذلك أول عبارات التملق ، ووافق على ذلك ، مع أنه كان خائفاً بعض الشيء من الأرملة العجوز المحزونة ، لكنه حين وقف أمامها آخذاً بيد مارتا وطالباً يدها ، اكتفت بهزّ الرأس قليلاً ونظرت إليهما في حيرة وغمّ ولم يكن لديها ما توافق عليه أوتعترض عليه . إلا أنها استدعت ميتا ، وهنا تعانقت الأختان ، ضحكتا وبكيتا ، إلى أن وقفت ميتا مكانها ودفعت الأخت بكلتا ذراعيها أمامها وأمسكتها بعد ذلك وأعجبت بتسريحتها في ولع ولهفة .

" يا الله " ، قالت للاديدل وصافحته ، " هذا عمل رائع لك . إننا نخاطب بعضنا الآن بصيغة الكاف ، أليس كذلك ؟"

في اليوم المحدّد جرى العرس ببهاء ، وفي الوقت نفسه حفل الخطوبة . وعلى هذا سافر لاديدل على جناح السرعة إلى شافهاوزن ،

بينما قام آل كلويبر بالاتجاه نفسه برحلة العرس . سلّم المعلم الشيخ المحل للاديدل ، وبدأ هذا على فوره لكأنه لم يمارس قط شيئاً آخر . وإلى حين وصول آل كلويبر ساعد العجوز ، وكان ضرورياً ، إذ أن باب المحل كان كثير الفتح والإغلاق . وسرعان ما رأى لاديدل أنه نجح هنا ، وحين وصل كلويبر مع زوجته على الباخرة الآتية من كونستانس ومرّ عليه وأحضره قصّ في طريق العودة اقتراحاته حول تكبير المحل في المستقبل .

في يوم الأحد التالي خرج الصديقان إلى النزهة مع الزوجة الشابة إلى شلالات الراين التي جلبت الماء الوافر في هذا الفصل . هنا جلسوا سعداء تحت أشجار اكتست بأوراق فتية ورأوا الماء الأبيض يتدفق ويتطاير إلى رذاذ ، وتكلموا عن الزمن الماضي .

" أجل " ، قال لاديدل متأملاً ونظر إلى التيار الهادر ، " في الأسبوع القادم كان امتحاني سيجري ."

قالت ميتا : " ألا يحزنك هذا ؟" لم يحر لاديدل جواباً . لم يهزّ إلا الرأس وضحك . ثم أخرج من جيب سترته الداخلي لفافة صغيرة وفتحها وأخرج منه نصف دزينة من الكعك الصغير قدّم منها للآخرين وهو نفسه أخذ منها .

ضحك فريتز كلويبر : " أنت تبدأ بداية طيبة . هل تعني أن المحل يدر ربحاً كثيراً ؟"

" يدرّ ذلك " ، أومأ لاديدل وهو يلوك . " إنه يدرّ ، يجب أن يدرّ المزيد ."

(١٩٠٨)



الفراشة الطاووسيّة

كان ضيفي وصديقي هاينريش مور قد عاد من نزهته المسائية وجلس عندي الآن في حجرة المكتب، في ضوء النهار الأخير أيضاً. وأمام النوافذ كانت البحيرة الشاحبة اللون بعيدة، وقد أحاطت بها الضفة المكونة من التلال بشدة. كنا نتكلم عن الأطفال وذكريات الطفولة في اللحظة التي تمنى لنا فيها ابني ليلةً سعيدة.

قلت :" منذ أن أنجبت أطفالاً نشطت عندي بعض الهوايات التي تعود إلى زمن الشباب. لا بل إني منذ نحو سنة ابتدأت من جديد بمجموعة فراشات محفوظة ."

رجاني، وخرجت لأحضر علبتين خفيفتين أوثلاث علب خفيفة من الورق المقوى. حين فتحت الأولى لاحظ كلانا أولاً كيف كانت الدنيا قد أظلمت؛ فقد صعبت معرفة الفراشات المنشورة.

تناولت المصباح وأشعلت عود ثقاب، وفي هذا الوقت كانت الطبيعة تغيب عن النظر، وامتلأت النوافذ بزرقة ليلية كثيفة.

أما فراشاتي فقد شعتّ في ضوء المصباح الوهّاج من داخل العلبة

في بهاء وروعة . وانحنينا فوقها ، وراقبنا أشكالها الجميلة الألوان وذكرنا أسماءها .

" هذا الذي هناك هو وشاح أصفر ، و باللاتينية الباهر fulminea ، ويعتبر هنا نادراً ."

كان هاينريش مور قد أخرج إحدى الفراشات بحذر على رأس دبوسه من العلبة وراقب الجانب السفلي من جناحها .

قال :"غريب ، ما من منظر يوقظ ذكريات الطفولة بمثل هذه القوة في داخلي مثل منظر الفراشات ."

وعلى حين وضع الفراشة مرة ثانية في مكانها وأغلق غطاء العلبة : "هذا كفاية!"

قال هذا بخشونة وبسرعة لكأن هذه الذكريات كانت مزعجة بالنسبة إليه . وإثر ذلك ، ولما أنني كنت قد حملت العلبة بعيداً ودخلت ثانية ، ابتسم بوجهه الأسمر النحيل وطلب سيجارة .

قال بعدئذ : " لا تؤاخذني ، إذا لم أكن قد أمعنت النظر أكثر في مجموعتك . كانت لي أيضاً مجموعة وأنا شاب ، إلا أنني أفسدت ويا للأسف على نفسي بنفسي ذكرى ذلك . في وسعي أن أحكي لك ، مع أن الأمر شائن مزرٍ ."

أشعل سيجارته من فوق اسطوانة المصباح ، ووضع المظلّة الخضراء فوق المصباح ، بحيث إن وجهينا غاصا في ظلمة وانية ، وجلس على

إفريز النافذة المفتوح حيث صعب تمييز شكله النحيف الرفيع عن الظلمة ، وعلى حين كنت أدخن أنا سيجارة وكان في الخارج نقيق الضفادع البعيد المدوّي يملأ الليل ، قصّ صديقي ما يلي .

بدأت أجمع الفراشات في الثامنة أوالتاسعة من عمري ومارست الجمع في البداية من غير حماسة مثل ألعاب أخرى وهوايات أيضاً . ولكن في الصيف التالي ، وحين بلغت من العمر عشر سنوات أسرتني هذه الرياضة كليّاً واستحالت إلى مثل هذا الولع الذي رأى المرء أنه لمن الضروري حظره غير مرة عني ، ذلك لأنه شغلني عن كلّ شيء وفوت كل شيء ، وحين كنت أذهب لإمساك الفراشات لم أكن أسمع عندها ساعة البرج تدقّ ، أكان هذا للمدرسة أم للغداء ، وفي العطلة كثيراً ما كنت في الخارج من الصباح الباكر حتى الليل ، ومعي قطعة خبز في صندوق جمع النباتات ، من دون عودة إلى البيت من أجل وجبة الطعام .

لا أزال أحس الآن في بعض الأحيان بشيءٍ من هذا الولع حين أرى فراشات جميلة جمالاً خاصاً . ثم تداهمني من جديد بهجةٌ مولعة لا حصر لها لا يمكن أن يحسها إلا الأطفال ، تسللت بها وأنا صغير إلى أول فراشة خطافية لي ، ثم تخطر ببالي فجأة لحظات وساعات لا حصر لها من الطفولة ، أعصر متوهجة في الأرض الخلنجية الجافة العاطرة بشدة ، ساعات صباحية باردة في الحديقة أوأمسية على أطراف غابات غامضة حيث وقفت مترقباً ومعي شبكتي وكنت قد

حسبت حساباً مثل باحث عن كنز وفي كل لحظة لأروع المفاجآت والمباهج . وكنت إذا ما رأيت بعد ذلك فراشة جميلة ، لم يكن هناك من شيء يدعوها إلى أن تكون نادرة بصورة خاصة عندما كانت تحط على ساق وردة في الشمس وكانت تحرّك جناحيها الجميلين صعوداً وهبوطاً متنفسةً ، وكانت تقطع عليَّ أنفاسي متعة الصيد ، حين كنت أقترب متسللاً أكثر وأكثر واستطعت أن أرى كل بقعة لون مضيئة وكل عرق بللوري في الجناحين وكل شعرة بنية دقيقة في المجسّات ، كان هذا توتراً ومتعة ، مزيجاً من غبطة ناعمة رقيقة ورغبة ملحة جامحة قلما أحسست بها في حياتي .

وبما أن أبويّ كانا فقيرين ولم يستطيعا أن يهديانى أي شيء من هذا القبيل فقد كان عليّ أن أحفظ مجموعتي في علبة ورق مقوى عادية قديمة . فقد ألصقت قطعة فلين كانت قد اقتطعت من سدادات زجاجات على الأرض لكي أشك فيها الدبابيس ، وبين جدران الورق المقوى المثنية الخاصة بهذه العلبة حفظت كنوزي . في البداية طاب لي أن أُري رفاقي مجموعتي مراراً وتكراراً ، على أنّ آخرين كانت لديهم علب خشبية ذات أغطية زجاجية وعلب يسروع ذات جدران خضراء من شاش شفاف وأبّهة أخرى بحيث إني لم أستطع أن أتباهى بصورة خاصة بأثاثي البدائي البسيط . كما أن حاجتي أيضاً إلى ذلك لم تكن كبيرة وعوّدت نفسي أن أتكتّم على صيدٍ مهم مثير وألا أري الغنيمة

إلا لأخواتي . ذات مرّة كنت قد غنمت فراشة زرقاء نادرة عندنا وكنت قد نشرتها وثبّتها ، وحين جفّت دفعني الزهو إلى أن أريها على الأقل إلى ابن معلم كان يسكن فوق الساحة . هذا الشاب كان له عيب الكمال الذي كان عند الأطفال مخيفاً خوفاً مضاعفاً . كان يملك مجموعة صغيرة غير مهمة إلا أنها بسبب رقّتها وصيانتها الدقيقة استحالت إلى جوهرة ، لا بل إنه فهم الفنّ النادر المعقد بأن يجمّع أجنحة الفراشات المصابة والمكسرة بالغراء ، وكان من كلّ الوجوه صبيّاً نموذجياً كرهته بسبب ذلك بحسد وشبه إعجاب .

هذا الفتى النموذجي أريته فراشتي . تفحّصها تفحّص الخبير واعترف بندرتها وحكم لها بقيمة نقدية قدرها نحو عشرين بنفيكاً ؛ إذ أن الصبي إيميل كان في إمكانه أن يثمّن كل أشياء المجموعة ، ولا سيما الطوابع البريدية والفراشات حسب قيمتها المالية ، إلا أنه بدأ من بعد ذلك نقده فوجد فراشتي الزرقاء منشورة نشراً سيئاً ، والمجسّ الأيمن مثنياً والأيسر ممدوداً ، واكتشف أيضاً بشكل صحيح عيباً آخر ذلك أن الفراشة تفتقد إلى ساقين . حقاً إنني لم أقوّم هذا النقص تقويماً كبيراً ، إلا أن العيّاب أفسد عليّ فرحتي بفراشتي إلى حدّ ما ولم أعد أريه غنائمي .

بعد سنتين ، وكنا ولدين كبيرين ، إلا أن ولعي كان لا يزال في عنفوانه ، انتشرت الإشاعة أن إيميل اصطاد فراشة طاووسية . كان هذا

مثيراً بالنسبة إليّ أكثر بكثير مما أسمع اليوم أن أحد أصدقائي قد ورث مليوناً أوعثر على كتب ليفيوس الضائعة . وما من أحد اصطاد الفراشة الطاووسية . لم أعرفها إلا من الرسم في كتاب فراشات قديم كان عندي وكان نحاسه الملوّن أجمل بكثير وفي الحقيقة أدقّ أيضاً بكثير من الطباعات الملونة الحديثة كلها . ومن بين كل الفراشات التي عرفت اسمها وكنت لا أزال أفتقدها في علبتي . لم أكن أتوق إلى أية فراشة هذا التوق الحار مثل توقي إلى الطاووسية . وكثيراً ما تطلعت إلى الصورة في كتابي ، وكان قد حدثني زميل إذا ما حطّت الفراشة البنية على جذع شجرة أو صخرة وأراد أن يهاجمها طائر أو أي عدوّ آخر مدّت فقط الأجنحة الأمامية المطوية الأكثر سواداً وأبانت الأجنحة الخلفية الجميلة التي تبدو في أعينهم الوهاجة الكبيرة غريبة جداً وغير متوقعة بحيث إن الطائر يرتعب ويترك الفراشة وشأنها .

ثم قيل إنّ هذا الحيوان العجيب في حوزة إيميل الملول ! حين سمعت هذا لم أحس في اللحظة الأولى إلا بالسرور أنّ عينيّ ستقعان على هذا الحيوان النادر وأحسست أيضاً بحبّ استطلاع جارف . ثم داخلني بطبيعة الحال الحسد ، وبدا لي مزرياً أن يقبض هذا المملّ بالذات والكلب الأفطس الأنف على الفراشة النفيسة المنطوية على الأسرار . ولهذا ملكت زمام نفسي أيضاً ولم أكرمه بالذهاب إليه والتفرّج على صيده . إلا أنني لم أحرر أفكاري من الموضوع ، وفي اليوم

التالي وحين تأكّدت الإشاعة في المدرسة عقدت العزم على الفور على الذهاب إلى هناك .

بعد الأكل ، وحالما استطعت الانصراف ، قطعت الفناء مسرعاً وصعدت إلى الطابق الثالث من بيت الجيران حيث سمح لابن المعلم أن يسكن حجرة صغيرة حسدته عليها بجانب غرف خادمات وغرف خشبية (للدجاج) . ما من أحد التقيته في الطريق ، وحين طرقت باب الحجرة لم أتلقّ جواباً . لم يكن إيميل موجوداً ، وحين جرّبت أكرة الباب وجدت المدخل مفتوحاً ، والذي اعتاد أن يغلقه تماماً في أثناء غيابه .

دخلت كي أرى هذا الحيوان على الأقل ، ووضعت نصب عيني على الفور كلتا العلبتين الكبيرتين اللتين كان إيميل قد حفظ فيهما مجموعته . بحثت في كلتيهما من غير جدوى ، إلى أن خطر ببالي أن الفراشة ما زالت على لوح الشد . وهناك وجدتها أنا أيضاً : الأجنحة البنية وقد شدّت بشريط ورقي رفيع ، والطاووسية معلّقة على اللوح ، انحنيت فوقها ورأيت كل شيء عن كثب ، المجسات المشعرة ذات اللون البني الفاتح ، وحافات الأجنحة الرشيقة الملونة تلويناً رقيقاً للغاية ، والشعرالموبّر على الحافة الداخلية للأجنحة السفلية . إلا أن العين وحدها لم أستطع أن أراها ، كان الشريط الورقي قد غطاها .

خافق القلب استسلمت إلى الإغراء لأن أنزع الشريط ، وسحبت الدبوس . هنا نظرت إلى الأعين الأربع الكبيرة الغريبة على نحوٍ أجمل

بكثير وأعجب مما هي فيه في الصورة ، وعند منظرها أحسست برغبة جامحة لا تقاوم في حيازة الحيوان الرائع بحيث إنني لم أر حرجاً في أن اقترف أول سرقة لي في حياتي ، بأن سحبت الدبوس برفق وهدوء ، وحملت بيدي الفارغة من الحجرة الفراشة التي جفّت ولم تفقد الشكل . وفي أثناء ذلك لم أحسّ بشيء إلا بإحساس رضىً شديد .

هبطت الدرج والحيوان مخبأ في يدي اليمنى . عندئذٍ سمعت أن شخصاً ما كان قادماً صوبي من تحت ، وفي هذه الثانية استيقظ ضميري ، وعرفت فوراً أنني كنت قد سرقت وأني إنسان وضيع ، وفي الوقت نفسه انتابني خوف رهيب جداً من انكشاف الأمر بحيث إنني دسست بالغريزة اليد التي أطبقت على السرقة ، في جيب سترتي ، وواصلت سيري ببطء ، مرتعشاً وبإحساس بارد ، إحساس بالتشوش والعار ، مررت خائفاً بخادمة صاعدة إلى فوق وبقيت واقفاً عند باب البيت ، والقلب يخفق والجبين يتفصّد عرقاً ، مضطرباً ومذعوراً من نفسي .

وعلى الفور اتضح لي أنني لا أستطيع ولا يحق لي أن أحتفظ بالفراشة وأنّ عليّ أن أعيدها وأسوّي كلّ شيء بقدر المستطاع وكأن شيئاً لم يكن . وهكذا عدت أدراجي مسرعاً رغم الخوف كله من المقابلة وانكشاف الأمر ، وصعدت الدرج في عجلة . وبعد دقيقة كنت أقف من جديد في غرفة إيميل . وبحذر سحبت يدي من جيبي ووضعت الفراشة على الطاولة ، وقبل أن أنظر إليها ثانية ، علمت

بالكارثة وكنت على وشك أن أبكي ، إذ أن الطاووسية كانت قد تحطمت . فقد نقص الجناح الأمامي والمجس الأيمن ، وحين حاولت أن أسحب الجناح المكسور من الجيب بحذر ، كان قد تمزق ولم يكن هناك مجال لإصلاحه أو لترميمه .

فمنظر الحيوان الجميل النادر الذي دمّرته ، آلمني تقريباً أكثر من الإحساس بالسرقة . رأيت على أصابعي رماد الجناح البنيّ عالقاً والجناح الممزق موجوداً في مكانه . وكنت سأضحي بكل حيازة وسرور لكي أميزها من جديد تمام المعرفة والتمييز .

سرت حزيناً إلى البيت وجلست بعد العصر كله في حديقتنا الصغيرة إلى أن واتتني الجرأة في الدغش لأحكي لأمي كلّ شيء . لاحظت كيف ذعرت وحزنت ، إلا أنها أحست أن هذا الاعتراف قد كلّفني أكثر من تحمّل العقاب .

قالت مؤكدة : " يجب أن تذهب إلى إيميل ، وتقول له هذا بنفسك . هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنك القيام به ، ولا يمكن أن أغفر لك قبل أن يحدث هذا . في استطاعتك أن تعرض عليه أن ينتقي أي شيء من أشيائك بديلاً ، وأن تستميحه العذر ."

كان يمكن أن يكون هذا أسهل عليّ أمام أي رفيق آخر أكثر منه أمام هذا الصبي النموذجي . أحسست مسبقاً تمام الإحساس أنه لن يفهمني ولن يصدقني ، وحلّ المساء وأوشك أن يحلّ الليل من دون أن

يكون في مقدوري الذهاب إليه . في هذا الوقت وجدتني أمي تحت في الممشى وسألتني في صوت خافت : " يجب أن يحدث هذا اليوم ، اذهب الآن !"

عندها توجهت إلى هناك وسألت في الطابق السفلي عن إيميل ، جاء وحكى على فوره أن شخصاً ما قد دمّر له الطاووسية ، ولا يعرف ما إذا كان هذا شخصاً رذيلاً أم طائراً أم القطة ، ورجوته أن يذهب معي إلى فوق ويريني ذلك ، وطلعنا إلى فوق ، فتح باب الغرفة وأشعل شمعة ، ورأيت أنا الفراشة التالفة ملقاة على لوح الشدّ . رأيت أنه كان قد عمل على ذلك لكي يصلحها . فالفراشة التالفة كانت قد نشرت بعناية وموضوعة على ورق نشاف رطبة ، إلا أنه كان محالاً علاجها ، والجس كان ناقصاً أيضاً . هنا قلت إنني أنا الفاعل وحاولت أن أحكي وأشرح .

وعوض عن أن يستوحش إيميل ويصرخ في وجهي ، صفّر عندئذ صفيراً خافتاً من خلال أسنانه ونظر إليّ لحظةً نظرةً هادئة وقال بعدها : " هكذا هكذا ، إذاً يالك من واحد!"

عرضت عليه ألعابي كلها ، وحين بقي بارداً وظلّ ينظر إليّ بازدراء قدمت له مجموعة فراشاتي كلها . لكنه قال :

" شكراً جزيلاً ، أعرف مجموعتك . كان في إمكان المرء أن يرى اليوم من جديد كيف تتعامل مع الفراشات ."

في هذه الحظة أوشكت على الإمساك برقبته . إلا أنه لم يكن في اليد حيلة ، كنت وبقيت وغداً ، ووقف إيميل بارداً في عدالة مزدرية أمامي مثل نظام العالم . لم يسبّ ويلعن ، بل اكتفى بأن نظر إليّ واحتقرني .

عندئذ رأيت أول مرة أن المرء لا يمكنه أن يصلح ما أفسد ذات مرة .

انصرفت وأنا فرح أنّ أمي لم تسألني بل قبلتني وتركتني وشأني وكان عليّ أن آوي إلى فراشي ، كان الوقت متأخراً بالنسبة إليّ . ولكن قبل ذلك جلبت خفية إلى غرفة الطعام العلبة البنية الكبيرة ووضعتها على السرير وفتحتها في الظلمة . ثم أخرجت الفراشات الواحدة تلو الأخرى وسحقتها بأصابعي إلى ترابٍ نتفاً نتفاً .

(١٩١١)

هيرمان هيسّه في سطور

بقلم المترجم

ولد هيرمان هيسّه في الثاني من شهر تموز سنة ١٨٧٧ في كالف Calw من أعمال فورتيمبيرج Württemberg ابناً لأحد الوعاظ التبشيريين الألمان البلطيقيين وكانت الأم قد ولدت في الهند ابنة لمبشّر سوابي . فكان أن امتزجت في دمه عناصر مختلفة أشدّ الاختلاف لتشكّل طبيعة غنية . أمضى صباه في كالف ، مسقط رأسه ، ومن سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٨٨٦ نجده في بازل ، ثم التحق في سنة ١٨٩٠ بالمدرسة اللاتينية في جوبينغين Goeppingen ، وفي سنة ١٨٩١ أدّى "الامتحان الاقليمي" ؛ على أنّ البيئة الأسرية ذات النزعة التقوية الورعة التي نشأ وترعرع فيها فرضت عليه أن يدرس علم اللاهوت ، فما كان منه إلا أن التحق في سنة ١٨٩١ بالمعهد اللاهوتي البروتستانتي في دير ماول برون Maulbronn لكي يهيئ نفسه لمهنة لاهوتي ، لكنه حين وجد أنّ هذه الدراسة ليست مبتغاه ، تملّص منها بالهرب من المعهد في سنة ١٨٩٢ ليصير في العام نفسه تلميذاً في ثانوية كانشتات Cannstatt ؛ ثمّ ولي ذلك سنوات البحث عما يرضيه ويجد نفسه فيه . فراح يتخبط هنا وهناك في حال من القلق وعدم الاستقرار محلّقاً بين أشياء عديدة ، إذا صحّ التعبير ، ومنتظراً معجزة ؛ إذ أنه عمل لدى مكتبي

في مدينة إسلينغين Esslingen وعمل مساعداً لأبيه في اتحاد دور النشر بمدينة كالف ، كما عمل ميكانيكياً في ورشة ساعات أبراج في المدينة نفسها ، وإلى هذا عمل بصفة متمرن في ورشة سباكة ، وفي سنة ١٨٩٥ التحق بالتدريب المهني بصفة مكتبي في مدينة توبينغين ، وفي سنة ١٨٩٩ عمل مكتبياً وتاجر كتب قديمة في مدينة بازل ، فتجاربه التي اكتسبها خلال هذه السنوات ، سنوات التعلم والتدريب المهني والتجوال ، صاغها هيرمان هيسّه في قصته التي تحمل العنوان " تحت الدولاب " (١٩٠٦) .

منذ عام ١٩٠٣ وبعد أن حصد أول نجاح أدبي بروايته "بيتر كامنتسيند" (١٩٠٤) يعيش هيسه في غايينهوفن Gaienhofen (بودين زي) كاتباً متفرغاً .

من سنة ١٩٠٧-١٩١٢ شارك هيرمان هيسّه في إصدار وتحرير مجلة "ميرتس"(آذار) في ميونيخ ، وهي مجلة معادية للفيلهيلمينية ، فترة حكم القيصر فيلهيلم الثاني(١٨٨٨-١٩١٨)الذي خاضت ألمانيا في عهده أوار الحرب العالمية الأولى .

في سنة ١٩١١ يقوم برحلة إلى الهند ليتعرف على عالم الشرق الأقصى بعد أن ضاق ذرعاً بالحضارة الأوروبية والاديولوجيات الأوروبية . وفي سنة ١٩١٢ يغادرهيسه ألمانيا وينتقل إلى بيرن وينسحب إلى الطبيعة المزدانة بألوان عميقة شديدة ، طبيعة تيسّين Tessin السويسرية حيث عاش حياته في عزلة بين الورود واللوحات ، إذ أنه هو نفسه كان رساماً جيداً .

من سنة ١٩١٢ وحتى سنة ١٩١٩ عمل هيسه في خدمة الصليب الأحمر بمدينة بيرن في " رعاية أسرى الحرب الألمان " ، كما أصدر "صحيفة المعتقلين الألمانية"(١٩١٦-١٩١٧) و"مكتبة أسرى الحرب

الألمان" من ٢٢ مـجلداً (١٩١٨-١٩١٩) و "سـاعي يوم الأحـد للأسـرى الألمان" (١٩١٦-١٩١٨) . وفي سنة ١٩١٩ يستـقر نهائياً في مونتاغنولا بالقرب من لوغانو حيث توافيه المنية في سنة ١٩٦٢ .

في سنة ١٩٢٤ يصبح هيرمان هيسّه مواطناً سويسرياً ، وكان من أنصار محبّي السلم ورافضي العنف والحرب والخدمة العسكرية ؛ وفي مقالة بعنوان : أيهـا الاصـدقـاء ، ليس هذه النغـمـات!" نشـرها بتـاريخ ١٩١٤/١١/٣ في "الصحيفة السويسرية الجديدة" اتخذ موقفاً من الحرب وعارض سخف الحرب الدموي . وفي إبان الحكم النازي عدّ هيرمان هيسه ممن هم غير مرغوب فيهم ومن الموشى بهم . وبعد سنة ١٩٤٥ أيّد مجدداً تأمين السلم وتوطيده .

نال عدة جوائز أدبيـة ، منهـا جائزة نوبل للأدب سنة ١٩٤٦ ، كـمـا أنه حصل في سنة ١٩٥٥ على جائزة السلام التي تمنحها تجارة الكتاب الألمانية .

كـتـبـه العـديدة من روايات وقـصص وتأمـلات وأشـعـار ومؤلفـات في السياسة ونقد الحضارة انتشرت في أثناء ذلك في أرجاء العالـم بنسخ تزيد على ٥٠ مليون نسـخة وجعلت منه أكثـر كـتـاب القرن العـشرين قرّاءً في الولايات المتحدة واليابان .

ما يميز هيسه بعامة هو التمسك بالطبيعة والشيء الطبيعي وطبيعةالريف وبساطة الكلمة إلى حد الشفافية ؛ فالموضاعات الأساسية لأدب هيسه هي التربية والتربية الذاتية للإنسان والتضاد بين العقل والحياة . فهو مدين إلى أنّ تفاصيل حياته التي عاشها قد انطبعت في ذاكرته بشكل قوي جدّاً . وفضلاً عن ذلك كان أديبنا قارئاً نهماً تجوّل هنا وهناك في مملكة الأدب العالمي . وفي مقالة بعنوان : "مكتبة الأدب العالمي " (١٩٢٩) يقول هيسّه :" متعة الكتب والدافع إلى المطالعة بدأا في وقت مبكر عندي ." والحق أننا لنجد مبلغ معرفة

هذا المتجول في مملكة الأدب العالمي مبعثرة في ثنايا قصصه .

بدأ بروايات ذات صبغة محلية وتتناول تطور البطل الذهني والنفسي وتشتمل على ذكريات الشباب . فرواية "بيتر كامنتسيند" (١٩٠٤) رواية تربوية كتبت بصيغة ضمير المتكلم ، من منظور الأنا ، وتصوّر شاباً يأتي من الريف إلى المدينة ، ولئن كان موهوباً فنياً وكان له ولع بالفنون ويحمل في جعبته خططاً مثالية ، إلا أنه لايرغب في أن يتكيف في أول الأمر مع مطالب المجتمع المدني العملية ، ثمّ يهرب في النهاية من حضارة المدينة ويلجأ إلى الطبيعة والحياة البسيطة في الريف ؛ فالمسألة هنا مسألة ضدية الهرب من الناس وإلى الناس ، وستكون هذه إحدى أهم الأفكار التي ستطغى على مؤلفات هيسه اللاحقة . كما أن قصة "تحت الدولاب "(١٩٠٦) تنتهي نهاية مأساوية ، إنها قصة تلميذ معذب يلقى حتفه ، فالبطل الشاب مرهف الحس و يمتلك مواهب فنية ، شأن كل أبطال هيرمان هيسّه ، إنه يتحطم على صخرة الأعراف والتقاليد التي تسود بيئة بورجوازية وتربية بورجوازية كما يتحطم على صخرة التناقض بين مواهبه الموسيقية ومطالب المدرسة .

كما أنّ رواية "دميان"(١٩١٩) تصور سعي الشاب البطل اميل سينكلير إلى "حقيقة" ذاته ، على حين يحمل البطل في صدره صورة منقذه دميان الذي يظهر في اللحظة الحاسمة لكي يعيده إلى الطريق إلى الذات . هذا وتصبح أم دميان مثالاً لحب الأم والمرأة . إنه التغني بالصداقة : ففي الصديقين دميان وسينكلير يتجسد التضاد بين الفن والحياة ، الموضوع الذي سيشغل بال هيسه طوال حياته .

في رواية "ذئب البراري"(١٩٢٧) يطالعنا هاري هاللر ، ذئب البراري ،

بطلاً منطوياً على نفسه و يعاني من عصره إلى حدّالمرض ، إلا أنه لا يعرف طريقاً إلى الشفاء . فهو عاجز عن أن يتغلب على الانقسام النفسي إلى ذئب وإنسان في أعماق نفسه . ويهرب من العالم البورجوازي . فالرواية أرادت أن تصور الاضطراب النفسي لعصر يموت في شيء قديم من غير أن يولد جديد ، وكان المفروض أن تظهر أنهّ ليس في إمكان المرء أن يكتسب الشيء الأزلي بالسخط والنقمة على الشيء الزمني الدنيوي . ويؤكد هيرمان هيسه أنّ "هذا الكتاب لئن تحدّث عن آلام ومعانات وضائقات ، إلا أنه ليس بكتاب إنسان يائس ، بل هو كتاب إنسان مؤمن ." إنه يعكس الحياة في نفس إنسان مريض مكتئب النفس .

أما رواية" لعبة الكريات الزجاجية"(١٩٤٣) فقد نشأت في أثناء الحرب العالمية الثانية وتمثل قمة أعماله الأدبية ؛ وهذا الكتاب الطوباوي الناقد للعصر الذي يحاول المؤلف أن يتبين فيه ويصوّر بطريقة رمزية إمكانيات تأثير تربوي تعليمي وضرورته للصالح الانساني هو خلاصة تجاربه . إنها رواية تعليمية تطرح السؤال عن الامكانية أن يكرّس المرء نفسه للعقل في " إقليم تربوي " . إنّ رمز هذا الاقليم ، ألاوهو لعبة الكريات الزجاجية ، وإنّ أسمى ما يحققه يعني توحيد الفنون والعلوم ، وفي الوقت نفسه يعني عرضاً أو استحضاراً لكل إمكانيات الانسان العقلية والروحية على نحو فكري ينم عن لعب وولع بالفنون .

في الفترة التي سبقت "دميان" كتب عدداً من القصص ذات الطابع القصصي القصير ، وقد نشأ شكلها عن المادة أكثر مما نشأ عن إرادة تشكيل واعية . إنها محاولات لم تبرز إلا في العمل الأدبي المبكر لم يولها النقد كبير اهتمام ، ربما لأنّ النقد رأى فيها ، قياساً للأعمال الأدبية الكبرى الروائية على

سبيل المثال ، محاولات ثانوية مهمة ، لا كما هي الحال لدى فرانس كافكا الذي ركز النقد الأدبي على قصصه القصيرة تركيزه على رواياته غير المكتملة .

هذه القصص بعنوان " المغامرة الأولى" التي نقدمها لقراء العربية الذين يهمهم أن يعرفوا أديبنا قاصاً بعد أن عرفوه روائياً كبيرا اختيرت من عدة مجموعات قصصية صدرت عن دار نشر سوركامب . وفي الامكان أن نعدّها محاولات وبدايات لأعماله الأدبية المقبلة التي ذكرنا بعضاً منها . فهذه البدايات ، سواء في الشعر أو في النثر ، تغلب عليها رهافة حس وأجواء رومانسية ، كما يغلب عليها الميل إلى التحليل النفسي .

ومما لاشكّ فيه أنّها ستخاطب وجدان كل قارىء لأنه سيجد فيها أصداء لتجاربه أو ذكرياته من عهد الطفولة والصبا . وسنترك للقارىء المجال لأن يجول ويصول بحرية في أجواء عالم هيسه القصصي ويستمتع بالأحداث ويعيشها وكأنها أحداثه هو .

كان هيرمان هيسه قاصاً وشاعراً وكاتب مقالات وناشر مؤلفات عديدة . فقد نشر مجموعات أغانٍ للشعراء الرومانتكيين الألمان (جان باول ، آيشيندورف ، كيرنر ، نوفاليس وغيرهم) ونشر أيضاً لغوته(١٩٢٣و١٩٣٢) .

كان هيسه كاتباً غزير الانتاج ، من مؤلفاته على سبيل المثال لا الحصر : " بيتر كامينتسيند" رواية(١٩٠٤) ، "تحت الدولاب" قصة طويلة (١٩٠٦) ، "الدنيا" قصص (١٩٠٨) ، "الجيران" قصص (١٩٠٨) ، "كنولب" قصة طويلة(١٩١٥) ، دميان" رواية (١٩١٩) ، "سيدهارتا"(١٩٢٢) ، "ذئب البراري" رواية(١٩٢٧) ، "مكتبة الأدب العالمي"(١٩٢٩) ، "نرسيس وغولدموند" قصة طويلة (١٩٣٠) ، "رحلة إلى المشرق" (١٩٣٢) ، "لعبة الكريات الزجاجية" رواية(١٩٤٣) .

الفهرس





هرمان هسه

نوبل ١٩٤٦

- ولد في ٢ تموز ١٨٧٧ من أبوين مبشرين في الهند.
- ترك دراسة الكهنوت الإعدادية، وعمل ميكانيكياً، ثم كتبياً، ثم تحول نهائياً إلى الكتابة.
- تجنس بالجنسية السويسرية بعد أن استقر فيها بعد عام ١٩١٩.
- ينتمي إلى الرومانسية الألمانية، ويجسد في أدبه الشعور بالعزلة الروحية.
- من أبرز مؤلفاته «بيتر كامنزينت» ١٩٠٤، «دميان» ١٩١٩، «ذئب البراري» ١٩٢٧، «الموت العاشق» ١٩٣٠.
- نشر ديوانين من الشعر (١٩٢٢) و (١٩٢٩).
- توفي في ٩ آب ١٩٦٢.

